هنري أبو خاطر

بين النكبة والمأساة

لبناني يتكلم

دار النهار للنشر

A
956.92044
A455b
c.1

هنري أبو خاطر

byblos 179338

بين النكبة والمأساة

لبناني يتكلم

دار النهار للنشر

جميع الحقوق محفوظة

دار النهار للنشر

بيروت ١٩٧٩

المحتويات

	صفحة
تمهيد	٧
الطبيعة البشرية	١٣
الايمان والمأساة	٢٩
الاوطان القومية	٤٩
الاهداف والآثار	٦٧
الواقع الصهيوني	٨٦
الواقع المصري	١٠٤
الواقع العربي	١١٩
الواقع اللبناني	١٣٥
الوفاق الوطني	١٥١
رسالة المسيحيين	١٦٧
قدر المسلمين	١٨٢
أزمة أم وفاق ؟	١٩٧

« وطننا عالم الفكر ولا نريد ان نهبط منه » .

آلان بيرفيت

تمهيد

المعرفة هي غير الاثارة ، والمعرفة هي ما نريد . والقول انّ « لبنانياً يتكلّم » ليس اثارة او تعريضاً بل تفاعل مع الواقع . والواقع ، في محيطنا القائم ، يشمل لبنان ويشمل رحاباً اوسع . والتلاحم راسخ ولا نقاش فيه .

لبنان لا نبغي به تفريطاً ، وخير الولاء الولاء من منظار فسيح . واللبنانيون – وبعضهم أثقله الاتّهام – مطالبون ، الساعة ، بالقول الصريح ، فما كان همساً كثر فيه الضجيج وما اكتنفه الظلام خرج الى النور من باب كبير ، فالعدو « ظهير » والظاهرة تستوجب التحليل ، والتحليل لا بد منه لسلامة الرؤية ، فالحكم بعيداً عن التعليل ، هو شر الاحكام ، ونتائج الاحداث والاحداث نفسها لا تبحث بمعزل عن الاسباب ، والاسباب مدخل الى الحل السليم .

الحلول ، احياناً ، لا تنبع من موقف سلبي ، فسلبية المواقف قد تصلح في الافراد وتفسد في الاعداد . والحكمة هي في تحديد العلة ولوجاً من الداء الى علاج الدواء . ولا بد ، دوماً ، من لقاء يجمع بين اللبنانيين ، « فالعثرة » ليست حكراً على فريق . والعرب ، أنفسهم ، تناسى

بعضهم الخطر المصيري وهرع منهم «سادة وكبراء» الى مصافحة الاعداء .

وفي يقيننا ان الكلمة المجردة واجبة على اللبنانيين ، فكثر معنيّون بالرد ، والرد نبغيه محاولة تبعد عن نزوات الهوى وتقود على صراط قويم . ودفع الهوى ضرورة لا حياد عنها ، فالاهواء والميول تفعل فعلها ، والحقيقة وان وضحت تقف ، غالباً ، في منتصف الطريق . وهي ، نظرياً ، ليست حكراً على فئة او فريق . والتشديد عليها من روح الحديث وبه عنينا ما رواه البخاري عن النبي ، والنبي اراد ان «تقول الحق ولو في حضرة سلطان جائر» .

*

السعي ينطلق من التحليل ، والتحليل ما لا ينبثق عن المعرفة المجردة الى ابعد حدود التجريد يخالف المعرفة . والتحليل لا يلزم بموقف ، فالمواقف شيء والظمأ الى الادراك شيء آخر . وانى تكن المحاولة فهي لا تودي بانتمائنا الفكري او تنال من ثبات الرأي وتوهن ، عندنا ، صدق الحدس وسلامة النظرة . فما نؤمن به اليوم آمنا به أمس ولسوف نؤمن به في الغد اصراراً منا على رأي نحله مقاماً ونشعر في قرارة الضمير ان الحياد عنه ضرر لا ننزلق اليه ما لا نبغي تفريطاً في واجبنا الوطني .

الواجب الوطني يشد الانسان الى محيطه ولا يسلخه عنه . واللبناني يعشق وطنه ويأبى انسلاخاً عن محيطه العربي . ولو فعل لحقت عليه الضلالة ، فالمنطق يفرض على اللبنانيين ، في ما بينهم ، العيش المشترك ، بدءاً بمجموعاتهم الصغيرة وانتهاء بمجموعهم الكبير . وهو ، ايضاً ، يدعوهم الى التفاعل في محيطهم العربي ، وفيه يعمل عديدهم ويحيا .

ولولاه لفقد لبنان «صمام الأمان» ، اذا جاز التعبير ، ولبدت هجرة اللبنانيين الى بلاد الغرب ضرورة تستنزف الدماء وتشق اللحمة . فمن سار الى بلاد العرب عاد في النهاية منها ، ومن قصد الغرب قبع فيه . ومهما تكن العقبات وتبدُ الفوارق — ان قامت ثمة فوارق — بين العرب وبعض اللبنانيين فلا بد للمنطق من ان يغالب ويغلب . والمنطق يقول ان الامور ليست أخذاً فحسب بل هي عطاء وأخذ . والمنطق ، أيضاً ، عود الى الحكمة ، والحكمة حفاظ على «الجار ولو جار» . والجار ، في بلاد العرب ، يشرع الأبواب ولا يقفل الدار . ولئن تباينت المعتقدات ، احياناً ، وكثرت عندها الفوارق فالاقليات لا تخرج عن ضرورات المنطق ، والمنطق حوار ، والحوار يسلم الاوضاع ، واوضاع الأقليات يسلمها حسن التصرّف ويسلمها ، أيضاً ، التسامح واللين .

*

تضاربت الديانات والمعتقدات على مر التاريخ ولم تشكل ، حتماً ، مدار خلاف . فالبدائيون دانوا لظاهرات (١) الطبيعة وعبدوها دون ان تفضي بهم الظاهرات الى نزاع دائم . والديانات ، من بعد ، وان سمت الى رحاب كريمة كثيراً ما فصلت بين الانسان والانسان . والفصل كان عجزاً عن توفير اللحمة وكان ، ايضاً ، تفرقة مباشرة بدافع من ايمان يقول ان الحقيقة وقف على فريق دون فريق وان السعادة في هذه الفانية وفي ما وراء هذه الدار رهن بايمان معين ، فبعضنا يحتكر السعادة ويحتكر الله ، والآخرة سر قال فيه بعض «اخوان الصفاء» :

---

(١) Phénomènes.

«مـــا جاء أحد يخـــبر   في جنة من مات او في نار !»

مفهوم الله ليس ما يخاله العديدون . وفيه ، الآن ، لا نبغي نقاشاً انطلاقاً منا الى آفاق الدراسة — وآفاقها رحاب — بل نكتفي بقول عابر يرى ان الله يحبو بعطفه الناس على غير تفريق ، فالنظرة اليه تخلو من مفاهيم بشرية تنعي الوفاق وتودي بحرية التفكير وامكانية التقرير .

ولنلحظ ، عبر التاريخ ، في المجتمعات « المتطورة » سمات النوازع نتيجة حتمية لتباين الديانات والمعتقدات . ولنرى في الجذور الواحدة بل في الايمان الواحد تعدد النزعات وتوافر النزاعات . والتساؤل حـــول الاسباب يطرح نفسه على غير جدال . والاجابة ، حتماً ، لا تسلك الطريق الفريد . وهي ، في كل الحالات ، تناقش في معاني الدين . فاذا كان الدين ، فحسب ، طرق عيش ونواحي تفكير فلا بد من تباين النظرة بين حال وحال . ولئن كان الدين في جوهره ، تفاعلاً في مجال روحي — وهو ما يجب ان يكون — فانتفاء النزاع قد يدرك الخاتم . ومن سوء ما نلحظ ان الدين ، في نظر بعضهم ، يعـــبر آفاق الآخرة فتتكثر النوازع وينفجر الصراع .

*

هذه الحقائق نسوقها سراعاً ونتلمس اثارها عـــلى كل صعيد . وما نتوق اليه هو التحليل في معرض التدليل . والتحليل يسائل في أمور كثيرة هي من بحثنا في الصميم ، فنحن في شرقنا المعذب نعيش في مأساة ، والمأساة يردونها الى مقتضيات الدين ويتناسون العلة الكامنة في طبيعـــة الانسان . ومن طبيعة الانسان نعبر الى نفسه ، « فالنفس أمارة بالسوء » ، والديانات ان قالت بالخير فهي لا تبدل ، دوماً ، من طبيعة الانسان .

وتنعكس النتائج على الواقع وهو مرير ، فالمرء يبغي السيطرة وانعتاقاً من حال وفرضاً لحال . وقد يفعل باسم الدين ، والدين ، ان كرم ، هو منه براء . وعـــلى من يحلل ان ينطلق الى حقيقة الاحداث ويضع الأمور في نصاب عادل فيجهد في دفـــع الغموض وتبديد الضباب . والخوف ان يتعسر فيعثر ، ولئن عثر بعد عن صدق النظرة وسلامة التحليل .

وعسانا نصل بالمحاولة الى شاطىء أمين . ونحن لا نبغي ، اصلاً ، دقائق التفصيل فالاحداث وفيرة والتفصيل يطل على ما ندرك وعلى ما يخفى عنا . وفي التحليل لا بد ، احياناً ، من دقة التفصيل . وما نرجوه تعرية مأساة اسعرت بيننا الهشيم فنحيط برسالتنا وقدرنا ونطل عـــلى الواقع ونؤكد على الوفاق بعد ان نحدد اسباب النزاع وحوله ، احياناً ، كثر الرياء وان تكن الرواسب والانكفاء عن الواجب وتصدع الصف القومي اسهمت في إذكاء الصراع . والصراع يضني اجيالنا من بعد ويطرح التساؤلات ، والتساؤلات تستدعي الاجوبة ، والاجوبة تتناول الاطراف وتتناول الأبعاد . وما نأباه ان تبنى الاحكام على حدث معين وان نأخذ واقعة ونقسو على اساسها ونرحم ، فللاحداث علل واسباب ، والنتائج لا تبحث بمعزل عنها ، وترتيب المسؤوليات يحيط بالاسباب . وما لم نرق الى العلل تنحجب عنا المعرفة . والجهل ، في رأينا ، خير من معرفة ناقصة .

*

الحرب علقم . ومـــن يخل الحرب فترة فحسب لا نتائـــج وفترة ورواسب يَـحِـدْ عن بدهيات الصواب . ومن يلقِ على غيره بوزره يعل الابتسامة على الشفاه . ومن يتعامَ عن الحقائق يلقَ « ضعفين مـــن

العذاب » . ومن يهدم « الدار » ويوجه رشاشه الى صدر اعزل لا شكر له ولا ثواب . ومن يذكي النيران وينشي وراء الجدار ويتسبب بقتل الابرياء عليه ان ينتظر الحساب . وكل عاقل يرفض قذارة المذابح ودفع الناس الى حافة الهلاك . والخطأ يتوزعه اكثر من فريق ، وثمرات الحروب اشواك لا ورود . وما نحن الا شاهد اضنته قساوة المحنة وآلمه الانين وهاله العشا فأنس الى الكتابة وحاول التفسير .

روما ، ١٩٧٨/١٠/٣

هـ . ا.

الطبيعة البشرية

النفس والسوء

مأساة لبنان وظلامة الفلسطينيين ليستا من فصيل واحد وان قام بينهما الرباط ، فالفلسطينيون هجروا ، لعامل قسري ، ارضاً اقاموا عليها وأقام عليها آباؤهم واجدادهم من قبل . وللمأساة جذور أبعد من تصور عادي ، ولظروف الامس واليوم ، ايضاً ، يد في كل عذاب . والظروف المباشرة والقريبة عرضناها في دراسة مستقلة (١) . اما لبنان فضحية نفسه وضحية تآمر تقسيماً له وتفريقاً بين أهليه .

بحثنا الحالي ، في بدئه ، يتناول ارتباط الظلامة والمأساة بطبيعة الانسان ، فطبيعة الانسان ، في نظرنا ، تفعل الخير وتصنع المآسي وتجر الويلات . فلا شيء يؤخذ على اطلاقه ولكل شيء نقيض والوتيرة الواحدة ، ان توافرت ، ليست قاعدة بل شواذ . والامور وان عادت ، احياناً ، الى عامل خارجي فهي ، في عللها ، تعود ايضاً ، الى طبيعة الانسان . ومبدأ السببية (٢) لا حدّ له ، بل يأخذ بعين الاعتبار ،

---

(١) « فلسطين والخطر المصيري بين النيل وشبه جزيرة العرب » : منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٩ .

(٢) Principe de Causalité.

جملة وتفصيلاً ، العوامل والاسباب . والنتائج لا تبحث بمعزل عنها. ولا بد من الرجوع الى آفاق أرحب وان نسجت من خيط رفيع . « والخيط الرفيع » يطل بنا الآن ، على طبيعة الانسان .

طبيعة الانسان او الطبيعة البشرية محاسن ومعايب وفي واقعها لا يسوغ الخلاف . وما ورد ، على سبيل المثال ، في الانجيل وفي القرآن عن سوئها (١) يعبر عن واقع راهن . ونحن لا نعرض السوء ، في ذاته ، رغبة في التدليل عليه . وما الاشارة الا وليدة يقين يجمع بين الضعف البشري وقذارة المآسي . والضعف ضعف ارادة يتجلى نواقص وعاهات ، غرائز واهواء .

التشاؤم والجمال

بيد ان التأكيد على ضعف الانسان ، نواقص وعاهات ، لا ينطلق ، عندنا ، من نظرة تشاؤمية تقضي على معاني الجمال . فالتشاؤم سواد والسواد لا يسيطر ، منفرداً ، على حياة الانسان . وهو ان كان من طبيعته لا يتحكم في الطبيعة على اطلاق . والتشاؤم مرحلة ، وهو ، ايضاً ، عند بعضهم صفة غالبة . ومن استسلم للتشاؤم وافلت حبل السواد عيب في توازنه وان تعددت حسناته في ناحية او مجال . والتشاؤم لا يدركه ، فحسب ، الضعفاء ، فقد يخضع له عظماء الرجال . وللحالات النفسية فيه يد ، والبيئة تشد منه والظروف تعبث فيه ،

(١) « ان الذي يخرج من الانسان هو الذي ينجس الانسان . لأنها من الداخل من قلوب الناس تنبعث الافكار الرديئة : الزنى الفجور القتل السرقة الحرص الخبث الغش العهارة العين الشريرة التجديف الكبرياء الجهل » . مرقص ٧ — ٢٠ الى ٢٢ .
— « وما ابرىء نفسي ان النفس لأمارة بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم.» يوسف ٥٣ .

والشعور الباطن(١) تربة خصبة له . وهو على كل ليس حكراً على فئة او بلد او جنس بشري . وعظماء الرجال ، كما قلنا ، قد يقفون عنده ويسنون المبادىء ويستندون اليه ويقيمون الشعائر ويقررون ويجتهدون من منظاره الخاص . والناس ، من بعد ، يتأثرون بالموقف ويعتنقون المبادىء وان لم تجنح طبيعتهم ، تماماً ، الى التشاؤم والسواد . فكلفين ، احد كبيري الاصلاحيين (٢) الى جانب لوتر في القرن السادس عشر ، خال الدنيا سواداً فتشاءم ونظر الى الانسان عيوباً وجرّده من كل حسنة واوهن ، انطلاقاً من تحليله ، عنده امكانية التقرير واخرج ، بالتالي ، خلاصه من يده وآمن بالاختيار المسبق (٣) للسعادة والهلاك (٤) . ولو تمعنا لأدركنا ان الجمال رهن الارادة وان كان السواد من صلبنا في الصميم . وثمة تعبير يقول « كن جميلاً تر الوجود جميلا » . وشيوع التعبير لا يفيد ، بالضرورة ، النزول عند ما تعنيه . وكثيراً ما يغالب التشاؤم ويسود . والتشاؤم يفضي الى نتائج خطرة ، فالمجتمع الذي نشأت فيه دعوة كلفين بنى المقتضى على السعادة المسبقة والهلاك المسبق فاسترسل في العبث والفساد وعليهما اقبل بعد ان أيقن ، بتأثير كلفين ، ان السعادة والشقاء خارجان عن ارادته ، مقدران عليه .

على المحاسن تطغى ، احياناً ، العاهات والعيوب . والدليل على أهمية المعايب في واقعنا البشري قائم في العواطف الابدية وفي نسب الاقبال على الخير والشر وكلاهما يعود الى عواطف الانسان . فالانسان يقلب الحقائق

(١) Subconscient.
(٢) Réformateurs.
(٣) Prédestination.
(٤) CALVIN: *Institution Chrétienne,* Fin de Chapitre sur l'Homme.

LAU Byblos Library

ويعتمد التمويه ويعمل شيئاً ويصرح بشيء ويرتب وزراً ويمحو وزراً، والناس راضون . والنفاق يلقى استحساناً ولا يلقاه الصدق ، والصدق يكرم والنفاق فساد. والنفس اليه أميل . وان دعوت الناس الى عمل خير فقد يتململون ويتعسّرون . ولو دغدغت عندهم عواطف السوء لأقبلوا عليك واحبوك ، فالأدب الرفيع ، مثلاً ، يعزفون عن قراءته ، وصفحات الجنس والاثارة يتهافت عليها الناس .

العواطف الابدية

الظاهرات تقود الى التأمل . والتأمل في أمر ما نبغي يلزم — وان لماماً — بالاشارة الى العواطف الابدية وبذكر الغرائز ، وجميعها يطل على طبيعة الانسان وهي من تكوينه . فالانسان ليس دمية بل مخلوق عاقل ، والمخلوق العاقل يملك الارادة وتمايله الاهواء وتعبث به الغرائز . وهو ، منذ الأزل ، عرف الحب والخجل والبغضاء والحسد والغيظ والحقد والضغينة والرأفة ونكران الجميل وروح التضحية والصلف والانفة والوداعة والكبرياء ، عواطف بشرية من خير وشر بعضها يناقض بعضه ، فالانسان اسير المتناقضات ومليء بها . وعلى حد ما يقول مفكر معاصر ، فرديناند كونرد ماير ، « انني انسان بكل ما في الانسان من متناقضات . » (١)

العواطف الابدية والغرائز ابرزها سوء تفسير الدين على شكل مثير. فمن الديانات ما تفاعل ، فحسب ، في مجال روحي ، والمجال الروحي يطلع علينا بوجه كريم . وما تناول من الديانات آخرتنا ودنيانا لا بد من ان يطل

(١) FERDINAND CONRAD MEYER: «Je suis un homme avec toutes ses contradictions».

على الغرائز والاهواء ويتوقف ، بصورة غير مباشرة ، عندها جملة وتفصيلاً . والعواطف البشرية ان وجب تصنيفها مال معظمها الى السوء. وما لا تقترن بالفعل فلا حرج منها . والحرج ان تنتقل الى التنفيذ وكثيراً ما تفعل ، فالنفس ، حقاً ، امارة بالسوء . والمحبة وروح التضحية والانفة والخجل والرأفة تقابلها الكراهية والكبرياء ويقابلها ، ايضاً ، نكران الجميل واللؤم وحب الذات والصلف والبغضاء والغيظ والحقد والحسد . « وقديماً كان في الناس الحسد » ، على حد ما يقولون ، تدليلاً على ان الحسد غريزة او عاطفة ابدية من عواطف الانسان .

ما نسوقه من العواطف الابدية ليس العواطف الابدية كلها . وقد يفوتنا بعضها . والتبسط والتدقيق يسوغان فيها . ولكن التبسط والتدقيق ليسا ، الآن ، غايتنا المثلى . والذكر لهدف معين هو التأكيد على التلاحم بين الجنوح الى السوء وقذارة المأساة .

بالعواطف الابدية ترتبط الاهواء . وذكرها للذكر ، ايضاً ، ولا تبسط فيه . والاهواء يصعب فيها التفسير ، فالأقدمون عادوا بها الى مصدر الهي ، وهي ظلت وقد تظل سراً . وعلم النفس ولج بابها . والمتنبي يقول في هجاء ابن كيغلغ ان « لهوى النفوس سريرة لا تعلم . » فالهوى غريزة تعصف في بعضهم على شكلٍ فريد . والى الغرائز ينتمي ، احياناً، المؤثر . وهو ، من جهة اخرى، يرجع الى عامل خارجي يتمثل غالباً ، بالبيئة والمناخ والمعتقد الباطل (١) والتقاليد والعادات .

العواطف البشرية والنكبات

العواطف الابدية والمؤثرات على الارادة ذات يد في المآسي والنكبات في

(١) Superstition.

فلسطين وفي لبنان. قيدها في مجريات الاحداث بارزة ثابتة، واساس النزاعات لا يخلو منها . فحب الذات ، مثلاً ، رمى بعقدة الاثم من كتف الى كتف ، والغرب أساء معاملة اليهـــود حقبات واجيالاً وحملهم وزر صلب المسيح . وهو قضى ، عندهم ، على معاني الكرامة او كاد وذبح منهم الجمع الغفير ، على عهد هتلر وفي عهود قياصرة الروس في القرون الوسطى وبعدهـــا ، بدءاً بستراسبورغ في مقاطعة الالزاس ، باسبانيا وبولندا ، وانتهاء في غرف التعذيب . والكنيسة الكاثوليكية نفسها ، حتى الماضي القريب ، كانت تصم اليهـــود « بالخيانة والغدر » (١) . والتعبير حذفه ، امس ، المجمع المسكوني ، في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين ، من صلاة القداس. وفي اسباب الاضطهاد لا نود الدخول وقد فعلنا من قبل (٢) .

كان لا بد من ردة . والردة بدت تودداً لليهود على كل صعيد . وهي اقفلت « المسألة اليهودية » وفتحت « المسألة الفلسطينية » . فالغرب ، انطلاقاً من حب الذات ومن مصالح قائمة ، لم يشأ الافلات من عقدة الاثم على حسابه الخاص بل آثر التحرر منها على حساب الوطن السليب فبررت الهزات وتفاعلت الانتفاضات وتشرد شعب واختل الميزان ، في نظر بعضهم ، في لبنـــان البلد الآمن . ولم نرَ ان نكبـــة فلسطين ومأساة لبنان اقضّتا المضاجع . والمضطهدون لم يبالوا بتشريد اصحاب البلاد الشرعيين ، مهتدين بمصالح الغرب الاستعمارية ومحتمين وراء خرافة اخذها بعضهم عن العهد القديم في نصها الحرفي ورسّبها في الاعماق وكأنها كلام الهي أبدي وتناسى ان « العهود للشعب المختار »

(١) Iudeis Perfides.

(٢) فلسطين والخطر الصهيوني ، ص ١٢ الى ٣٣ .

تحققت بمجيء المسيح وان الموجة الصهيونية التي تحتل ، حالياً ، ارض فلسطين ليست ، في غالبيتها ، من سلالة العبرانيين بل من سلالة الخزر المغول المتتركين الذين اعتنقوا اليهودية في القرن الثامن بعـــد المسيح ، حفاظاً على استقلالهم السياسي بعد ان تجاذب مملكتهم الواقعة بين البحر الاسود وبحر قزوين ، المسيحية والاسلام (١) . وهم ارادوا ان يؤمنوا بالله ويتحرروا من الآلهة فاعتنقوا اليهودية واستقلوا، معاً، عن المسيحية والاسلام . وفي واقعهم وفي انتفاء الرباط العرقي بينهم وبين اليهـــود الاصليين وفي العهـــد بين « يهـــوه » وابراهيم تبسط البحاثة اليهودي المعروف ارثر كوستلر ، على غير ايجاز ، وخلص الى ان غزاة الصهيونيين ، من اوروبا الشرقية ، لا يشدهم الى العرق السامي او الى فلسطين رباط بعيداً عن رباط الدين (٢) .

السوء والرواسب

السوء ، وهو من صلب الانسان ، اساس في مأساة لبنان وفي كل مأساة . ولولاه لما قادنا التصرف الى حيث نسير . والتفصيل في قذارة المأساة اللبنانية ونكبة فلسطين مشرع الابواب . فهذي مذبحة دير ياسين وفيها بقرت بطون العجّز والامهات ، وهي ، بفعل ما اثارته من هلع ورعب ، اسهمت في تشريد شعب فلسطين . وذلك السحل دلت عليه حرب لبنان باصبع كبير . وذيّاك الخطف على الهوية يعقبه قتـــل الابرياء . وتلك الهجمات على المدنيين . وهاتيك الاعتداءات على كل

(١) ANTAL BARTAL: *The Magyar Society in the Eight and Ninth Centuries*, Budapest, 1908, pp. 57sq.

(٢) ARTHUR KOESTLER: *The Thirteenth Tribe, Hutchinson of London,* 1976, pp. 13sq. 59sq. 181sq, 223sq.

حرمة ترافق قصف التجمعات السكنية وتفضي الى دك المنازل وحصار الناس باسم المبادىء ، احياناً ، واحياناً تحت ستار الدين . والاسهاب لا يخون من يبغيه ، فالاحداث افرزت تفاصيل في غاية الدقة ودلت ـ ان كانت حاجة الى دليل ـ على ان الانسان جنوح الى شريعة الغاب . وما نحن عليه لا تبدل منه القشور ، فالمدنية محبة وسلام لا بندقية ومدفع . والبندقية والمدفع تجيزهما الشرائع والاخلاق في معرض الدفاع عن النفس وعند الضرورة القصوى . ولا نرى ان الضرورة والاخلاق والشرائع تبرر هول ما حدث . وفي ما نقول نبعد عن هوى النفس ، والهوى نتناوله بالنقد ولا نخصه بثناء .

السوء ينمي الرواسب ويطلق عنان الاحلام ويفسح في مجال الشهوة. ودلالة السوء ان الرواسب تعلق في تفكيرنا وفي شعورنا الباطن ، والامر لا يخرج عن ناموس الطبيعة وسنتها . فالذاكرة هي الذاكرة ، والدم يستصرخ الدم ، والاحداث تعيد على نفسها الكرة وان خلعت رداء ولبست رداء . والناس عانى بعضهم وقاسى . والضعف البشري او السوء اطل عنده على مآسٍ وصعاب في الحرية ونواحي الحياة وفي المعتقد الديني فكانت الرواسب وكان الخوف . وعلى الردة صبر آماداً وامل الحسن وخال الحسن في متناول اليد وذكى عزيمته حساب اسود تدفع اليه مطالب وتيارات فخلص الى ان الماضي سوف يعود وانه غارق في بحر يفرض عليه الارادة ويسلبه الامل ويدفع عنه الحرية ويوقعه تحت المذلة والقهر . والضعف تبدى ، ايضاً ، انتقالاً للاثرة من فريق الى فريق او حفاظاً على وضع قديم ارسى دعامته بشير الشهابي الكبير سنة ١٨٢٥ عندما هزم بشير جنبلاط في سهول السمقانية وثبت رغم المحن من بعد ـ وبالمحن نلمح الى الفتن التي توالت على الجبل اللبناني

في سنوات ١٨٤١ و١٨٤٥ و١٨٦٠ ـ وتوطد اثر اعلان لبنان الكبير وصمد ، الى اليوم ، في وجه الاحتجاج والنقد من علني وخفي ووصفه بعضهم في الغرب بامتيازات عفا عنها الزمن (١) . والغرب ، في الامس ، قال انّ بعضنا يلد والتّشكي يملأ فمه ، انّه يصرخ امام الغريب ويئن من وضعه ولو كان وضعه الكمال عينه (٢) . واذا كنا نرفض ما قيل ونعتبر انّ ما قيل لا يعبّر عن واقع راهن فلا بد لنا من ان ندرك انّ الاعتماد على النفس ، في اطار سليم ، خير من ارتجاء الترياق من كلّ وافد او غريب .

سوء الظن

السوء قاد الى اساءة الظن بين اللبنانيين ، واساءة الظن تصور وخيال وكلاهما لا يرتكز الى اساس سليم بل يصدر عن الوهم ويتفاعل في النفس ويباعد بين الناس . فكل فئة ضنت بثقتها على الفئة الاخرى . وثمة فئة خالت ان سواها يخطط لزوالها ويعبث بها في بلد والته على مر السنين . وثمة من تصور ان ابناء الجبل اللبناني يدفعون عنه التقدم ويستأثرون بالرفاهية ويحرمونه من حق جلي ويتنكرون لمحيطهم العربي ، فانتفى الاخلاص وانقسم المواطنون وبعضهم انتظر « الترياق من العراق » وتفاعل في اطار خارجي واهمل تربته المعطاء ووالى الغريب ونسي أخاه في وطنه . وعن المواقف انبثقت المتناقضات تشحذها المعتقدات في

---

(١) *Privilèges archaïques,* Le Monde, 7 Octobre, 1978.

(٢) *Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à l'Histoire du Liban et du Proche-Orient, du XVIIe Siècle jusqu'à nos jours,* Publiés par ADEL ISMAIL, Edition des Oeuvres Politiques et Historiques, Beyrouth, 1975, Vol. 1, pp. 49sq.

تفسيرها الحرفي فعاش لبنان على هامش ما يجب واغفل مفهومه الخاص وانسَ الى كل مفهوم . ولبنان ، اصلاً ، مجموعات من الاهلين لا تنضوي تحت لواء واحد . ولئن فعلت استعذبت لواء المادة . والمادة وان ارتدت مـــن الاهمية ما لا خلاف فيه لا تبني وطناً او تعنى بالخلقيات (١) بل تنازع على الاسلاب وتغفل الجوهر وتمضي في اتجاه ضيق وتضني القيم الى حد قصي .

سوء الظن جر علينا الويلات وعبث بسلامة التفكير . ولو سلم التفكير لبعدت النظرة . وبعـــد النظرة يدير الانسان في فلكه ويوزنه الامور بمكيال صحيح فلا ينفرد بموقف في الساعات الحوالك او يخال ان الناس شهود ، فحسب ، على الاحداث ومعاني الاحداث . فأما الواقع واما الشطط ، والشطط من طبيعة الانسان يقود اليه الضعف ويمليه الهوى ، وهو عشا والعشا بغيض . والانسان ان كرم احجم عن فعل واقدم على فعل ، فلا شيء افضل من الاقدام في موضع الاقدام ومن الاحجام في موضع الاحجام . وما بغيناه وسيلته الحكمة . وما نهمل امره على اماد قد لا يتعذر في حينه . ولو ساد عندنا مفهوم الوطن لما هجرنا الوطن وبعنا ارضه . ونحن ، على كل ، لسنا من طين فريد . والناس في كل بلد يشقون ويعملون ويقنعون. ورغد العيش مظهر لاجوهر . والربح السريع يبغيه الانسان ان كرم الربح . امـــا نحن فنسعى اليه ولو فسد الطريق ونمضي وراءه خارجاً ونخلي مكاننا في لبنان . فلو تلفتّ الى عامل لبناني لما وجدته . واللبناني يخال ان النظرة تسوء ان عمل في بلده بيده ، فهو يعشق المظاهر ويقدم في البيئات الغريبة على كل عمل ولسانه يقول « ما لا تراه عين القريب لا غضاضة فيه . »

---

(١) Morale.

السوء والقذارة

السوء جعل بعض اللبنانيين يفرح ، في حرب لبنان ، لنكبة المنكوبين. فالخوف والحقد اقعسا لبنانيين كثراً عن واجبهم الانساني . فأنى يكن الانسان فالانسان انسان . والتنكيل بالاعزل يأباه الضمير ، وضميرنا رضي بكل عثرة . ورجال الدين لم يفتحوا فاهاً امام القذارة ولو شاؤوا لخانتهم الاستطاعة . وهم ان اغفلوا الواجب اغفلوه مكرهين . فالمعذرة حقت لكل كريم . ومثال القديس امبروزيوس في القرون الوسطى — وقد وقف غير مبال في وجه البرابرة واسلم اهالي ميلانو من الموت — ومثال الامام الاوزاعي صاحب الوقفة الكريمة دفاعاً عن « أهل الذمة » في وجه صالح بن علي الهاشمي ، « أمير الشام ومصر من قبل الخليفة المنصور » ، ليسا ، في رأينا ، المثالين الفريدين .

السوء قضى علينا بالصمت فاستعذبنا تقطيع الاوصال والذبح مـــن الوريد الى الوريد ورضينا بدوس الحرمات ومضينا الى كل لج عميق ولم نصرخ لعائلة تنقرض وحيّ يذوب واطفال يحصدهم القصف ونسوة يصطادهن القنص . وثمة منطقة في بيروت الذبيح تناست حرمة الجوار ففرحت لأتراح مجموعة سكنية يفصلها عنها ممر . وثمة منطقة فيهـــا عادت ، من بعد ، فاشتفت بمحو المنطقة الاخرى . وما يثير الالم ان القضاء على اعداد وافرة من الرجال والنساء والاطفال لم يختلج امامه الضمير . والضمير ، فحسب « اختلج » لقتل ابرياء معينين كأن الضمير يفرق بين القذارات ويعرف الهوية والدين .

السوء ساد الواقع وابرز نكران الجميل ونكران الجميل سنّة. وسنّة صدور الشر عمن دفعت اليه بالخير. فالانسان يؤثر نفسه على كل نفس ويخلي ذاته

LAU Byblos Library

من حسنة العطاء ويميل الى المنفعة الشخصية المطلقة ولا يرى في الدنيا الا حاله . وشواذ القاعدة يوافر نقيضها . والشواذ شواذ .

الانسان مفطور على نكران الجميل . ولعل نكران الجميل يولّد في القلب ، في الشعور الباطن خاصة ، ضرورة الاقلاع عن مساعدة الغير . فلمَ نسدي الخدمة ما دام الانسان يتناسى الحسنة ويدفع الحسنة بالشر ؟ والحديث القائل « اتق شر من احسنت اليه » حكمة تتفاعل في الضمير وتنطلق من صميم الخبرة .

المرء يستشعر من نفسه ميلاً الى التحرر ويخال ان الجميل يُغلّ . وهو ، ايضاً ، لا يطيب لمكرمة او فضيلة تغالب في نفسه المكرمة او الفضيلة فينتقل من ضرورة الاحسان الى حتمية النكران . وقلة من البشر ترعى العهود وتذكر الحسنة وتحفظ المعروف .

لو حفظنا المعروف وذكرنا الحسنة ورعينا العهد لتلفتنا الى كل حدب وصوب وأدينا العطاء لاصحاب العطاء . وعن العطاء اشحنا النظرة فآثرنا الراحة على الجهد وتركنا الجرحى على حافة الطريق واغفلنا حرمة القتيل وحق الاسير وانين الطفل وبكاء الرضيع ونحيب الثكلى وروينا غليلنا من البريء وفخرنا بما لا فخر فيه . ومن مد لنا ، في الامس ، يداً دفعنا عنه اليد . ومن ادخل الى قلبنا الحب اغمدنا في صدره الخنجر . ومن صان عرضنا هتكنا ستره . ومن الصدر نزعنا مخافة الله. والله واليناه خداعاً ولم نوالِه فعلاً . واحكام الله ونواهي الله حدّثنا عنها مجرد حديث . وبعضنا استثمر الدين وجهل مفهوم الله .

الداء والدواء

لو شئنا التفسير لعمدنا ، اولاً ، الى طبيعة الانسان ولحملنا ضعفنا

البشري وزراً لا يقابله وزر . ولولا السوء لحرنا في الجواب . فهذا ما نحن ، وادراك الواقع يفسح في وصف العلاج ، والعلاج يتناول حالات ولا يبدل من طبيعة الانسان الا اذا انطلق من التسامح والمحبة وانطلق من الارادة وكانت الارادة على مستوى رفيع . والارادة وان كانت في متناول الجميع تعرفها قلة . ومن يدركها يبقَ على سباق مع نفسه ، فالنفس امارة بالسوء ولو لاشينا سلاح الدمار وكل سلاح لقاتل الناس بعضهم بالايدي ، فلا فراق بين الطبيعة والسوء ولا سبيل ، ايضاً ، الى دفع الجمال .

الارادة ، منفردة ، تبحث في نطاق الفرد . والمجازر والسوء الجماعي واهواء الفئات ونزوات الناس ليست في متناول الفرد . وفي الامور العامة الحلول العامة هي خير الحلول . ولعل الحلول في رسوخ المفهوم الوطني السليم في قلوب الجميع . ولعلها ، ايضاً ، في زوال الحدود وتلاشي القوميات وانتفاء السوء في تفسير الدين ، وبها نادى مفكرون كثر دفعاً لعلل مستعصية الحل . ولكن محو الحدود وزوال القومية يصلحان من منظار معين . والسوء يبقى قائماً ، والعواطف الابدية لا تودي بها ضرورات السياسة ، فالطبيعة فطرة والعواطف من كيان الانسان . وما هو في وسعنا لا يبدل في السنن والنواميس . وما يجدي هو مغالبة العاطفة بالعاطفة ، ودفع الشر بالخير . فالكراهية والحقد وحب الذات ، على سبيل المثال ، تجد سدّاً في التسامح والمحبة . والتسامح والمحبة يستوجبان الجهد وارادة قادرة على دفع الردة امام الحقد والكراهية وحب الذات ، وجميعها يلقى في طبيعتنا تربة خصبة. وما لا يرسخ التسامح والمحبة بجهد متواصل وعمل شاقّ تبقى الغلبة عليهما للحقد والكراهية وحب الذات .

LAU Byblos Library

حب الذات لا يدفع بحب الذات . ولـو حدّ الناس من الفوارق وهرعوا الى مساعدة المعوز واخذوا بناصر الملهوف لحقت لهم المساعدة. ولكنهم ، في سواد المأساة ، أبقوا عـلى واقعهم المألوف يربحـون ويستثمرون ، فالنكبة وسيلة ثراء لا باعث رحمة . وما بخس ثمنه ولحّت فيه الحاجة بيع بأضعاف . وثمة أمكنة رجا فيها الاهلون ان يطول الحرب عليهم يزدادون ارباحاً على ارباح . وفي ما فعلـوا حادوا عن مثاليـة الانجيل واثبتوا ان الدين – منفرداً – لا يبدل من واقع السوء في طبيعة الانسان .

مثالية الانجيل تقول « من يطلب يعطَ ومن يسع يجد ومن يقرع باباً يفتح له الباب . » (١) وكثر طلبوا فردّوا وسعوا فخابوا وقرعوا ولم يلقوا عوناً كأن الضمير تحجّر والسوء فضيلة وكأن الانسان في وادٍ والتعاليم في واد . فان دعا الدين الى التخلي عن « متاع الغرور » وثروات الحياة » (٢) بغى الانسان الثروة وطاب لمتاع الغرور ، وان اكرم الدين البؤساء والمساكين والجياع والابرار والمضطهدين ودعـاة الخير والرحمة (٣) تنكر لهم الناس وأبقوهم على هامش الحياة ، وان رذل الدين الخداع وحب المظاهر اثروا الخداع وحب المظاهر على الجوهر وسلامة الحال ، فقلّ ان يدخل الناس مخدعاً ويصلون ويغلقون وراءهم الباب (٤) . وهم ، في حالات ، يجعلون من بيوت الله امكنة سلام وكلام ، واحياناً ، صالات لعرض الأزياء .

---

(١) لوقا ٢٢ – ١٠
(٢) متى ٦ – ١٩
– آل عمران ١٨٥
(٣) متى ٥ – ٣ الى ١١
(٤) متى ٦ – ٦

الطبيعة البشرية تغالب وتغلب . والطبيعة ضعف ، والضعف نتائجه وبال .

*

من الصحيح ، تماماً ، ان انفساً تعمر بالتسامح والمحبة وان انفساً تجنح الى الكراهية والحقد . ومن الصحيح ، ايضاً ، ان كل نفس تعمر بالعواطف الابدية مجتمعة . ولكن التربة الصالحة تحتاج الى التجاوب ، والتجاوب لو هجرها لسادت الحيرة . وأملنـا أن تصدر الدعوة الى التسامح والمحبة عن كل فم وان ترسخ في كل قلب وان تلهج بهـا الالسنة لا بأحاديث الضغينة فندرك ان السوء يفعل السوء وان الخير يعمل الخير . ولئن اغفلنا الخير وحدثنا عن السوء اخطأنا صنعاً فالخير واقع ومثال والسوء واقع وليس مثالاً . وواقع السوء نلحظه كل يوم وفي كل خطوة . والخير امنية ولكنه منا وفي طبيعتنا ، فالمحبة والرأفة والانفة تعمر بها النفس ، وجميعها في صراع مع السوء . والغلبة للخير ان اردنا الخير .

العروبة والاسلام

أوضاع لبنان ، في ذاتها ، بالغة التعقيد . والحكمة فيه لا بد منها ، فالبلد تكثر فيه الطوائف والانتماءات . والتفكير ، اساساً ، ليس واحداً فيه ، فلبنان ملتقى التيارات والاهواء . وما عساه يصبح ان زدنا بأنفسنا التعقيد تعقيداً ورضينا انخراطاً في الصراعات واصغينا الى عواطف السوء واوقدنا ، في ما بيننا ، الفتن ؟ والخلاف لا مجال له ان أبقى اللبناني على « لبنانيته » وشدد على انتمائه العربي ، فلبنان جغرافياً وتاريخياً ومصيرياً

LAU Byblos Library

ولغوياً مرتبط بالعرب ، وصلة الدم تشد اليهم فريق ، والواقع لا مفر منه ، والفرار يفسد . ولبعض العرب ان يعود الى تسامح الاولين .

اذا كانت العروبة تعني الاسلام فنحن لسنا عرباً . والعروبة ان عنت المفهوم القومي ووحدة المصير فلنا ان نعلن عن انتمائنا العربي . ولنا ، ايضاً ، ان نغالب القشور ونتفوق وان ندفع الاهواء ونتفاعل في مجالنا الطبيعي ونتحرر من اعتقاد يخال اننا والدنيا على تعادل مطلق . وللنفس ان تقلع عن الترجح بين النقيضين فلا تجمع بين صداقة العرب ومعاداة العرب . والصهيونيون لو ساغ لهم ان يعاملوا العرب لما تردّدوا . فهم ينطلقون من مصلحة النفس ، وحب الذات هو حب الذات ، والايام اقامت على حب الذات الف دليل ودليل .

التعقيد في اوضاع لبنان يعبر من آفاق السوء الى آفاق الايمان . واذا كانت الطبيعة البشرية اسهمت في المأساة وبدت في قذارتها سبباً لا ريب فيه — فتشعب المعتقدات قاد ، ايضاً ، اليها . وسوء التأثير يعود الى سوء التفسير . والنقاش لا بد منه في معرض التحليل . والقذارة سوء وتخطيط خارجي تدليلاً على انتفاء العيش المشترك بين اللبنانيين .

LAU-Byblos Library

الايمـــان والمأساة

الايمان والدين

الايمان أعم من الدين واوسع (١) . والدين من الايمان ونحن نؤثر تعبيراً على تعبير ، فمعظمنا مؤمن بالله وان اختلفت اليه النظرة . ولا بد ، في الواقع اللبناني ، من التوقف عند ايمان اللبنانيين فلبنان ، في جناحيه المسيحي والمسلم ، ينقسم الى ست عشرة طائفة ، واليهود فيه موجودون، والعلل ، في الاصل ، تعود الى تباين الدين .

الحرب قامت بين الانسان والانسان ولم تقم بين الدين والدين، وان تكن الحرب مضت من شعارات أحدها شعار الدين . فالدين، انى يكن تأثيره،لا يودي بطبيعة ويوجد طبيعة . ولو ان الواقع واقع مخالف لفعلت الآية القائلة « من ضربك على خدك الايمن ادر له خدك الايسر » فعلها ولخفضنا ، ايضاً ، للوالدين « جناح الذل » انى يكن الوالدان وامرنا بالمعروف ودفعنا المنكر من امام الوجه . ولكن الدين مثال والطبيعة قد تدرك المثال وتعجز ، غالباً ، عنه .

---

(١) «قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخـل الايمان في قلوبكم . » الحجرات ١٤

في رأينا ان الدين لا يرتدي رداء الحقيقة المطلقة الا بالنسبة لمن آمن به . ومن آمن بدين آخر لا حرج عليه . والمؤمن بدين معين يخال الحقيقة المطلقة من نصيبه . ومن التأكيد ، احياناً ، في الحقيقة على الاطلاق من دين الى دين نشأت العلة ، فكل فريق « يحتكر » الحقيقة ويجزم في ميدان لا جزم فيه . والجزم ان قام في مجال الاثبات العلمي فهو لا يقوم في ميدان الدين ، فالدين اعتقاد والاعتقاد نقيض الاثبات .

آفاق الدين

الدين يتفاعل ، اولاً ، في مجال روحي . والمسيحية تكاد تنحصر فيه . وهي نشأت في البيئة السورية المتحضرة فلم تحتج الى تشريع . ومملكة المسيح « ليست من هذا العالم . » (١) والبلاد السورية من العراق الى الشام عرفت المشرعين قبل المسيح ، والرومان نقلوا اليها تشريعهم ، وتشريع الرومان رافق احتلالهم ، قبل الميلاد ، بلاد المشرق من سوريا ولبنان وفلسطين . ولئن احل المسيح شؤون الدنيا من تعاليمه مقاماً فقد فعل ليكمل الشريعة ويكمل الانبياء (٢) وينفصل ، من بعد ، بين عهد التوراة « وعهده الجديد » . فما صلح في اسفار التوراة لأوائل العبرانيين صح لقساوة العبرانيين ولم يكن من رسالة المسيح ، فالعبرانيون مثلاً ، اقروا تعدد الزوجات ورجم الزانية ، والمسيح جعل من لقاء الرجل بالمرأة لقاء شبيهاً باللقاء بين كنيسته وبينه . وهو رفض الرجم واطل على الرحمة . « فمن كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بأول حجر » (٣) ، قال مشيراً الى المجدلية ومدركاً ان الخطيئة ليست من فعل انسان واحد

(١) يوحنا ١٨ – ٣٦
(٢) متى ٥ – ١٧ و١٨
(٣) يوحنا ٧ – ٥٣

وان فيها يقع العديدون . فعلامَ الرجم ما دام الجسد « مبيعاً تحت الخطيئة » (١) وما دامت قساوة التأديب ان أرهبت ليست من العلاج طريقه الأمثل ؟ والطريق الامثل نصح وشفقة ورحمة ، والشفقة والرحمة لم يعرفهما معجم العبرانيين .

بيد ان العبرانيين اتوا ، في شخص موسى ، « كليم الله » ، بالوصايا العشر . والوصايا العشر دعوة شريفة الى مثال روحي وزمني . وهي منهج لو اتبعناه لبان صدقه . ومن يبغ الكمال يلج بابها ، والباب نتوق اليه ، وقلة تفتحه على مصراعيه. فالعبادة الصحيحة غاية مثلى وتكريم الوالدين من أقدس الواجبات وتحريم الزنى والقتل من ضرورات المجتمع . وكل وصية ، في ذاتها، عظة .

الجاهليون والمسيحية السليمة

القرآن ، من بعد ، اكرم الوصايا العشر فنادى خيراً بالوالدين (٢) ودفع الزنى (٣) وحرم القتل بغير حق (٤) واطل على حكم خالدة ونظم اسباب الحياة ، والحياة ، اصلاً ، في صحراء . والجاهليون يقربون من العبرانيين (٥) في القساوة والفوضى . وهم لم يعرفوا التشريع . وما عرفوه عادات وتقاليد اقرّ بعضها القرآن ورفض بعضها، فالجاهليون منهم من جمع ، مثلاً ، بين الاختين ومنهم من اختلف

(١) رومية ٧ – ١٤
(٢) البقرة ٢١٥
(٣) « والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة » . النور ٢ .
(٤) « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله الا بالحق » . الانعام ١٥٢ .
(٥) الاحبار ٢١ الى ٢٥ .

LAU-Byblos Library

على امرأة أبيه . ومن فعل ذلك سمّيَ الضيزن (١) . ومنهم من سكت ومنهم من رفض . والرفض امسى عادة ودخل في التقليد . والقرآن تبنى الرفض (٢) وحرم المنكر ودفع وأد البنات اي دفنهن عند الولادة حيّات (٣) — ووأد البنات درج عليه بعض الجاهليين (٤) — ووضع قواعد لحياة العائلة اتبعها ويتبعها المسلمون (٥) وخضع لها المسيحيون في لبنان حتى عهد قريب (٦) .

الا ان الاسلام لم يلق ، في البدء ، التجاوب المنشود ، فالعرب ، في غالبيتهم ، كانوا يؤلهون الحجارة ويعبدونها . وبعضهم اتبع النصرانية (٧) ، والنصرانية ليست من المسيحية وجهها الصحيح بل

---

(١) الشهرستاني ، تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، القاهرة ، الجزء الثالث ص ٩٠.
— التوراة من قبل ، حرمت مضاجعة زوجة الاب ومضاجعة العمات والخالات .
التثنية ٢٧ — ٢٠ ، الاحبار ٢٠ — ٢٠ .

(٢) « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء ... حرمت عليكم عماتكم وخالاتكم.» النساء ٢٢ و٢٣ .

(٣) واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون ام يدسه في التراب الا ساء ما يحكمون. » النحل ٥٨و٥٩

(٤) بنو تميم ، خاصة ، اشتهروا بوأد البنات لما اشتد الجدب في بعض السنين وفشا فيهم الجوع فقام صعصعة ، جد الفرزدق ، يفتدي هذه الموؤودات حتى جاء الاسلام وقد اشترى « ثلاثين موؤودة ». وبالمأثرة فاخر الفرزدق وغالى . ومن قوله فيها :
وجدي الذي منع الوائدات وأحيى الوئيد فلم يوأد!

(٥) النساء ١ إلى ٢٥ .

(٦) القانون الصادر في ١٩٥٩/٦/٢٣ اوجد «لغير المحمديين» احكاماً خاصة في الوصية والميراث .

(٧) النصرانيه لفظاً تعود الى كلمة « الناصرة » المدينة التي سكنها المسيح « ليتم المقول بالأنبياء انه يدعى ناصرياً . » وتفيد ، اشتقاقاً ، من انتسب الى المسيح من اليهود وان خانتهم في الدعوة المسيحية سلامة المفهوم فكانوا يهوداً ومسيحيين. والى الذين آمنوا ⇐

طائفة مبدعة من طوائفها قالت ان المسيح مخلوق غير مولود (١) . وبعضهم تأثر بالمانوية ، احدى ديانات الفرس الاقدمين القائلة بتوافر الالهين ، اله الظلمة والنور او اله الشر والخير . والعرب عرفوا البدع المحرمة في مجمعي نيقيا (٣٢٥) وخلقيدونيا (٤٥١) . ومجمع نيقيا رذل بدعة اريوس الزاعمة ان المسيح مخلوق قبل كل الدهور وانه بعمله الصالح سما الى الالوهية. ومجمع خلقيدونيا دفع بدعة اوتاخي المدعية ان في المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الالهية .

مجمع خلقيدونيا ، خاصة ، رسم اطار المسيحية السليمة وأقرّ وجود الطبيعتين ، الالهية والبشرية ، في شخص المسيح. والقرآن لا يذكر كلمتي « المسيحية والمسيحيون » بل توجه ، فحسب الى المسيحية السليمة في سورة الروم وبشرها « بنصر الله » (٢) . وهو خاطب اهل البدع التي غزت شبه الجزيرة العربية فالمح الى بدعة الطبيعةالواحدة الالهية في المسيح (٣)

بالمسيح من بني اسرائيل يشير القرآن قائلا « فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة فايدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا طاهرين . » الصف ١٤

أما كلمة «مسيحيون» فهي احدث تاريخاً . « والتلاميذ دعوا مسيحيين بانطاكية أولا . » اعمال الرسل ١١ — ٢٦

(١) البدعة النصرانية قالت أيضاً ، ان المسيح لم يصلب بل القى بشبهه على سمعان فصلب سمعان عوضاً عنه . والمعتقد من « مبدأ الشبهة » Docétisme ، والمبدأ يعود الى كلمة « دوكيا » ومعناها ، في اليونانية ، خال ، تصور ، شبه له . والمسيحية عرفته بين القرنين الاول والسادس الميلاديين ، ايماناً نصرانياً توافق ، تماماً ، مع نص الآية ١٥٧ من سورة النساء ، (Vocabulaire de Théologic Catholique) وفيها جاء : « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه يقيناً ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزاً حكيماً . »

(٢) الروم ٥ .

(٣) « لقد كفر الذين قالوا ان الله هو المسيح بن مريم » المائدة ١٧ و٧٢

LAU-Byblos Library

المعروفة بالمونوفيزية وذل المانوية(١) والمسلمون ، من بعد، لم يفرقوا بين النصارى والمسيحيين (٢) .

المانوية لا أثر لها في الاناجيل الاربعة . والمسيح لم ير في العذراء الهة الى جانبه . وبعض العرب دان بها — ما دام القرآن يخاطب في امرها — متأثراً ، بديانات الفرس الاقدمين ، فبلاد فارس تحازي شبه الجزيرة العربية ، والعلاقات بين الفرس والعرب في الجاهلية يذكرها التاريخ ، والتيارات الفكرية نقل بعضها الفرس الى الجاهليين .

القرآن كلام الله الذي لا يزول

خشي القرآن على الاسلام وهـــو فتي فاضطرّ الى صرامة التعبير وقاتل الشرك والمشركين وحرم على المشركين نكاح « المؤمنات » (٣) . ونكاح المؤمنات حُرِّم ، ايضاً ، في سورة الممتحنة على « الكافرين » مخافة ان ترتد « المؤمنات » عن الاسلام . والامر يشبه النص وما تنقله عائشة عن النبي (٤) . وبعض العرب ، تحت تأثير المانوية ، اشرك بالله « مريم بنت عمران » .

---

(١) « يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وامي الهين من دون الله». المائدة١١٦

(٢) التفريق بين النصرانية والمسيحية اعتمدناه في دراستنا « نظرات في الحتمية والجبرية والحرية » الجاهزة والمعدة للنشر قبل صدور كتابنا « من وحي تاريخ الموارنة » وفيــه آثرنا الشمول العابر انتفاء لضرورات التفريق .

(٣) « ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا » البقرة ٢٢١

(٤) « يا أيها الذين آمنوا اذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بايمانهن. فان علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن الى الكفار . لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن. » الممتحنة ١٠

— البخاري ، دار احياء التراث العربي ، الجزء السادس ، ص ١٨٦ و١٨٧ . "... اخبر عروة ان عائشة رضي الله عنها زوج النبي اخبرته ان رسول الله كان يمتحن مــن هاجر اليه من المؤمنات بهذه الآية . »

— البخاري ، الجزء الخامس ، ص ١٦٢ .

الكفر لا يعني المسيحيين . ولو عناهم لكان لنا ان نختلف فيه وان نسائل في من يحدد أمره ، وكل كتاب كريم عزيز على ذويه . ولا بد من التأكيد على افتراق اهل البدع في المسيحية عن المسيحية الرسمية . وتوجّه القرآن الى المسيحية السليمة في سورة الروم هــو ، في ذاته ، تفريق بين المسيحية السليمة والبدع المسيحية المنتشرة في بلاد العرب .

ما يهمنا ان القرآن ، في نظر المسلم — بمفهوم المسلم التاريخي اي المؤمن برسالة النبي العربي — هو كلام الله الذي لا يزول وان علة نتجت عن هذا المفهوم . فالقرآن ، يقــول المسلمون ، يرعى البشر الى يوم القيامة ، ويوم القيامة لا يرتد الى زمن مرئي ، فالحياة في رأي العلماء قد تقوم الى امد وقد لا تدرك نهاية الحد ، وظروف الحياة تتبدل ، وسنة التطور تفعل فعلها والسرمد لا بدء له ولا نهاية له .

آفاق الروح كريمة ولا حياد عنها. والايمان برسالة النبي العربي هو على المسلم ضرورة مثلى.وضرورة تمسّك المسلم بأركان الاسلام شهادة وصلاة وصوماً وزكاة وحجــاً — ان امكن الحجّ . وضرورة ان يعمل المسلم بأركان الايمان فيؤمن بالله ورسله ولقائه وبالبعث الآخر (١) . وضرورة ايضاً ، الامر بالمعروف والنهي عن المنكر وكل حالة تتعدّى البيئة والزمن .

*

في كل دين تقوم النزاعات حول مفهوم الدين . وبعضهم يخال ان الدين لسان . والدين قلب . وبعضهم يؤمن جازماً بأن الحقيقة حكر على دينه . ومن لا يؤمن بمعتقدك ويجاريك فيه تواجهه الصعاب كأن الله اسير

---

(١) البخاري ، الجزء السادس ، ص ١٤٤ . والبخاري ، خلافاً للشهرستاني ولسواه، لا يدخل القدر ضمن اركان الايمان .

LAU-Byblos Library

وكأن مفهوم الله يصلح من منظار ضعيف . والعاقل يأبى نقاشاً في معتقد سواه ، فالمعتقد هو المعتقد ، ومبدأ الألوهية سليم واحتكارها ذميم . والله لو ساغ حكره لما كان الله ، والله كمال ، وكمال الالوهية لا يحتاج الى سند بشري. وما يبغيه الله هــو ان ينطلق الانسان الى آفاق الروح ويجعل من كلمة الله سبيل لقاء لا سبيل فراق . ولكل انسان اذا شاء عبادة الله ان يعبد الله على طريقته . والمهم ان تنطلق العبادة من قلب طاهر . والعبادة وانتفاء العبادة امرهما يعود الى الانسان ، فالعبادة لا تفرض . ومن لا يؤمن هو حر طليق ، فما لا يقع تحت الحسّ وفي ادراك البشر لا نقاش فيه . وما قاله ابو العلاء خير الكلام (١) . وعلى ابي العلاء خيّم الشك فكان سلبياً . والسلبية لا تفعل فعلها في من آمن بالله . وما نشدد عليه هو ضرورة الاقلاع عن احتكار الحقيقة واحتكار الله .

ما نسوقه هو من مقتضيات التحليل . والتحليل يرى ان الانسان اراد احتكار الله ، فالمسيحيون رغم انتفاء النص اساؤوا معاملة اليهود انطلاقاً من الايمان القائل ان اليهود صلبــوا المسيح وان الحقيقة وقف عــلى المسيحية . و« أهل الكتاب » ، يهوداً ومسيحيين ، لم يؤمنــوا بمحمد فحرموا من حقوقهم السياسية (٢) وعاشوا ، احياناً ، على هامش الحياة « يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون » (٣) ، فالمسلمون خرج بعضهم على التسامح وجنح الى الصرامة ، فالوليد بن عبد الملك بن مروان ، مثلاً ، لم يعمل بوصية النبي فاغتصب في دمشق ما تبقى مــن كنيسة

(١) كل يؤيد دينه   يا ليت شعري ما الصحيح » ؟

(٢) H. LAMMENS: *La Syrie*, Imp. Cath. 1921, T. 1, pp. 112sq.

(٣) التوبة ٣٠

القديس يوحنا وحوّله الى الجامع الأموي الكبير . واغتصاب الكنائس حرّمه النبي في قوله الى المسلمين « ولا يدخلن حجر من بناء كنائسهم في بناء مساجدكم . » والحاكم بأمر الله هدم كنيسة القيامة ولم يمض على خطى عمر الخليفة الكبير الذي ابى الصلاة فيها مخافة ان يتخــذ المسلمون من صلاته عادة من بعده (١) . وخالد بن الوليد وابو عبيدة الجراح اذ فتحا دمشق بتواطؤ الاهلين ، على ما ينقل الواقدي (٢) ، قسيا على الاهلين وكتبا الى أهل الشام كتاباً ذكره ابن عساكر في تاريخــه الكبير (٣) . وما حرم عليهم واكرهوا فيه لا ينطلق من روح سمحة . وفي ما كتبنا لا نود تفصيلاً فالتفصيل في ذمة الماضي البعيد . ناهيك عن « سلبية » المواقف كأن السلبية اكراه على الاسلام و« لا اكراه في الدين» يقول القرآن (٤) ، ولا اكراه في الايمان ايضاً (٥) . والقرآن اكرم النصارى وهم مــن اهل البدع المسيحية ، على حد ما أشرنا اليــه ، واخرجهم ، احياناً ، من عداد المشركين (٦) .

الحصر قد لا تقضي به الامانة وان تكن ، في نظرنا ، الخيوط العامة

(١) J. YANOWSKI et J. DAVID: *Syrie Ancienne et Moderne*, Didot, Editeurs, Paris, 1861, p 76.

(٢) الواقدي ، فتوحات الشام ، طبعة مصر ص ٤ و١٩ و٣٩ و٥٣

(٣) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ، مطبعة روضة الشام ١٣٢٩ هـ . الجزء الأول ، ص ١٤٩ و١٥٠ و١٥١

(٤) البقرة ٢٥٦

(٥) « لو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعاً . أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين . » يونس ٩٩

(٦) المائدة ٨٥ : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهــود والذين أشركوا ولتجدن أشدهم مودة للذين آمنوا من قالوا انا نصارى ذلك بان منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون . »

LAU-Byblos Library

خير الخيوط . ولا بد من ذكر النتائج والآثار ، فمزيج الدم – وهو ضرورة – تعذر امره علی المواطنين . وهو ان قام ساغ من طرف واحد ، فالاسلام يبيح زواج المسلم من « الكتابية » ، ويحرم على « الكتابي » نكاح « المؤمنة » منطلقاً ، في حالات من صرامة التفسير ومن ان الكتابي لا يشمل بايمانه النبي . اما ايمان الكتابيين بالالوهية السليمة فهو اصيل ولا نقاش فيه . واما النبي فكريم . واما التشديد على نكاح « المؤمنة » فلتبديد المخاوف ولتوحيد الشعور .

النصوص والمخاوف

اسباب النزاع لا بل جذوره البعيدة تكمن ، اصلاً ، في تفسير النصوص ، ما اوردناه منها وما اغفلنا امره ، فكلاهما مسؤول عن المواقف . وتفسير النصوص – عملاً وامراً ونهياً – يتحمل تبعة المخاوف ، والمخاوف ترسب في الاعماق . ومنهم من يغذيها لهوى في النفس او ثقة منه بأنه يعمل لصالح الدين . والأهواء تفسد ولا يفسد الدين . فالدين ، في ذاته ، ليس سبب المأساة وليس ، ايضاً ، الدافع الاساسي الى كل شواذ . فهو لم يقل ، مثلاً ، الى الوليد بن عبد الملك بن مروان بتحويل كنيسة القديس يوحنا الى الجامع الاموي الكبير او يوح الى ابي عبيدة الجراح وخالد بن الوليد بكتابهما المعروف او يحرم على الادباء من مسيحيي مصر تعليم العربية في بعض مدارس مصر . والدين لم يلزم المسيحيين في الغرب بذبح اليهود او يكل الى يهود اليمن ، على ما يروي الريحاني ، اعمالاً لم تكن من الكمال والحسن(١) . والدين ،

(١) امين الريحاني ، ملوك العرب ، مطبعة صادر ، بيروت ، ١٩٢٩ ، طبعة ثانية الجزء الأول ، ص ١٣٩ و١٦٩ و١٧٠

في ذاته ، ليس مسؤولاً عن النزاعات المستحكمة بين المسلمين والهندوس او عن مذابح الهنود الحمر تحت راية الصليب على يد كورتز وبيتزارو وغيرهما من الفاتحين ، مذابح اثارت شعور المسيحيين انفسهم ، وحدت البابا بيوس الثالث الى الوقوف ضدها بشدة سنة ١٥٣٧ . فالاسلام امر بمعروف ونهى عن المنكر ، والمسيحية تسامح ومحبة ورحمة ، فالى م – بعيداً عن سوء الطبيعة البشرية وعن تفسير الدين – يعود التنابذ ومن يسأل عن نزاعات الدين ؟ ونزاعات الدين استفحلت بين ابناء المعتقد الواحد فكانت مأساة كربلاء وكانت مذابح المصلحين (١) على ايدي الكاثوليك في فرنسا ، سنة ١٥٧٢ ، بأمر من الملك شارل التاسع ، ليلة عيد القديس برتلوميوس (٢) .

في يقيننا ان الكتب وان عزت تدخل ، اولاً ، في اطارها التاريخي والاجتماعي ، فالبيئة تسن احكاماً وتأمر وتنهي . وما ساغت قضت به ، احياناً ، قساوة الظرف (٣) ، فعبدة الحجارة وبعض « الموحدين »

(١) Protestants ou Réformés.

(٢) L. CHRISTIANI: *L'Eglise à l'Epoque du Concile de Trente*, Blond et Gay, Editeurs, pp. 112sq.

(٣) آية الحجاب ، مثلا ، « نزلت » ، على ما ينقل البخاري عن أنس بن أبي مالك ، بمناسبة زواج الرسول بزينب ابنة جحش . ويقول أنس « دعا الرسول القوم فطعموا ثم جلسوا يتحدثون ، واذا هو وكأنه تهيأ للقيام فلم يقوموا فلما رأى ذلك قام فلما قام قام من قام الا ثلاثة نفر فجاء النبي ليدخل فاذا القوم جلوس ثم انهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي انهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بيني وبينه فأنزل الله الآية « ... واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب... » (الاحزاب ٥٣) . ويضيف البخاري ان عمر بن الخطاب قال لمحمد : « يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت امهات المؤمنين بالحجاب » . البخاري الجزء السادس ، ص ١٤٨ و١٤٩ . وآية الحجاب شملت زوجات النبي ولم تشمل جميع المسلمات .

LAU-Byblos Library

رفضوا الاسلام وقاتلوا النبي ، واليهود آلمهم « ان يمن الله على العرب برجل منهم» فهم « يحتكرون » النبوة وعلى احتكارهم لها رتبوا النتائج فحرضوا قريشاً وحرضوا القبائل على النبي ، وقريش انتضت السيف وقاد ابو سفيان ، شيخ الامويين ومن انسباء النبي ، جيوشها في أحد واصطحب الاصنام ورفع مقاتلـوه اللات والعزى ، حجري الكعبة المؤلهين ، بوجه النبي وانصاره صارخين : « الا لنا العزى ولا عزى لكم » تدليلاً على مكانة الحجارة المؤلهة في قلوب القريشيين . واليهود حزّبوا عليه الاحزاب فهجر وكتب له الفوز ، من بعـد ، في غزوة الخندق وقضى على بني النضير وعلى احلافهم . وبنو النضير هم من يهود العرب . والاحلاف كانوا عرباً وكانوا من اليهود .

الظروف ذكرنا بعضها ولم نسهب فيه . وللظروف مكانتها . والقرآن تخوف على الاسلام من المكائد فاشتدت فيـه الصرامة ، فالعرب لا يرتبطون برباط والردة على الاسلام قامت بعد وفاة النبي (١) . والقرآن حسب حسابها (٢) . ولكن الاسلام رسخ ولا يزال راسخاً . والخوف عليه ، في حكمه ورسالته وايمانه ، لم يعد قائماً . والوجه الروحي هو خير الوجوه . وتقسيم العالم الى « دار اسلام » و« دار حرب » يبدو، اليوم ، متعذراً . ومن شاء الاسلام اقبل عليه . ومن يؤمن هو حـر طليق . ومن اعتنق غير الاسلام ديناً لا حرج منه .

---

(١) « أطعنا رسول الله ما دام بيننـا فواعجبا ما بال دين أبي بكر؟
أيورثها بكراً اذا مات بعده ؟ فتلك وبيت الله ، قاصمة الظهر» !
يقول الحطيئة شاعر الردة .

(٢) « وما محمد الا رسول قـد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على اعقابكم. » آل عمران ١٤٤

الدين وروح الاثرة

في رأينا ان المأساة اللبنانية تعود ، ايضاً ، الى الاستغلال السياسي والى روح الاثرة . فكل فريق يبغي الأثرة باسم الدين ويعمل لها ، فالدين وسيلة والاثرة غاية . ومن حرم الاثرة وخال حقه قائماً فيها بغاها بشتى الوسائل وشرّع المطالب واكثر الصخب واوغر الصدر وبعث المخاوف فيتربص الفريقان — من ملك الاثرة ومن بغاها — احدهما بالآخر شراً. وتسود الأثرة الواقع اللبناني ويرتدي النزاع طابع العنف ويضيع المفهوم الوطني ويعيش الناس في واد وعصرهم في واد وتنصب الهموم عـلى الاثرة ، ابقاء عليها او محاولة لنقلها من فريق الى فريق .

من الامانة ان نقول ان التركيبة الطائفية هي ، ايضاً ، مسؤولة عن واقعنا الاليم ، فالوظائف تتأثر بالاعداد ، وكـل فئة تسعى الى « حقوقها » على اساس العدد ، والكفاءة محرومة منها . ولو انتميت الى فريق ضعيف وكنت موفور المواهب لما ادركت شيئاً . والدواء ليس وهماً ، وهو في فصل الدنيا عن الدين ، وفي وجهه تقف موانع وسدود تعود الى حرفية النصوص وتعود الى دفع الاجتهاد عنها . وفي الامر تبسطنا من قبل (١) .

تبقى من الدواء قطرات الدواء وهي تتمثل بالغاء الطائفية السياسية . والغاء الطائفية السياسية ، ان سلم ، قاد الى بعض الاصلاح . ولكنه ، على صعيد عملي ، لا يودي بالارجحيات المنازع فيها فأصحابها يقبلون على العلوم ويجلون . ولا نرى ان الالغاء يحرمهم المراكز ، اكثرهـا

---

(١) من وحي تاريخ الموازنة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ١٦٢ وما يليها .

LAU-Byblos Library

واعلاها . ولا بد من الفصل بين الدين والدنيا علّ الفصل بينهما ينهلنا من كل ينبوع ويقبلنا على كل معرفة . والفصل ، على كل ، يودي بالتناظر ويقضي على اسباب الشقاق .

*

المعرفة يدفعها ضيق الافق ويبغيها قشوراً . والمعرفة لا يمكن حصرها في مجال معين ، فهي على تطور مستمر . وما كان اليوم صواباً قد يبدو ، غداً ، غير صواب . ولا سبيل الى الجمود . وبعضهم يخال المعرفة وقفاً على « اصول » معينة . ومن تخرج في « الاصول » اصبح « عالماً » . وهو قد يكون عالماً في « الاصول » دون ان تمتد به المعرفة الى رحاب ابعد . والرحاب قائمة في كل نطاق ، والدين نطاق واحد . وهـو لا يجمع الاشياء ولا يدعي جمعها .

الامور عوامل وآفاق . والعامل القومي في حياة الامم عامل فعال يبعث النهضات ويوحد الشعور . والمسيحيون ، في الشرق ، لم ينكفئوا عنه ، فالموارنة ، مثلاً ، اسهم بعضهم في نهضة العرب ولا نقول انه اوجد النهضة . وللكثيرين منهم مواقف في بعث التراث العربي . والاطار القومي يفصل الدين عن واقع الحياة . ولو كان الدين الاطار الجامع الوحيد بين المسلمين لما انقسم « العثمانيون » الى عرب واتراك . والامة الاسلامية جامعة روحية تبرز قيم الاسلام ولا حرج منها . والجامعة الروحية المسيحية واقعها قائم . والمسيح المح اليها ، فهو قال لبطرس : « انت الصخرة وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي وابواب الجحيم لن تقدر عليها .»(١) وبولس الرسول نوّه بقيام بشرية جديدة يشكّل فيها

(١) متى ١٦ – ١٨

المسيح حجر الزاوية (١) . والكنيسة قيمة على الفضائل المسيحية ، وهي جماعة المؤمنين بالله . ولا خوف مـن جامعات الدين ان تفاعلت في مجالات الروح .

الشعور القومي والدين

الاسلام ، منذ اوائل عهده ، لم يعمل ، تماماً ، بالآيتين القائلتين « ان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاعبدون » « وان هذه امتكم امة واحدة وانا ربكم فاتقون » (٢) . والآيتان قد تعنيان المسلمين بمفهوم « المسلمين » التاريخي وقد تشيران ، جملةً ، الى جماعة المؤمنين بالله .

المسلمون ، انفسهم ، تناثروا شيعاً وفئات ، والخلاف ، اصلاً ، لم يكن خلافاً دينياً ، فلا شيء فصل السنة والشيعة على صعيد الدين . انما الخلاف انطلق من حصر الخلافة في سلالة النبي او من امتدادها الى قريش . والتنافس هو من طبيعة البشر . ولو كان للاسلام ان يبدل فيها لزال العامل القومي . والعامل القومي لا يعبث بالدين وان افرد للقومية مقاماً وللدين مقاماً . وهو قاد الاكراد الى الثورة على العراق . ووحدة الدين لم تمنع تقسيم الباكستان وقيام دولة البنغـال . وعرب فلسطين وجدوا انهم عرب فقاوموا العدو ولا يزالون . واشدهم ضراوة ليس حكماً من المسلمين . ومن خلف ويخلف اثره في التفكير العربي مسيحي ومسلم لا مسلم فحسب . ونظرة المسلمين الى اصحاب الفكر من العرب

(١) غلاطية ٣ – ٢٨ : « ليس يهودي ولا يوناني . ليس عبد ولا حر . ليس ذكر ولا انثى لأنكم جميعكم واحد في المسيح يسوع . »
(٢) الانبياء ٩٢
– المؤمنون ٥٣

LAU-Byblos Library

المسيحيين تدفع الزعم القائل ان المسلمين ، اليوم ، هم والمسيحيون على طرفي نقيض . والظاهرات اذ تجد تفسيرها في رباط قومي توافر الوفاق والمودة . ولو حاولنا رد جميع الظاهرات الى رباط الدين لما حالفنا التوفيق .

الدول الدينية ان قامت قامت الى حين ، فهي تناقض سنن التاريخ ، ومن راهن عليها خسر رهانه . والأمر مدّ وللمدّ جزر سريع ينحسر معه الدين الى افقه الروحي وهو كريم . والدين يسر ، ينظر الى الضرورة وعلى اساسها يحرّم ويبيح .

*

تنمية الشعور القومي وتحسس المخاطر المصيرية سبيلان راهنان الى الوحدة بين اللبنانيين . وهما يضعان الدين في اطار كريم ويحدان من تنافس الاثرة . فالهموم تزول امام المآسي ، والصغائر تدفعها الكبائر ، ومفهوم القرية يحجبه الاطار الرحب . واللبنانيون ان لم يتعظوا من الاحداث فلن يتعظوا من شيء . والواقع اللبناني ، في ذاته ، فصل بين المسلمين والمسيحيين ، فما دامت التركيبة اللبنانية قائمة على المفهوم الطائفي كان للعامل الديني ان يبرز ، فالمسلمون وفر عددهم ، وبعضهم اراد المناصب رهناً بوفرة الاعداد . وثمة مسيحيون اعتبروا لبنان ملجأهم واملوه وطناً يتوافر فيه نفوذهم بمعزل عن وفرة الاعداد .

لبنان عرف على فترات بجبل لبنان . ولبنان الفسيح النظرة اليه ، اصلاً ، تعود الى فخر الدين ، فالامير المعني وسع حدوده ومدّها الى الداخل السوري . وبشير الشهابي ، من بعد ، عبر حدود الجبل وخانه

AU-Byblos Library

الحظ وتعسّر . وهو رفض الدولة المسيحية في حدود الجبل الضيقة (١). وفرنسا ، من بعد ، اوجدت « لبنان الكبير » وامنت له سهولاً خصبة وممرات الى البحر .

المطالب والحلول

الحلول تتعسّر امام المخاوف . والمشاركة بين اللبنانيين لا تقوم ، مثلاً ، على فرض يوم الجمعة عطلة على المواطنين . فاذا كان الاحد يوم راحة فالأمر اصطلاح قديم . ولا نرى ان الراحة تنطلق من تباين الدين . فاما الجمعة واما الاحد ، والاحد الى الواقع اقرب . والقرآن ينص على الجمعة دعوة الى الصلاة « لذكر الله » (٢) . فعلام ، اذن ، التشديد على عطلة ليست موجباً دينياً ساعة نحاول الحد من سوء التفسير في موجبات الدين ؟

من المؤسف ان فئات أبرزت « المطالب الاسلامية » في وقت حرج ، وكأن يداً خفية دفعت بالأمور الى حد قصي . والحد تمثل بالكارثة . « والمطالب » كان من الواجب طيها الى زمن لا أهواء فيه أو ابعادها ، على الاقل ، عن حوار الشارع . ومن المؤسف ، ايضاً ، ان فريقاً من المسيحيين رأى في « المطالب الاسلامية » افتئاتاً على كيانه . والمطالب ان عدلت لا تمس الكيان . والمساواة ليست عدواناً ، فالثورات قامت في سبيلها ، ولا يضير احد ان يتسنم مسلم او مسيحي منصباً من

(١) Rapport de Bourée, Consul de France, Cité par Dominique Chevalier, *La Société du Mont Liban à l'Epoque de la révolution industrielle en Europe*, Guetner, 1971, p. 161, Note 1.

(٢) « يا ايها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله .... » الجمعة ٩

المناصب . وما يضير هو انتفاء الاستحقاق وان يقوم « الاستحقاق » على اساس الدين . ولئن صح المفهوم سلم التعيين .

تعدد الديانات في لبنان واقع قائم ولا حيـاد عنه . فلا المسيحيون يذوبون المسلمين ولا المسلمون يقذفون بالمسيحيين الى حافة الهاوية . واذا كان النبي قال ، فعلاً ، في احد الاحاديث « لا يجتمع دينان في شبه جزيرة العرب » (١) على ما يروي البخاري فللقول، في حينه، مبررات لا جدال فيها . فيهود الحجاز قاوموا النبي وسيطروا ، قبلـه ، على الحجاز . ونصارى نجران أتوا النبي في عام الوفود مع قسّ بن ساعدة وجادلوه . والفريقان شكّلا خطراً على الاسلام فحدّث النبي بما حدّث وأضاف « أخرجوا اليهود من الحجاز واخرجوا نصارى نجران من شبه جزيرة العرب . »

لبنان ، على كلّ ، ليس في رحاب شبه جزيـرة العرب . والحديث لم يقض على الوجـود اليهودي في اليمن وان حفّت به الشوائب . واليمن تركه اليهود ، مختارين ، بعد قيام الدولة العبرية « بقرار » من الامم المتحدة كرّس ظلامة ولم يسلم حقاً . والمسيحيون وان لم يصبحوا مواطنين في شبه جزيرة العرب يعملون ، اليوم ، في شبه جزيرة العرب . وهذي روما ، المدينة الخالدة وقاعدة المسيحية ، تفرد للمسلمين جامعاً فيها . ومن قبل ، لسنوات خلت ، ساء آباء ورهبان في فرنسا ، ان يحرم عمال شمالي افريقيا المسلمون انفسهم من جامع فأخلوا لهم ديرهم وكنيستهم ومكنوهم من اداء شعائر

(١) في دراستنا حول « فلسطين والخطر المصيري» نسبنا القول ، خطأ، الى الخليفة عمر .

الدين (١) . وعن الامر ، في حينه ، كثر الحديث . والتساهل يقابله التساهل ، والنظرة الجامدة شذوذ .

التطور والعقد

الشرق امام امرين : اما ان ينطلق من جراح الى جراح واما ان يمضي قدماً الى الامام . ولا بد من اعطاء « قيصر ما لقيصر والله ما لله » . وما يبتغيـه الله عطاء روحي . والعطاء الروحي لا يعرف عصبيات الدين . ولكن العقد تتحكم في ذهنية الناس ، انطلاقاً منها ، وبعضهم ، في حربنا القذرة آزر فريقاً على فريق وخال في مواقف معينة ارتداداً عن الدين . والارتداد عن الدين يرفضه الدين (٢) .

على ان عصا السحر ، في الشرق ، لا تفعل فعلها بعيداً عن كـل انتفاضة ، فالشرق مهد الديانات ومهد النزاعات فيها . والذهنية لم تصل ، بعد ، الى مطاف قصي . وما آل اليه الغرب آل اليه بعد جهد طويل . ولكن التلاحم البشري وتعدد اللقاءات وقرب المسافات لا بد من ان تخلف اثرها . ولا سبيل الى الانكفاء . ولنتوق الى يوم نفرد فيه للعقل مقامه ونقسط بين الدين وبينه ، فتوما الاكويني وابن رشد سعيا الى الاقساط ونجحا فيه . والناس على « دين » اهل الفكر ان سعى اهل الفكر الى سلامة الحال .

العرب لم يواجهوا سواداً شبيهاً بسواد اليوم . وسوادهم قد ينقلب بياضاً ان ارادوا البياض . فبعد انكفاء مصر ، خاصة ، عن دورهـا

(١) *Informations Catholiques*, Paris, Mars, 1972.

(٢) «ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة » البقرة ٢١٧

LAU-Byblos Library

العربي لا بد للعرب من احكام الروابط مع كل صديق . وبعضهم ينظر الى العلاقات الدولية من منظار « الخطر الشيوعي » ويتخوف منه وينسى ان العلاقات الدولية شيء و« الخطر الهدام » شيء آخر . وقد يمتد الخطر الصهيوني بعيداً في بلاد العرب ولا يتحرك « أصل العرب » . ولو بقي التفكير على حاله لدار التاريخ على نفسه واستعاد اليهود مجدهم الغابر في الحجاز (١) واستعادوه في اليمن (٢) ولقلنا على السيادة العربية وعلى المد العربي ، حقاً ، كلّ تحية وسلام .

---

(١) H. LAMMENS, *L'Arabie Occidentale à la veille de l'Hégire*, Imp. Cath. Beyrouth 1926, pp 231sq.

(٢) MAXIME RODINSON, *Israël et le refus arabe*, Seuil, 1968, pp. 9sq.

LAU-Byblos Library

الأوطان القومية

فكرة الوطن القومي

الوطن القومي شيء والوطن القومي الديني شيء . فالوطن القومي الديني يجمع بين القومية والدين . والدين ليس القومية . واذا كان الحديث عن الوطن القومي العربي الاسلامي ، في الحجاز ونجد مثلاً ، لا يثير التناقض فالحديث عن الوطن القومي المسيحي في لبنان هو تعبير خاطىء . فالمسلمون في الحجاز ونجد عرب اقحاح ، والمسيحيون في لبنان ينتمون الى سلالات مختلفة . وتعبير « الوطن القومي المسيحي » يحمل على الاعتقاد ان المسيحيين فيه من عرق سلالي واحد . والواقع يخالف الاعتقاد .

الحديث عن « الوطن المسيحي » يسلم المنطق ولا يسلمه الحديث عن « الوطن القومي المسيحي » . والتحديد يصحّ ، ايضاً ، في « الوطن العبري». فاليهود فيه « اشكناز » اي يهود خزر من المغول المتركين ، وهم « صفريد » اي يهود شرقيون من اصل سامي . والدين بين الفريقين هو الرباط السليم وان ادّعى جميع اليهود وصلاً «بوعود العهد القديم» وبفلسطين .

فكرة « الوطن القومي المسيحي » في لبنان رفضتها تصريحات المسيحيين . وبحثها هو من صميم الامانة العلمية . والاوطان الدينية والعنصرية ليست وقفاً على مكان او زمان . وما يقسو فيها ، احياناً ، هو الواقع . ومن استهوى الوطن المسيحي أمل انفلاتاً من «عقدة الخوف». وعقدة الخوف تسيطر على اناس وتنحسر عن اناس . وما نبغيه هو التحرر من كل عقدة . والتحرر ، في آن واحد ، رهن بارادة « الخائف » وبارادة العرب .

قيام الوطن المسيحي في لبنان لا يعني تطبيق الشرائع الكنسية فيه او العود بالشرائع الى جذور الانجيل . فالمسيحية ، على حدّ ما اشرنا اليه ، لم تجعل من التشريع همها الاول ولم تحتج الى التشريع . والشرائع الكنسية المستوحاة ، في باب الاحوال الشخصية ، من روح الانجيل تطبق في لبنان على المسيحيين . وما يعنيه الوطن المسيحي ، في رأينا ، هو تحول لبنان الى وطن يشكل فيه المسيحيون اكثريته الدائمة المطلقة وينفردون فيه بمعاني السيادة ويلجأ اليه المسيحيون من كل قطر عربي . والفكرة لم تتوقف عند ضيق الرقعة وانتفاء التناسب بين الرقعة واعداد اللاجئين من المسيحيين .

عقدة الخوف

عقدة الخوف عقدة غالبة . والمرء يخاف ما يعرف . وما يجهله قد يقرع النذير ولا يثير كوامن الخشية ، فالكوامن تحذير وليست خبرة . والانسان ان راعته القفزة الى المجهول لا يعرف المجهول . والرفض

قد يتحول الى قبول . وما يعرفه هو ما ادركه او اخبر عنه . والمعرفة والرواية ، احياناً ، مغالاة وتحريف .

ليس ضرورياً ان يكون الماضي الحاضر عينه . والمستقبل ، ايضاً ، يستقلّ عن واقع الامس . ولكن الامس يثقل والخائف يخشى اليه العودة . والمرء لو ادرك المستقبل لآثر ، احياناً ، عليه الماضي . « ولو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع » يقول ، على سبيل المثال ، الخليفة عمر .

هاجس الاستقلال

الخوف يفضي الى التفكير بحلول تدفع الخوف . ولا بد لمن واجه واقعاً واباه من ان يسعى الى واقع آخر . والسعي ظرف ، والظرف ، عبر التاريخ ، غالبته العوامل وتغلبت عليه .

الجبل اللبناني تمتع ، على فترات ، بنوع من الاستقلال الفعلي ، فهو مرتفع وعر المسالك (١) والوسائل لم تمكن ، دوماً ، من ولوجه واخضاعه . ولكن المسلمين ، في القرن الثامن ، غزوه بأمر من صالح بن علي الهاشمي . وهم ، من بعد ، تمكنوا منه فاحتلوا « الجبة » في شماله (٢) سنة ١٢٨٧ ووصلوه مع التتر وجردوا عليه حملة المماليك سنة ١٣٠٥ . والعثمانيون دخلوه مرات . والشيعيون اللبنانيون ادركوا

---

(١) « وجبال لبنان وكيف بقطعها   وهو الشتاء وصيفهن شتاء ! »
يقول المتنبي ، قاطعاً جبال لبنان ومتوجهاً الى الاخشيدي في مصر .

(٢) المطران يوسف الدبس ، الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، المطبعة العمومية ، بيروت ١٩٠٥ ص ١٥٨ .

LAU-Byblos Library

اعاليه وحكموه ، والحماديون منهم تنصبوا ، بمساعدة الاتراك (١) ، سنة ١٦٥٤ على بعض انحائه . وما نسوقه مثال ، والتعداد لا يعوز من يبغيه .

الاستقلال هاجس ، والواقع لم يقض عند اللبنانيين على هاجس الاستقلال . وهاجس الاستقلال ، لدى الموارنة مثلاً (٢) ، انطلق من العامل الديني ، فهم خلقيدونيون رحلوا عن قورش(٣) الى جبل لبنان ولم يكونوا ، بالتالي ، مستعدين للتنازل عن عقيدتهم الدينية فوالوا الجبل وانكمشوا فيه ونزلت اعداد منهم الى السواحل وترحلت الى الجليل في فلسطين وسارت الى قبرص برفقة الصليبيين سنة ١٢٩٢ .

الاستقلال تاق اليه اهل الجبل وحالت دونه الحوائل ، فالجبل اللبناني بقعة في بحر ينضوي تحت راية الاسلام ، واليه انتمى العثمانيون . والعثمانيون احتلوا البلاد السورية على يد السلطان سليم اثر معركة مرج دابق سنة ١٥١٦ وقضوا فيها على المماليك . وهم كان همهم الاول

(١) LAMMENS, *La Syrie*, Op. Cit. T. 2, pp. 67sq.

(٢) الموارنة من اوائل مسيحيي الجبل اللبناني ولا نقول اولهم لأن المسيحيين سكنوا الجبل اللبناني قبل الموارنة . ومسيحيو الجبل كانوا ، على غرار الموارنة ، من العرق السرياني الآرامي . والموارنة أتوه اثر اضطهادهم في سوريا ، في قورش وجوارها ، على ايدي اليعاقبة السريان . والاضطهاد يعود ، على حد ما هو معروف ، الى تمسك الموارنة بمقررات المجمع الخلقيدوني وانشقاقهم عن معظم أبناء طائفتهم السريانية ، رافضي مقررات المجمع المذكور . والرفض سهل من بعد ، احتلال سوريا على يد العرب ، فالأهلون شاؤوا الانعتاق من نير البيزنطيين ، اصحاب سوريا ، والبيزنطيون تبعوا المقررات الخلقيدونية واختلفوا ، بفعلها ، مع السريان . والسريان ، آنذاك ، كانوا يشكلون معظم سكان سوريا . وهم نظروا الى العرب محررين واعواناً لا أصحاب رسالة دينية فآزروهم على البيزنطيين .

(٣) قورش تقع حالياً في تركيا على بعد خمسين ميلا الى الشمال الغربي من مدينة حلب.

جباية الضرائب لا حكم السكان المباشر فتركوا الحكم لامراء محليين برز منهم الامير فخر الدين الثاني المعني الذي حبا الموارنة بعطفه وحلم باستقلال لبنان على سعة في الارض لا على انكفاء في الجبل اللبناني . وخانه الحظ وقضى على ضفاف البوسفور . والحظ ، من بعد ، لم يبسم لبشير الشهابي الثاني . وبشير الشهابي وطد للموارنة ولنفسه ارجحية معلومة لم تدرك حدود الاستقلال .

وكانت الفتن والهزات وامرها عرضناه من قبل (١) واعقبها نظام جديد متع الجبل، سنة ١٨٦٤، باستقلال اداري لم يخرجه عن سيادة العثمانيين . والاستقلال الاداري زال اثر دخول تركيا الحرب العالمية في ٢٩ تشرين الاول ١٩١٤ ، وعاد تحت « حماية » الانتداب . والسلطة المنتدبة وسّعت حدود لبنان وضمت اليه مدناً وسهولاً وموانىء بحرية تمكيناً له من مقومات البقاء .

LAU-Byblos Library

الحقائق الثلاث

خرجت فرنسا من لبنان بعيد الحرب العالمية الثانية واطل لبنان على الاستقلال . والاستقلال دعّمه ميثاق وطني غير مكتوب توزّع فيه المناصب الكبرى بعض الطوائف فكانت الرئاسة الاولى من نصيب الموارنة والرئاسة الثانية للشيعة والرئاسة الثالثة للسنة. ولو توقف « اهل » الميثاق عند تبدل المعطيات لترددوا فيه ، فالواقع ، في ظل الانتداب ابرز حقائق ثلاثاً هي الآتية :

(١) جمهورية زحلة ، اول جمهورية في الشرق ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٧٨، ص ٦١ وما يليها .

ا – ارجحية الموارنة في مرافق الدولة ومؤسساتها.

ب – تمتع الموارنة وسائر المسيحيين بالكثرة العددية.

ج – توفر الحماية الفرنسية للموارنة وللمسيحيين ، بوجه عام ، وتبعياً الابقاء على الارجحيات القائمة بمعزل عن تبدل الاعداد .

زالت الحماية الفرنسية ودار الخلاف حول اثنتين من الحقائق الثلاث : فلبنان الكبير ، في حدوده وواقعه ، هو من فعل فرنسا ، وفرنسا ، آنذاك ، ان تجاوزت المفهوم الديني كانت تعتبر نفسها حامية الاقليات المسيحية في الشرق انطلاقاً مـن مصالح قائمة ورباطات قديمة . وهي رحلت عن سوريا ولبنان . والزمن قلب الاعداد ووازن ، في نظرنا ، بينها ولا نقول قلب الموازين . ولو قلبها لما تملكتنا الدهشة ، فالأمر هو من حتميات المنطق منذ قيام لبنان الكبير . والمسيحيون ان ألّفوا اكثرية في الجبل اللبناني فأكثريتهم تتضاءل في لبنان الكبير . والهجرة وتناسل المسلمين كفيلان بنقل الاكثرية من فريق الى فريق .

كثر التململ عند بعض الفئات . وبعضهم تذمر من واقع لا حدّ فيه وودّ دفع الارجحية . وقد يكون آثر الارجحية لنفسه او بغى التعادل فيها . وهو ابرز مطالبه والحّ عليها . والمطالب عبرت الجوهر الى المظهر وعززت المخاوف ورأى فيها بعض الناس تمهيداً للقضاء على « الوجه المسيحي للبنان . »

وجه لبنان المسيحي لا يعني ان الوجه الاسلامي – وهو كريم – غائب عن لبنان . وبالعبارة نرغب في التشديد على مظهر شاءه الغرب وقبله العرب تطميناً للاقليات . والعرب توافقوا ، في ميثاق تأسيس الجامعة العربية ، على تقليد شفهي قضى بأن يكون بين رؤساء العرب

رئيس مسيحي – هو رئيس لبنان – ترسيخاً ، في البلاد العربية ، للوحدة الوطنية بين المسلمين والمسيحيين .

*

الا ان فريقاً من اللبنانيين خامرته الشكوك وخال ان لبنان قد يغالبه المد العربي ويغلبه . والتفكير عززته هجرة فريق وعززه تناسل فريق وقاد اليه الحلم الصهيوني وتصميم الغرب على انشاء وطن قومي يهودي في فلسطين . وطرح المصير على بساط النقاش واجب وحق ، والخلود الى النفس هـو خير الخلود . والوطن اليهودي في فلسطين يقرّب الى الذهن فكرة الاوطان الدينية والعنصرية . والمنطق قاد بعضهم الى التوقف عندها فوجّه الى الامم المتحدة « كتاب استغاثة » (١) يطالب بجعل لبنان « وطناً مسيحياً في الشرق الأدنى . » والكتاب رسم الاسئلة واستدعى الاجوبة . وواضعه قد يكون فريداً في رأيه وقد يكون عبّر عن رأي نفر من رجال الدنيا والدين . وهو طرح حلاً للوجود المسيحي في الشرق ولزم الصمت امام مضاعفات الحل . والمضاعفات هي ، مثلاً ، في موقف العرب من الحل : أتراهم يرضون ام يرفضون ؟ وهي ، ايضاً ، في موقف لبنانيين معيّنين منه : أيجلون ام يبقون ؟ ولعله ترك للامم المتحدة ، وهي في طور التكوين ، اسباب المعالجة . والمعالجة دقة لا نظريات تغفل التطبيق وتجلي في ميدان علمي . والوطن المسيحي لو قام لبدا لازمة او رديفاً (٢) للوطن اليهودي قبل ان يولد الوطن اليهودي ويتفاعل في آثاره على المسرح العالمي . والكتاب ترددت مؤخراً عباراته في تصريح نقله صحفي فرنسي واطلعنا عليه بعد عودتنا الى لبنان (٣) .

---

(١) *S.O.S. Le Liban* «Foyer Chrétien» du Proche-Orient.

(٢) Corollaire.

(٣) L'Express N° 1433-30 Décembre 1978.

LAU-Byblos Library

الدولة العبرية في التاريخ عارض . والعارض يصعب حدوثه ثانية .
وهو لن يحيا الا اذا افرغ العرب الردة من الضمير ورتبوا على انفسهم نتائج الصلح ، والنتائج بحثناها في دراسة مستقلة (١) وعـلى اعمدة الصحف . واليها لنا عودة في هـذا الكتاب . ومـا يستوقفنا هو ان « الاستغاثة » ظلت بلا جواب . وما اتيح لليهود اتيح لهم فحسب .
ولبنان ، في نظر العالم ، ليس ، عـلى غرار اليهود ، وسط العالم او سرة (٢) العالم ، منه الذهاب واليه الاياب . والدول لا تؤمن بأن الخطر محدق بمسيحيي لبنان وان الابادة مصيرهم المحتوم بل ترى ، احياناً ، ان المسيحيين فيه يسيطرون على المرافق العامة (٣) . والدول ، ايضاً ، تبحث عن مصالحها ، ولا مصالح تدفعها الى تقسيم لبنان ، ولا مصالح تحملها على التدخل فيه .

من المسلم به مبدئياً ، ان الاقلية تطيب للأقلية، والامر بدهي. ومن هذا المنظار ارادت الصهيونية لها جسوراً على ارض لبنان . والصهيونية تدخل لبنان في تخوم « مملكة داود » ، وثبة تعقبها وثبة في نية غير مستترة للسيطرة على الرحاب الممتدة بين النيل وشبه الجزيرة العربية ، فالنهم لديها فريد يبغي من الاشياء جميع ما تنطوي عليه الاشياء . وهي تواقة الى مصالحة العرب، فمصيرها رهن بهم، والمساعدات الخارجية زمنها محدود . ولبنان ان بغى حفاظاً على ذاته وعلى صداقة العرب له ان يحذر

---

(١) فلسطين والخطر المصيري .
(٢) Nombril
(٣) Le Monde, 15-16 Octobre 1978.

من مسالة الكيان العبري . فالمسالة تمكّن له يداً في حدود لبنان وفي مياه لبنان .

*

انتفاء مفهوم الدولة (١) قادنا ، دوماً ، الى التفكير بأن ثمة شيئاً لا بد من ان يحدث ، فلا العدالة الاجتماعية مصونة ولا الاطلالة على النظم الحديثة بارزة في الافق . اما التخطيط فمنتف والنظام الرأسمالي ، في اطلاقه ، فمخجل ، واما الناس فلاهون ، واما العبث ففي كل مجال، واما التمثيل الوطني فمعيب، واما المفهوم الديمقراطي ففي واد ونحن في واد ، واما التململ فعلى ازدياد . وما خلناه يحدث تغيير « ابيض » في اسس الحكم وحلول الكفاءة مكان الغباء ونظرة جد الى الأمور ودفع تحكم الثراء وسيادة القانون . فالضرورة ملحة ودفع الاصلاح « يؤخر الاستحقاق » . ولكننا لم نتصور يوماً حجم التخطيط وفداحة المأساة .

النكبة والمخطط

مأساة لبنان نتيجة مخطط واسع الحلقات . والمخطط ، اصلاً ، لم يهدف الى تقسيم لبنان وان شاء المخططون ضرب المقاومة الفلسطينية على ارضه . ومن اراد التقسيم ، في البدء ، هم الصهيونيون ، وبن غوريون ، رئيس الوزراء السابق في الكيـان الصهيوني الحّ فيه (٢) .

---

(١) من وحي تاريخ الموازنة ص ١٥٨ الى ١٦٤ .
MISSION IRFED, *Besoins et Possibilités de Développement du Liban*, 1960-1961 République Libanaise, Ministère du Plan, Beyrouth, Helio Electronic Press: Tome I, pp. 19sq. Tome II, pp. 120sq. Volume Annexe, pp. 43sq.
(٢) Le Monde Diplomatique, Novembre, 1978.

LAU-Byblos Library

وثمّة من تخوّف على مصير لبنان وسعى الى الحلول وطرحها على بساط النقاش .

مخاوف اللبنانيين ، قبل محنة اليوم ، لم تنطلق مـــن واقع مريب ، فالمسيحيون لم يقذفوا بالمسلمين الى قعر اللجة ، والمسلمون لم يشهروا السيف ويقاتلوا المسيحيين ، ويخيّروهم بين « الجزية ودخول الاسلام » ، و« المطالب الاسلامية » لا تحمل بذور الحرب ، وان اثارت هلعاً في بعض الاوساط . ولكن العوامل والظروف العربية والخارجية مضافة الى الواقع اللبناني ، زادت من الاحراج ودفعت الى تفجير الاوضاع . وفي العوامل لا بد من محاولة . وما نذكره ينطلق من تحليلنـــا الشخصي . والتحليل قد لا نخطيء ، تماماً ، فيه .

أ – تشرد شعب فلسطين ورضي العالم بالظلامة عله يلاشي عقدة الاثم ويسكت انات الضمير بعد ان فعل في اليهود ما فعل واساء معاملتهم واباد منهم مجموعات واقام لهم دولة على اشلاء الكيان الفلسطيني ومدها بالمساعدة وسكت عن تجاوزاتها محتمياً ، في الظاهر ، وراء اسطورة خرافة قوضت الشرائع وعبثت بالمنطق وتساءل معها العديدون عن مصير الولايات المتحدة الاميركية ، مثلاً ، في ما لو طالب الهنـــود الحمر بأرضها وقضى المجتمع الدولي بزوال الدولة العملاقة وبانثناء اهاليها الحاليين الى مواطنهم الاصلية . والولايات المتحدة ليست ، على حد ما هو معروف ، بعيدة في التاريخ ، والمهاجرون اليها استولوا عليها وذبحوا سكانها الاولين . الا ان التساؤل يقف عند حدو د القوة . فالولايات المتحدة قوية ، والغلبة للقوة وليست للحق وان خال احمد شوقي « ان للحق لا للقوة الغلبه . » (١)

(١) يقول أمير الشعراء متوجهاً الى اللورد اللنبي ، فاتح القـــدس في أواخر الحرب العالمية الأولى : ⇐

ب – التحليل قاد الى الاعتقاد ان ما كتب لليهود قد يكتب للبنان وان كياناً طائفياً لا بد من ان يقوم فيه ، فالكيان الطائفي او الديني يطل على كيان شبيه به ، والاطلالة ، مبدئياً ، لا تبعد عن ضرورات المنطق . وعلى الفكرة شجع الصمت العربي عن نكبة فلسطين ، ونظرة اطراف معينين في العالم الى الدولة العبرية كياناً يحمي ، وان بصورة غير مباشرة ، نظماً تخطّاها الزمن بعد ان جعل الاستعمار من الدولة العبرية جسر رقابة يصون مصالح الغرب ويفصل ، شرقاً وغرباً ، العالم العربي .

ج – برز الرئيس العربي الراحل جمال عبد الناصر على الساحة العربية بشخصية قوية فخطب الناس ودّه واقبلوا عليه . وقامت الوحدة بين مصر وسوريا ، وكادت تجذب الى اطارها دولاً عربية اخرى . وهي ، في لبنان ، رفعت بعض المعنويات واحرجت فريقاً من المسيحيين فازداد خوفاً على خوف وانكماشاً على انكماش . والمسلمون لم يخفوا ولاءهم للرئيس الكبير فوافوه في المناسبات الى دمشق وساروا الى مصر ، افراداً وجماعات . وخال الناس ان الولاء للبنان ولاء اسمي وان الولاء للعروبة قائم وحده ، فبحثوا عن مخرج يدفع « الخطر » ويصون الوجود «المهدد» ويعيد ثقة المواطن بالكيان اللبناني . والكيان اللبناني تعالت ضده ، من داخل لبنان ، بعض الاصوات . وثمة اصوات تنادت لتدرأ عن لبنان « تهديد الزوال» . وجاءت ثورة سنة ١٩٥٨ تزيد الامور تعقيداً فانقسم اللبنانيون وتقاتل بعضهم . والقتال اطل على دوافع خارجية تمثلت بحلف بغداد – وبالسعي اليه ثم بالانثناء عنه اتهم لبنان – واطل ، ايضاً ، على

« يا فاتح القدس خل السيف ناحيــة ليس الصليب حديداً كان بل خشبا
لـــو كنت تدري الى أين انتهت يده وكيف جاوز في سلطانه الحقبـــا
علمت ان وراء الضعف مقـــدرة وان للحق لا للقوة الغلبـــه ! » .

LAU-Byblos Library

فكرة المساواة بين الطوائف ، مساواة تبناها الرئيس فؤاد شهاب وحققها الى حد .

د ـ خسر العرب حروباً ثلاثاً وثلمت كرامتهم وسقطت عنهم « الهالة » لا بل سقطت الهيبة . والناس تنظر الى القوي وتقبل عليه . والقوة ، لسوء الحظ ، خانت العرب وان لم تخنهم اسباب القوة ، فبعضهم لا يجاري روح العصر بل يشاء الحروب صراعاً بين سيف وسيف وينسى انه في عصر الذرة ، ان الحروب تقنية متطورة وان الامور تخطيط ومعرفة وجد لا تواكل وعبث . وهانت الامنية في نظر العديدين ، فالصهيونيون ان كانوا قادرين فالقدرة لديهم تنطلق من الانفتاح على العلوم ـ وعليها يقبل اللبنانيون ـ والعالم ان مدّ اليهود بالمساعدة فلن يبخل بها على غير اليهود ، ودور اسرائيل ليس عليها وقفاً . والنتائج يترقبها الناس .

هـ ـ أتى اللاجئون لبنان ذرافات واعداداً ودار حولهم الخلاف . والسلطة لو شاءت امراً لقامت في وجهه العقبات ولحال بعضهم في تطبيق القانون وسيادة الدولة افتئاتاً على وضعه ، فانقلبت الموازين وغدا الفلسطينيون ، في نظر فريق معين ، « دولة ضمن دولة » يؤازرهم العرب ويحمونهم على ان ينعم العرب في بلادهم بالهدوء الشامل . وانطلق العمل الفدائي من لبنان وحرمته دول المواجهة من داخل حدودها ودفع لبنان الثمن خسائر بشرية ودماراً . ومن يؤمن بعدالة القضية الفلسطينية وبضرورة استمرار العمل الفدائي ير ان العمل الفدائي اما ان ينطلق من الارض المحتلة ومن سوريا ومصر والاردن الى جانب لبنان واما الا ينطلق من لبنان .

LAU-Byblos Library

الغلبة ليست ، دائماً للمنطق ، والعجز يحيط بمن يدين به . والمسؤولون لزموا الصمت . والعرب « يقدسون » العمل الفدائي ما دام محظراً عندهم ، والحجة الى المأساة ازدادت وان كانت « التجاوزات الفلسطينية » لم تشكل ، في نظر الكثيرين ، عاملاً بالغ الخطورة يقود الى المأساة وقذارة المأساة .

و ـ الحرب قادت اليه مقدمات اتفاقية سيناء للفصل بين الكيان العبري والجيش المصري . فالاتفاقية ، ما سبقها وما تلاها ، عزلت سوريا وزادت العرب شقاقاً وقربت النظام المصري من الحل المنفرد . والسوريون لم يتخلوا عن القضية الفلسطينية وان تخلى عنها النظام المصري. والعرب لم يمضوا في ركابه . ومنهم من حالفه التوفيق في التحليل فكتب بعيد حرب سنة ١٩٧٣ ، ان الحرب وذيول الحرب غطاء لجر سوريا الى مائدة المفاوضات . ولكن مهارة المخططين لم تقض عند السوريين على « فضيلة الرفض » .

ز ـ ثمة انظمة عربية خالت ، من تحليل عابر ، انّ « الخطر الشيوعي » داهم راهن فآثرت حفاظاً على « ايمانها » واوضاعها واعتقدت انّ الايمان يسلم والاوضاع تسلم بتصفية النزاع العربي الصهيوني . وتصفية النزاع تفرض ، اولاً ، تصفية المقاومة والمضيّ في ركاب الولايات المتحدة الاميركية على ان تسلم الولايات المتحدة مدينة القدس ، فلا خطر صهيونياً بل « خطر شيوعي » . والتشديد عليه علق في الضمائر . والضمائر لم تتوقّف عند أبعاد الخطر الصهيوني .

المخطط في اطاره العام

المخطّط ، في اطاره العام ، لحظنا خيوطه منذ سنوات عشر وقُدّر

لنا ان نكتب فيه (١) . وما نراه ان للمخططين همّاً اوّل هو السيطرة على الشرق الاوسط مواقع ومعادن ونفطاً . وللسيطرة شروط تمر بالوفاق العربي الصهيوني ، وحجر الزاوية فيه الوفاق المصري الصهيوني . وما افسد الوفاق ، الى الآن ، هو الموقف السوري. اما لبنان فأمره ثانوي، فالمخططون ارادوا فيه ضرب المقاومة لتقبل يائسة على الحل ، وهم أملوا موافقة الاردن وموافقة سوريا وفي السوريين لا ينفع الاغراء . ولكن السوريين ينظرون الى فلسطين على انها جزء من سوريا الجنوبية ويحلمون « بوحدة عربية شاملة » وبضم لبنان اليها او على الاقل بضم اقضيته الاربعة من بعد ، مرحلة يلحق بها الجبل . وهم يخططون لمدى قصيّ ويبغون ، اليوم ، احاطة العدو بحزام واقٍ ويتفارقون مع المستعمرين من اصحاب المخطط ويخشون ان اطل التقسيم على لبنان ، في ظل المعطيات الراهنة ، ان يطلّ على الدويلات الطائفية والعنصرية في العالم العربي .

المخططون من الخارج ومن غير الصهيونيين لا يتوقفون عند الدويلات العنصرية والطائفية . وهم لم ينظروا بجد الى تقسيم لبنان ولم يعدوا به . فالتقسيم يقلق العرب ويلقي على الولايات المتحدة بأعباء لا مفرّ منها . « فالدولة الصغيرة » ان قامت احتاجت ، دوماً ، الى شتّى المعونات . والولايات المتحدة تنوء تحت عبء المساعدة التي تقدّمها لإسرائيل . وهي لن تجازف ، ثانية ، باغضاب العرب . ومن اراد التقسيم ، خارجاً ، وشجع على حرب لبنان هم الصهيونيون تبريراً لوجود الكيان العبري واحاطة له بحزام امني يقيه هجمات الاكثرية السنية في اطلالة آجلة ام عاجلة على تقسيم العالم العربي الى دويلات

(١) فلسطين والخطر المصيري ، ص ١٩٢ و١٩٣ و١٩٤ .

عنصرية ودينية . فلا المبعوث الاميركي براون قرب فكرة التقسيم ولا فرنسا قبلت بأمره ولا الكرسي الرسولي رضي بالاصغاء اليه ، ولا الولايات المتحدة توقفت، رسمياً، عنده . واذا كانت الولايات المتحدة تحاول ، الى الآن ، استرضاء السوريين فهي تفعل املاً بجر سوريا الى مصالحة الكيان العبري . والكيان العبري ، نفسه ، يحلم حلم المخططين فلا يتدخل مباشرة في حرب لبنان بل يترك الباب مفتوحاً امام المساومات ويحرص على ضرب المقاومة ان امكن ضربها ويتطلع الى الوفاق مع السوريين . وسوريا ، في رأينا ، باقية على الرفض . ويخطىء من يخال ان العراق وسوريا سائران على طريق النظام المصري ومتخليان عن قضية فلسطين .

*

للمخطط مقدمات تعود الى حرب ١٩٦٧ وفيها خسر العرب على جبهات ثلاث ، فالولايات المتحدة الاميركية والصهيونية العالمية تسعى الى فرض الدولة العبرية على العالم العربي ، على ان يعترف بها العرب ويسدلوا الستار ، نهائياً ، على قضية فلسطين . وحرب الايام الستة في حزيران ١٩٦٧ ، وافرت معطيات الضغط على العرب بعد ان تمكّن الكيان العبري، بهجوم خاطف، من الاستيلاء على الضفة الغربية وقطاع غزة والجولان وشبه جزيرة سيناء : فاما القبول به واستعادة الاراضي ، معظمها او بعضها ، واما الرفض والتسليم بالاحتلال الصهيوني . والنظام المصري ، مثلاً ، آثر شبه جزيرة سيناء على الموقف الرافض . وما كان مستحيلاً في ظل الرئيس عبد الناصر بات ممكناً في ظل الرئيس انور السادات .

LAU-Byblos Library

المخطط والسنة

اتفاقية سيناء شدت من العزم ، والعزم ، كما قلنا ، عزمان . والسنّة ، في رأينا ، مستهدفون ، فالفلسطينيون المسلمون سنيون ، والسنة اوفر العرب عدداً على خط الصراع الاول . ومن يقول ان الحرب حرب على السنّة لا يقع في الخطأ . والسنّة متغافلون منقسمون . ومن لم يحذُ حذو مصر جر على نفسه الويلات . ولكن المخططين آثروا على الدويلات الحل الشامل وقادوا عـلى طريقه مصراً واعتبروا ان العالم العربي سئم النزاع واقبل على الحل السلمي . وهم ، في اعتقادنا ، يعتمدون للفلسطينيين الحكم « الذاتي » في الضفة الغربية وقطاع غزة. والقدس لا يتعسّر امر المقدسات فيها ان توافر الحل . والحل معلق ، اساساً ، على موافقة سوريا . وسوريا من « مزاياها » الرفض . والرفض ان اقترن بموافقة الاتحاد السوفياتي سلاح ناجز الى ابعد حد .

*

الحزام الواقي لا يفتقر الى مثـال . ولو تطلعنا الى الماضي القريب لوجدنا ان الحلفاء ، قبيل الحرب العالمية الاخيرة ، احاطوا المانيا بحزام « واق » ما لبث ان تداعى فانهار ، في البلقان ، الحلف الصغير (١) ، المؤلف من رومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا ، وافترق الاتحاد السوفياتي عن فرنسا ومال الى المانيا وتعاهد معها . ولو توقفنا عنـد اوضاع الامس القريب وعند اوضاع اليوم لبان امامنا « حلف بغداد » وحلف دول جنوبي شرقي آسيا (٢) وحلف دول اوروبا الغربية (٣)

---

(١) La Petite Entente.

(٢) Cento.

(٣) Nato.

وجميعها قام في مواجهة الاتحاد السوفياتي وبمؤازرة الولايات المتحدة الاميركية ، فالبدعة ليست في مبدأ الحزام الامني بل في بعث الدويلات العنصرية والدينية ثانية الى عالم الوجود . والفكرة كفكرة لا توهـن المنطق . ومـن خشي الوطن المسيحي اثاره الاسلوب . وثمة مـن اباه انطلاقاً من شعور جامع . وثمة من رغب الحفاظ على لبنان في حدوده الحاضرة ثقة منه بأن لبنان الصغير او جبل لبنان لا يتمتع بمقومات البقاء.

الظاهرة القومية والدينية

ما ذكرنا من عوامل وما فاتنا امره يصب في اتجاه واحد . والاتجاه يسير عـلى طريق « الوطن الصغير » . والوطن الصغير ينكره الناس ويجهرون برفضه . ورهبان الموارنة ، مثلاً ، ندّدوا ، في روما ، علناً بمرجع ديني « لبناني » نسب فكرته الى الموارنة . والنظرة اليه تعرف التفاوت ولا تدرك الاطلاق . وهو لو تحقق لشابه الاوطان العنصرية والدينية ولساغ معه قيام الدولة « العلوية » والدولة الدرزية في سوريـا والدولة الاشورية في العراق الى جانب الدولة القبطية في مصر والدولة السودانية المسيحية في جنوبي السودان .

بين الامنية والتحقيق صعاب ومشقات . ومن يدع الى الوطن العنصري او الديني يعجز عنه ما لا يلقى موافقة العرب وموافقة العالم . اما العرب فيجابهون الفكرة بالرفض ، واما العالم فهو غير هياب ، وهو يحمل من الاثقال ما ينوء تحته . وبقاء الدولة العبرية « الى الابد » ينتظر حكم التاريخ . والتاريخ الحديث يحضن المساحات الكبيرة . وما تناثر ، في الامس عقده يسعى الى جمع الشمل ، فهذي اوروبا يقرب بعضها مـن بعضها فتقبل عـلى التوافق وتنشىء الرباطات وتمسي وحدتين

LAU-Byblos Library

تنفصلان ، فحسب ، بين الشرق والغرب . وما جزأته الحروب وبقي على التجزئة يتوق الى ماضيه . والزمن كفيل باعادة اللحمة وبذر الخلاف . وما تحن اليه الاقليات خروج على السنن . ولكنه ظاهرة ، والظاهرة ليست حكراً على الاقليات الدينية ، فالقوميات تخضع لها ، والاكراد ، على سبيل المثال ، ارادوا الاستقلال واشعلوا الثورات ولم يحالفهم التوفيق . والارمن لو امكنهم استعادة مجدهم في كيليكيا لما تأخروا ساعة . والارمن والاكراد ان ذكروا فهم لا يحتكرون الذكر ، فثمة عنصريات ومجموعات دينية ، في اوروبا نفسها ، يجذبها امره ولا تصل بها الرغبة الى مطاف قصيّ .

*

الظاهرة ، اذن ، ليست غريبة ، فالشعور القومي والديني راسب في اعماق الناس . وهو يبرز عند انتفاء المساواة ويبرز ، في حالات ، مجرداً عن كل عبث ، فالانسان يهوى الانتقال من حال الى حال ويبغي حفاظاً على هويته ويرفض ان يذوب في اطار اكبر وان كرم الاطار. ولا بد من التأنّي ، فلا كورسيكا ، جزيرة نابليون العظيم ، تحيا منفردة ولا بلاد « البسك » في اسبانيا اهل للاستقلال ، فالتربة فقيرة والضرورة ملحة . ولولا الاطار الرحب لساء حال كورسيكا والباسك. ولكن الانسان يعشق الحرية ويرفض عقد النقص ، والاستقلال ، في نظره ، يلاشي العقد فيمسي وجاره نداً لند .

ما يثير هو انتفاء التنفيذ ، وهو ، ايضاً ، المضاعفات ، ان امكن التنفيذ ، فالمضاعفات واردة وقد لمسنا امرها ، وكل وطن صغير يسعى الى مقوّمات بقائه . وعند ضرورات العيش يشقى الانسان . والطموح لا يقنع بعطاءات التربة وبالطبيعة الحسناء .

الاهداف والآثار

استعر الهشيم وهوى لبنان . ومن يهو يزدد ضعفاً على ضعف . واذا كانت القوة تحول دون المشقة فالضعف يفتح لها الابواب . ولئن سهل على القوي دفع الكبائر فالضعيف يرزح تحتها . والكبائر تتمكن منه وتتفاعل فيه . ويسود العجز وتنتفي الردة وتبرز الاقدار . هذه سنة الحياة وهي لسوف تبقى . والعاجز تؤلمه الاحداث ، والاحداث تقرر وتستبد ، وعلى الاستبداد وعلى العجز فيه تقوم الادلة . « انما العاجز من لا يستبد » ، يقول عمر بن ابي ربيعة. وفي القول صواب .

الحرب والتسميات

الحرب تفتقر الى تسمية وتغرق في بحر التسميات . فهي لم تكن حرباً على لبنان انطلاقاً من عاملها اللبناني . وهي ليست حرباً لبنانية فلسطينية او لبنانية عربية ما دام اللبنانيون انشقوا على بعضهم فيها . والحرب ، ايضاً ، ليست حرباً اهلية ما دامت عناصر غير لبنانية القت بثقلها الى الميدان . والحرب ، اخيراً ، ليست حرباً دينية ما دام ابناء الدين الواحد لم يتخذوا منها الموقف الواحد . والصراع لو كان من فعل الفئة الواحدة

LAU-Byblos Library

او الطائفة الواحدة لوجب ان ينعت باسمها لا باسم جميع المسلمين ، مثلاً ، او باسم جميع المسيحيين . والصراع لا يفرض من فئة على الفئات الاخرى في المعتقد الواحد ما لم تستشر فيه وتقبل عليه . والحرب لو دارت حول الارجحيات لحملت اسم من ينازع فيها او يحافظ عليها . والتسمية الواجبة للحرب هي ، في نظرنا ، « حرب لبنان » او « الحرب الدائرة على ارض لبنان » .

*

نشبت الحرب لتحقق هدفاً او اهدافاً . وهي لو نشبت على غير هدى او على انتفاء هدف لقسا التاريخ في حكمه . فمن لا يترقب النور وان من ثقب ضيّق يمضي بالناس الى الهلاك . ولا نخال ان الغباء يقضي ولا يقضي الادراك . ولكنّ الادراك يضني فيأنفه الناس . وهو يحمل العبرة. « والعبرة » هي ، معاً ، في توافر الاهداف وفي تحقيق الاهداف ، والعبرة ، ايضاً ، في امكانية التحقيق . وامكانية التحقيق من الاماني الغاليات .

الاهداف في حرب لبنان ، في رأينا ، هدفان تمثل احدهما بضرب المقاومة الفلسطينية لترضى بأسوأ الحلول ودار ثانيهما حول فكرة التقسيم . وكل فريق نظر الى أمانيه . وثمة من تملّكه القلق فأراد السيادة المطلقة على ارض وان صغرت الارض ، وبغى ابقاء على حريته واوضاعه فيهاجر اذا شاء الهجرة ويعود ان بغى العودة ويتحرر من هاجس الكثرة العددية ويفلت من الرواسب ويتجاوز العقد . وثمة من سُرّ مقابلة ، باستمرار الفوضى وتردّي الاوضاع .

LAU-Byblos Library

المقاومة الفلسطينية

ضرب المقاومة الفلسطينية كما قلنا ، لم يكن في الاساس ، هدفاً لبنانياً ، فالمقاومة لا تشكل خطراً مصيرياً على لبنان ، فهي ترفض مشاريع الاستيطان ، والاستيطان يطوي امره ضيق الرقعة اللبنانية ، والمضاعفات تقصيه . بل ضرب المقاومة كان ، اولاً ، هدف الكيان العبري وهدف « المخططين » . والمخططون هم ، غالباً ، « وزراء الظل» من رجال المخابرات ، وهم احياناً ، افراد من « الاسياد » . فللدول سياسات لا يعتمدها ، دوماً ، رجال المخابرات ، فهم دولة ضمن دولة . « ودولة النور » تقصر ، احياناً ، عن « دولة الظلام » .

ما ينسب الى وزير خارجية الولايات المتحدة السابق ، هنري كيسنجر ، لا يغرب ، تماماً ، عن الصواب . فهو مكّن الاتراك من تقسيم قبرص . وان قضى فيها الوضع ، آجلاً ام عاجلاً ، بالعودة الى واقعها القديم . وكيسنجر ، بوصفه يهودياً ، والى الصهيونية وان لم يوالها جميع اليهود ، وهو ، بوصفه اميركياً اراد الاطمئنان الى مصالح الولايات المتحدة والغرب في العالم العربي وبغى التصفية لخلاف تعذر فيه الحل ، فالدولة العبرية تعيش على المعونات وتغرف من خزينة الولايات المتحدة وتأخذ ما تشاء من المانيا الاتحادية ومن اليهودية العالمية. ولكن لكل شيء حداً ولا بد للمعونات من ان تدرك نهاية الحد .

الدولة العبرية في الواقع وفي نظر المخططين عبء ما لم يصالحها العرب ، وما عداه وهم . فالمسالمة والمصالحة ، من بعد ، توديان بالرفض العربي وتؤمنان بقاء الكيان العبري وتبعدان المخاطر عن مصالح الغرب في الشرق . والمصالح الاميركية والغربية ، نفطاً وتجارة ونقاط رقابة وطرق مواصلات ، بارزة للعيان ، فلا بدّ من حل ، والحل لا

يغضب من عرف الراحة وطاب للترف وخشي جرثومة الحرب وراعته «الافكار الهدامة» وتخوف على ايمانه وآثر ايمانه على كل مبدأ واستاء من مواقف بعض القيادات الفلسطينية والانظمة العربية من واقع « الايديولوجيات » ومن تعدد « الافكار » فتلاقت المصالح وتدفق الاغراء وكان لبنان هدفاً . وكان الفلسطينيون هدفاً . وهم ان ضعفوا هانت الاشياء .

الظروف ، والحق يقال ، بدت مؤاتية الى ابعد حدّ . فعبد الناصر ، الرئيس العربي الكبير ، طواه الموت ، والاردن لا يستوعب جميع اللاجئين الا في اطار الدولة الاردنية الهاشمية في ضفتيها الغربية والشرقية ، والكيان العبري في وضع قويّ ، ومصر هي مصر وفيها قال عمرو بن العاص مـا قال ، وعبد الناصر عارض والعارض زال ، والانظمة المحافظة راضية او معتصمة بالصمت ، وفلسطين ان ضاعت فرحاب العرب واسعة ، والهموم تنصب على القدس ، والمخططون لا يعجزون عن حل ان لم يكونوا قد وعدوا بالحل .

الموقف السوري

تنبهت سوريا الى المخطط وبعضهم اتهمها فيه . وما نلحظه ان فلسطين هي ، كما قلنا ، جزء من جنوبي سوريا . وسوريا لو تآمرت على فلسطين لتآمرت على نفسها . ورأينا ، اثر دخولها لبنان ، خالف آراء العديدين . فكثر خالوا ان القوات السورية جاءت لتصفية المقاومة ولفرض التقسيم . ومن رضي بتدخل السوريين شاء استرضاء السوريين واغراقهم في مشاريع التسوية . وبعضهم امل سوريا نعجـة واخطأ التقدير ، فالسوريون وان قسوا وتنكروا لحلفائهم الطبيعيين وتعرضوا للنقد وخانهم الاعلام وسلكوا الطريق الوعر — هم السوريون . وهـم

LAU-Byblos Library

صادقوا فريقاً مـن اللبنانيين لهدف معيّن . والظروف ، مـن بعد ، تبدلت ، واهداف السوريين ناقضت اهداف الآخرين ، فالسوريون املوا القضاء على فكرة التقسيم وبعضهم خال السوريين يحققون التقسيم.

عادت ، من بعد ، الامور الى سابق عهدها بين سوريا والمقاومـة الفلسطينية . وعجّل في رأب الصدع تخاذل النظام المصري ، فزيارة الرئيس السادات للقدس المحتلة دفعت بالامور الى نقطة اللارجوع الاّ اذا تبدّلت المعطيات او زال الرئيس السادات . والزيارة اطلت عـلى صلح مشين . وتناسى الرئيس المصري ان الصلح ان سلم على المـدى القصير فهو ، عـلى المدى البعيد ، يجر على بلده الويلات . والى الامر لنا رجعة من بعد .

*

ما يستوقفنا ، الآن ، ان الحرب اللبنانية لم تحقق هدفها الاول . وما نجم عنها أضنى جميع الناس . واذا كانت للأقوياء يد في تسيير الامور فالاقوياء لا يقضون في شؤون الناس بمعزل عن ارادة الناس . وما نأباه ان نلاشي ، عندنا ، معاني الحرية والارادة وان نعـود ، فحسب ، بوضعنا الى المخطط والمخططين وان نبرىء انفسنا مـن كل وزر ، فالمخطط لو عنى لبنان مباشرة لحقق هدفه . ولكن المخطط يشمل ، على حد ما ذهبنا اليه ، رحاباً اوسع . واللبنانيون مسؤولون عن حالهم التعس ، ولو اقبلوا على التفاهم لوضعوا حداً لكلّ تدخّل خارجي . وللتفاهم شروط تمرّ بوحدة الموقف من الكيان العبري .

لكل شيء خاتم . ومن « كتب » العهود انثنى عنها ، والمقاومة ان خسرت جماعات واشغلت عن مقاتلة العدو عوّضت الخسائر وتابعت

العمل الفدائي . والخسائر لا وزن لها ما دامت النساء يحبلن ويلدن . الا ان لبنان لم يلملم جراحه ، والتصدع قائم في صفوف بنيه ، والاعباء ، كاملة ، لا تلقى على اكتاف الضعفاء .

التقسيم

الانفس ، احياناً ، تعمر بالطمأنينة . وامام الاعين تبرق المساعدات وامرها سراب . وثمة من فصّل رأيه قولاً وكتابة ، منذ سنتين ونيّف ، واستبعد التدخل الخارجي (١) . والتدخل ليس رهناً بارادة اللبنانيين ، وجرّ الدول الى ما لا تريد لا يتعدى حدود النيات . والمقاييس تختلف من فريق الى فريق .

كل فكرة ان انطلقت من سلامة القصد حرية بالبحث . وليس لاحد ان يقذف احداً بحجر . ورفض فكرة التقسيم بعيداً عن التحليل ، لا يسلم المنطق . وما نحذر منه ليس المبدأ ايّاً يكن المبـدأ . ولكننا نحذر النتائج ونحذر الابعاد . فنحن في محيطنا نتفاعل ، ولبنان يزول ان طرأ على حدوده التعديل .

*

الناس تمضي ، احياناً ، من واقعة معينة وترتب عليها نتائج عامة . والمنطق يرفض الموقف ويرى فيه خللاً او تحليلاً عائباً يقود الى الخطأ عمداً (٢) . فالناس ، مثلاً ، تنطلق من خلاف بين شخصين للقول بانتفاء التعايش على صعيد عام ، او من وشم على جبين للمناداة بأن شرخاً

(١) من وحي تاريخ الموارنة ، ص ٢٠١ .
(٢) Sophisme

يفرّق بين اللبنانيين . والامور ، في نظرنا ، تبحث من منظار شامل وتوازن جميع المزايا وجميع العيوب وتقسّم بين المقدرة على الكبائر واستطاعة الصغائر . وان لم نفعل خرجنا على سلامة التحليل .

*

من الامانة ان نقول ان الحرب لم يلق استحساناً عند اللبنانيين وان نفراً مهمّاً من المواطنين ، رجال دنيا ودين ، رفض التقسيم والوطن الصغير ، فالموارنة ، مثلاً ، لا تغيب عنهم الحقائق . وهم اوجدوا لبنان الكبير ، ففرنسا نزلت عند طلبهم . ولو بغوا الجبل اللبناني لما حال حائل . ولكن المخاوف فعلت فعلها والدولة العبرية استثمرت الرواسب. وصداقة الدولة العبرية ليست حكراً على فريق ، فالعرب سعى اليها بعضهم ، وثمة لبنانيون ، من غير المسيحيين ، اقبلوا عليها فرحين . وما هو بين الطيات لا بدّ من ان يرى النور .

التقسيم بغاه الحرب وعجز ، الى الآن ، عنه . فالرئيس اللبناني اقسم على وحدة لبنان ، والدول وقفت في وجهه ، والعرب لفظوه ، ومنهم من قاتله بحزم ، واسرائيل ان جذبتها الفكرة حيناً فهي لا تجذبها دوماً . وما ان باشرت مصر انكفاءها العلني عن الصف العربي حتى بزغ امام الصهيونيين نور جديد وتطلعوا الى آفاق ابعد ، فهم اخرجوا — وان الى حين — اقوى العرب واكثرهم عدداً من الحلبة وأملوا في صلح شامل، فعلام يبحثون ، بعد ، عن دويلات طائفية او عن حزام امني ما دام الامن بين الايدي وما دام الموقف في الصف العربي يؤملهم بالتعاون مع مجموعات العرب ؟ فالدويلات والحزام هي لدرء الخطر في وسط رافض ، وبانتفاء الرفض وبمد الايدي تنتفي الحاجة الى الحزام الامني .

LAU-Byblos Library

والدويلات ، ايضاً ، لو قامت مع الصلح الشامل لما رفضها الكيـــان العبري ، فهي تزيده اطمئناناً على اطمئنان وتقيه شرّ الطوارىء من بعد. ومن قبل التقسيم تلفت الى اللامركزية ، واللامركزية واقع راسخ في بلاد عديدة وان قامت فيها على اساس اداري لا على اساس طائفي .

اللامركزية

اللامركزية تترجح بين مؤيد ورافض . وما يتبادر الى الذهن فيها هو اللامركزية الادارية ، وامرها يبقي على وحدة لبنان . ومنهم مـــن رفضها واسهب في التعليل (١) . ومنهم من يريد وجهها الطائفي اي استقلالاً ادارياً على اساس ديني فيتوحد بعض القرى ، مثلاً ، في قضائين مختلفين ، انطلاقاً من انتماء القرى الطائفي . وما يحول دون اللامركزية الطائفية هو انها التقسيم بوجه جديد وتحت شعار جديد .

الامنيات امنيات ، والصعاب تحول دون التطبيق . فقرية شحيم — والذكر للذكر — لم تنضم الى صيدا ودير الأحمر لا تزال حتى الآن في قضاء بعلبك ، والقاع ورأس بعلبك هما في مكانهما ، وثمّـة قرى واماكن ان تناولها المبضع ، فالمبضع نظري . والحال ، الى الآن ، هو على ما كان عليه ، فاللامركزية ترحيل واعادة توطين ، وفي الامر شقاء .

اللحمة الجغرافية البشرية

بيد ان الحرب ان لم تحقق اهدافاً فقد اطلت ، احياناً ، عـلى ما يشبه

(١) دراسات الكسليك ، « القضية اللبنانية » ، الجزء الثاني ، ص ١٦ و ١٧ و ١٨ .

الاهداف ، فهي اوجدت ، مبدئياً ، اللحمة « الجغرافية البشريـــة الواحدة الفصيل » بين الاهلين من شرقي بيروت حتى جبال الارز . والرقعة وان ضاقت يسكنها لبنانيّون معيّنون ، فعرب المسلخ رحلوا عنها او رحّلوا والاكراد انتقلوا من الكرنتينا الى قطاع بيروت الغربي ، واهالي النبعة مضوا الى الجنوب او الى البقاع والضواحي الشيعية لبيروت ، وتل الزعتر زال من الوجـــود ، والقرى الشيعية في جبيل والفتوح قد ينزح اصحابها عنها وقد يبقون فيها . وهم ، على كل ، لا يبدلون من الواقع او يحورون فيه . والجبليون ، قديماً ، عرفوا العيش المشترك بين الموارنة والشيعة والنصيريين والدروز .

« اللحمة الجغرافية الواحدة الفصيل » غذّتها اعداد المنكوبين وهي كثيرة . فالدامور ، مثلاً ، نكب اهلها فترحّلوا من مكان الى مكان. وما أووا اليه تركه ذووه . والجبل ضاق بالوافدين . ومن الطبيعي ان يقبل الناس على الناس . والاوضاع تستصرخ الضمائر . وما نأباه ان يستمرّ النزوح ويطول الشقاء .

عند اهل الجنوب ، أيضاً ، النزوح مأساة . وكأنهم مواطنون رحّل . فهم خسروا الاملاك ونكبوا في السكنى . وعليهم كتب الترحّل والعود البطيء . ويمنّونهم بالعودة . ولئن اطمأنوا هجّرهم المدفع . « واللحمة الجغرافية » لم تجمع بينهم . والموازين تنقلب بتنقّل الاعداد .

ما نقوله نظرة الى الواقع الحالي لا الى ما يجب ان يكون . وما قـــد يحدث مستقبلاً هو في عالم الغيب . واعادة اللحمة بين اللبنانيين تبدّل في الواقع . ولا بد من الالمام بجوانب الاشياء . ولا سبيل الى تجاهل المضاعفات ان توافرت المضاعفات .

LAU-Byblos Library

التقسيم النفسي

الحرب ان عجزت عن التقسيم بمفهومه المتعارف عليه فهي لم تعجز عن ابدال « تقسيم » بتقسيم . وهي اوجدت التقسيم النفسي وباعدت بين الناس . والطيبة المتأصلة في قلوب الناس تقنط ، على المدى القصير ، من اعادة اللحمة . وثمّة من يخشى ، في الاحياء والقرى المختلطة ، الاقامة فيها ويتوق ، مكرهاً ، الى الانتقال الى رحاب اخرى . فما حدث فصم العرى وبدل في المقاييس واحدث شرخاً في التفكير . ولا جدوى من التستر على الواقع فالقذارة ماثلة ، والرواسب راقدة الى حين وهي ان لم تتفاعل اليوم قد تتفاعل في الغد . والعيش المشترك مقدر على اللبنانيين فلا الجبل يحيا منفرداً ولا رونق للمناطق اللبنانية بمعزل عن جبل لبنان . ولو شئنا من الواقع فراراً لما امكن الفرار . وما يقلق هو ضرورة التوفيق بين العيش المشترك وتفاعلات الاحداث .

اللبنانيون والحيرة

الحرب اوقعت في الحيرة واوجدت احتكاكاً وسوء تفاهم. واحدهم(١) قديماً ، حار في هويته وفي وضعه . وما رآه البارحة لا يغرب ، تماماً ،

---

(١) « اذا ذهب احدنا الى لندره او باريس قالوا له انك لسباق ولكنك تركي ، فيقول في نفسه لم يظلمني القوم . فما العصبية الا العصبية الوطنية فعلي بفروق ويؤم فروقاً فيقولون له لأنت عبقري ولكنك عربي فيقول في نفسه لقد انصفني القوم فلا رابطة الا الرابطة القومية ويهبط الفيحاء ويكتب ويدهش ويسحر العقول ويبني القصور بالآمال واذا باصحابه يهمسون في أذنه ذات مساء ولكنك مسيحي لا امل لك هنا ولا رجاء. فهو في لندره تركي وفي الاستانة عربي وفي الشام مسيحي وفي لبنان ارثوذكسي او كاثوليكي ، حواجز تحول دون الظهور وان تناسوا في لبنان علاماته الفارقة كان شريداً طريداً يخاطب الناس ولا يفهم الناس لان لكل من الناس في الجبل التاعس لغته وتعبيره ومغازيه ومراميه . »
ابراهيم ابو خاطر ، خطرات وافكار ، الخواطر ١٩٢٠ ، مطبعة زحلة الفتاة ، زحلة.

عن الصحة ، فالنظرات حدّقت في كل مكان ، واللبنانيون انزلق بعضهم الى الحرب مكرهاً لا مختاراً . ومنهم من لم يرض الحرب ولم يسع اليها ووجد نفسه في زوبعة. ومنهم من اقلقه التقسيم فرفض فكرته. ومنهم من ووجه بمسؤولياته فانثنى وانكفأ . ومنهم من حرّض على القتال واوقع الضحايا وتنكر لموقفه امام حقارة المصالح وحقارة شخصه . وانّى تكن الاسباب فالتقسيم ان حدث جرّ الويلات على الناس ، فلبنان ليس فقط ساحلاً او هضبة او جوار ساحل او هضبة وان والينا الساحل والهضبة ووالينا جوار الساحل والهضبة . وما عسى ابناء البقاع والجنوب وعكار يفعلون لو امسوا في عزلة ؟ وما عساه يفعل فريق من سكان بيروت الغربية اذا انكمش فيها ؟ وبعضنا ، ايضاً ، يقلق لاوضاع ذويه في سوريا والعراق وفي كل مكان . ومن الطبيعي ان يرفض التقسيم . ومن رضي بالتقسيم ، من جهة اخرى ، اهل وجار ، ولهم يصعب التنكر وان تفارقت الآراء . وهكذا ساد الارتباك وبات الناس في موقف لا حسد فيه ، فهم لا يريدون القتال ومضاعفات القتال ويأبون ، ايضاً ، ان ينسلخوا عن اهل واصدقاء ورفاق . والجدل قائم والمتألمون هم سليمو النيات .

امنية الصهيونيين

التقسيم النفسي بين اللبنانيين وبين اللبنانيين والعرب والفلسطينيين تاق اليه الصهيونيون وظفروا به . وبعضهم ، في لبنان ، لم يتغافل عنه . فالصهيونيون ارادوا ان يثبتوا للملأ ان العيش المشترك بين اليهود والعرب شيء مستحيل وان الدولة العلمانية الفلسطينية ضرب من ضروب الوهم. والحرب وافرت لهم الحجة ، فاللبنانيون انزلقوا ، في ما بينهم ، الى

LAU-Byblos Library

حرب فناء ، والفلسطينيون شاركوا في الحرب ، والعلمانية طرحت دواء للاوجاع وكثر حولهـــا الضجيج . واذا كان العرب ، مسيحيين ومسلمين ، يرفضون العيش المشترك او يشقون فيه فأنّى لليهود ان يحيوا واياهم في دولة واحدة ؟ واذا كان اللبنانيون ، وهم في الطليعة تطوراً وانفتاحاً ، عاجزين عن العلمانية فهل للعالم ان ينظر الى العلمانية نظرة الجدّ اذا تكلم عنها الفلسطينيون ؟

الموقف القومي

بعضهم له من الصهيونية الغاصبة موقف قومي . وهو ، في آن واحد ، مدرك مخاطر الصهيونية ومتمسك بلبنان . وصوته قد يكون ضعيفاً وقد لا يكون . وما من شيء يثنيه عن رأيه . وهو يؤثر ايمانه ومبدأه على كل ايمان ويشعر انّ الولاء للبنان شيء واغفال مخاطر الصهيـــونية يختلف عنه . ولو قيل له انّ الولاء للبنان يمرّ بالولاء للصهيونية لكفر بنفسه . وبفعل الاحداث تملّكه الوجوم وكأن ثلمـــاً شقه عن صفه . واللبناني يأبى عليك الايمان ويهزأ بالوطنية والقومية ويندرك للطائفيـــة والصغارات ولعبادة المال .

الأثرة

الحرب وطّدت الاثرة ولم تحد منها . والتعيينات التي اعتمدتها الدولة اثر « انتهاء الحرب » ، لسنتين خلتا ، لم تراع جميع الحقوق . وفي ما قيل ويقال نؤثر عدم الدخول ، فالمناصب ليست ، في نظرنا ، غاية . ولا جديد تحت الشمس . ولا فرق ، عندنا ، بين مواطن ومواطن . وما نتوق اليه معرفة المقياس المعتمد (١) : أهو الكفاءة أم العدد ؟ وما

(١) Critère

نأباه هو التصنيف وان يزعم زاعم ان بعض اللبنانيين دخيل على لبنان . فمن اللبنانيين من عاش في لبنان منذ فجر المسيحية وقبلها ، ومنهم من والى الجبل منذ بضعة عشر قرناً ، ومنهم من اتى لبنان من زمن بعيد وسخى بدمه في جبله ، وكثيراً ما انقذ الكرامة ولزم الصمت « وترك المغانم » . والتوسع في متناول اليد . ومن يبغه يلقه (١) . فالموسوعات و« دائرات المعارف » في لبنان تسهب ، احياناً ، في ذكر ادوار ثانوية وتبرز اشخاصاً مجهولين وتفرد لهم صفحات وتغفل اناساً ومقامات . وثمّة فريق يستنصرونه فينصر ويضوي الناس تحت لوائه ويلعب الدور الاكبر . وتقود « الامانة» ، من بعد ، الى خلط الاوراق وتناسي الادوار.

القذارة مظهر شامل

الحرب ، في آثامها وآثارها ، كانت من نصيب المسيحيين والمسلمين. ففي فلكها دار كلّ مواطن ، والصفوف ادركت الفجوات ، والناس آثر بعضهم التملق على واجبه القومي . فالحرب عرّت الفرقاء واظهرت الناس على ما هم فيه ورفعت ستار الزيف . فالفريقان عرفاها وامعنا فيها فكان السحل والخطف على الهوية والذبح والسرقة والادمان عـــلى

(١) Documents Diplomatiques et Consulaires, Vol. 10, p. 121: «Zahlé leur résista, (aux Druzes) les repoussa et sauva les maronites.» Rapport du Consul général de France à Beyrouth, De Lesseps, en date du 19 Décembre 1958.
– Rapport de Bourée, cité par Chevalier Op. Cit. p. 57: «Lors des troubles de 1841 la prise de Zahlé eut été le commencement du désastre de la montagne chrétienne; heureusement les habitants de cette ville ont une réputation de valeur éprouvée qui rend les succès des druzes improbables.»

AU-Byblos Library

المخدر . ومن يدعي العصمة لا يصدقه الناس وان رأى الناس « القذى » احياناً ، في أعين الناس .

*

الناس تقودهم الاهواء ولا تستوقفهم القذارة . ولو تمعنوا لعرفوا ان اقدس القضايا يفسد لفساد الاشخاص وان الاساليب ، ايضاً ، تمحو القداسة . ولبنان لولا قذارة الاحداث لكثر محبوه . والاصدقاء لا يفهمون ان نشدد على الحضارة ونعبث بالحرمات .

اللبنانيون ، بعد حرب السنتين ، مثلاً ، يشاؤون التفسير — ان كان ثمة تفسير — لأحداث القاع ورأس بعلبك والجديدة والفاكهة ويريدون ان تسقط الاقنعة ويسقط ما وراء الاقنعة . فعلام التصفيات وعلام حجمها ؟ والخروج على القانون ، ان كان ثمة خروج ، سبيله العدالة ولا يقابله الذبح . والى مَ نردّ التردّي في اوضاع الارمن ؟ فنحن نرفض ما تناقلته حولها ، في العالم ، وسائل الاعلام صحفاً واذاعات كأن الارمن لم تكفهم المذابح على مر التاريخ وكأن الاضطهاد ، لا الطمأنينة والراحة ، هو قدرهم الوحيد (١) . ونحن ، ايضاً ، نكاد لا نصدّق ما قيل لنا ، من بعد ، من انّهم ناصروا ، مداورة ، فريقاً على فريق .

فينا ، ايضاً ، تفعل فعلها الكلمة القيمة لسيادة المطران جورج خضر تحت عنوان « الذين يتقنون الارهاب ترهبهم الوداعة » وقد ورد فيها « ان ثمّة تغاضياً عمن يموت من الارثوذكس ذبحاً » وان الانين يشتد

(١) Le Monde, 1 Novembre, 1978.

« منذ تل عباس وجلة الدم على مد الدعة في الكورة الخضراء ومنصورية بحمدون وعين الحلزون وبشامون وشملان وكفرمتى وعرمون ». ولكن المطران الكبير «لم يتهم احداً» . ونحن، الى جانبه ، نرفض الاتهام ونرى ان « طائفة القتلى ليست بديلاً للسلطة فجلّ همنا الاّ تنسى الامة ابرياءها لئلا تزول من وعي الرب ... وان المحبة في ذهول حتى يتضح الواقع ويرتفع المكروه عن النفس » (١) .

استمرار النزاع

ما نخشاه ان نعاود سيرتنا الاولى قتالاً لا حواراً . والقتال يدور لسبب او بلا سبب ، فالصهيونيون يغذونه وبعض الدول يحركه ، اذا قامت، في مواجهة العدو، جبهة قوية تقلقه وتهاجمه او ترد عليه. والدمار الذي شهدته بيروت ، في الآونة الاخيرة ، دليل على ان النار هي تحت الرماد. ولبنان اصبح عاجزاً عن تحمل الهزات .

الصهيونيون أسعروا نيران الحرب وفتحوا في لبنان « جبهة جديدة ». وما يحدث يعيد الى الذاكرة « تهديدات » الرئيس المصري ، في العام الفائت ، ان رفضت سوريا « مبادرته السلمية » بأن يغرق لبنان وتغرق سوريا في بحر من دم . والتهديدات ، في حينها ، لم يجد لها تفسيراً جميع الناس . والتفسير توضح من بعد ، « فالتعاون » قائم بين النظام المصري والصهيونيين منذ سنة ١٩٧٧ ، والتمهيد اليه اقدم . والامران جزم فيهما اكثر من مصدر . والكيان العبري على ما ينقلون ، حذر في ربيع

(١) الكلمة قرأناها في روما بعد اختتام الدراسة ، في جريدة الانوار بتاريخ ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٨ فآثرنا اليها الاشارة .

العام المذكور ، الرئيس المصري من « محاولة ليبية » للاعتداء عليه(١) . والتعاون ان قام في مجال قام في مجال سواه . وما يلفت ان لبنان ، اليوم ، غارق في الدم . وفي « الدم » لم تغرق سوريا وان اصرت على الرفض . والمحاولات قد تفعل فعلها من بعد .

الترجح بين الحرب والسلم

الترجح ، في لبنان ، بين الحرب والسلم سئمه الناس . وما يرغبون فيه هو الحل انى يكن الحل . ومن المعطيات ما سعينا الى تفسيره . وما لا ندركه لا قبل لنا عليه . ومن المؤلم ان يكون الانسان العوبة . وكثر يجودون بالنصح ويختبئون وراء الجـدار . والامل الاّ تعبث مشاريع التسوية في المنطقة بكيان لبنان ويبقى الهشيم مستعراً الى يوم « الوفاق » . والوفاق بين الصهيونيين والعرب ليس من حقائق اليوم .

*

واجب ، عند الضرورة ، على اللبناني ان يحمل السلاح . وحمله لا يكون عبثاً . والمبرر ينطلق من بداهة الدفاع عن النفس ومن الكرامة الوطنية ، وينطلق ايضاً ، من الحفاظ على سيادة لبنان . ومن يتخلّ عن الواجب في الحالات الثلاث يشذ ، مبدئياً ، عن الناموس . وبعضهم لا يرى اننا واجهنا حالة الدفاع المشروع وان لمسنا بعض التجاوزات ، ولا يجد ان الكرامة الوطنية انحدرت الى الحضيض . وثمة من يرى الرأي المخالف . والموقفان يواكبهما الاخلاص . والمخلص يؤمّن انّ مـا انحدر ، فعلاً ، الى الحضيض هو الاخلاق. ولو شهرنا السلاح واطحنا

(١) JACQUES DEROGY et HESI CARMEL, *L'Histoire secrète d'Israël*, Edit. Olivier Oram, Paris, 1978, pp. 45sq.

بالاصنام وارسينا مفهوم الدولة لأحسنّا فعلاً . والحفاظ على لبنان ، في كيانه الحالي ، لم يقم لأجله الحرب .

لبنان والاطماع

ننحى باللائمة على انفسنا ولا نبرىء العرب من الآثام . فهم فضّوا نزاعاتهم على ارض لبنان واحكموا فيه المعول . والفلسطينيون ، احياناً ، اتهموا بالفوضى وان لم يكن لهم ، في داخل لبنان ، هدف معين . وما يقال عـن اقتطاع الجنوب لحسابهم او لحساب سوريا ليس وارداً الى حين . « وفوضى الفلسطينيين » وان أنفها الناس هي في آفاق المنطق. فالفلسطينيون « ثوار » وللثوار اهداف ، وهدف الفلسطينيين هو مزاولة العمل الفدائي . والثورات ، دوماً ، خروج على النظام . والسلطة في لبنان لم تفرض نفسها وتضع الاشياء في موضعها وتلتزم، فحسب، بما يلتزم به العرب في خطّ المواجهة وفي كلّ مكان . واذا كان صحيحاً ان الفلسطينيين يشترون الأراضي في جنوب لبنان فانهم يخططون للقاء بعيد . والتحليل يقودنا الى انّ السنة ان كانوا هدف مخطّط فهم ، ايضاً ، اصحاب مخطّط يرمي الى الاحاطة بالكيان العبري تصفيـة لحساب يعود ، معاً ، الى النكبة والى آثار النكبة . والنكبة من ظلامات التاريخ .

*

لبنان تحيط به الاطماع من كل جانب ، وقد يكون لسوريا فيهـا نصيب . ولكن « مطامع السوريين » ليست قائمة على مدى قريب ، فالوحدة العربية من مبادىء « البعث » ، والتحقيق في ظل المعطيـات القائمة ، بعيد . وما يبغيه السوريون ، اليوم ، هو دفع التقسيم واحاطة

الدولة العبرية بحزام واق . والحزام ، في تفكيرهم ، تلح عليه اوضاع المنطقة ، فالصهيونيون في الجولان ، والجنوب مفتوح امامهم ، وسوريا تحاول دفع الخطر وجرّ لبنان الى « سياسة الاحلاف » . والخطر يشدها الى المقاومة ، فالهدف واحد والواقع واحد ، ولبنان يعاني من تدهور الاوضاع .

عثرات العرب على ارض لبنان قاسينا ونقاسي منها . ومن اوجعه المدفع لا يصانع احداً . والمدفع اوجعنا وحوّل بيوتنا ركاماً . ولكنّها الامانة . والامانة ترى لسوريا دوراً ثابتاً في قضايا العرب فهي « قلب العروبة النابض » ، تجسد « كبرياء العرب وأنفة العرب » . وبعضهم غرّته الاحاديث وقرأ نبوءة مدسوسة هـي « نبوءة وحيد العين » (١) وآمن ، فعلاً ، بأن بعض السوريين يعبّـد الطريق امام الصهيونيين وصحا ، من بعد ، على واقع لا خرافة فيه .

الفراغ والحيرة

الحرب خلّفت آثاراً ولم تحقّق اهدافاً . وكأنّها قامت لتثبت استحالة التعايش بين اللبنانيين . « ومنجزات » الحرب ، اذا ساغ التعبير ، آثار حرب . ومن آثارها ، ايضاً ، القلق والحيرة . وأثر الشعور بأنّ الحياة فراغ . فمن عقد الآمال وغرّته الاحلام وبغى وضعاً انحسر الى آفاق

---

(١) نبوءة وحيد العين حدث عنها الشيخ عبد الرحمن خ . في نشرة مؤرخـة في سنة ١٣٨٨ هـ ونسبها الى « كتاب الاسوس » (ص ٢١٣) وقال ان بعض المعتقدات يرى « ان الاعور وحيد العين يحتجب ثم يظهر في الجنوب ويحتل دمشق ويتجه نحو الشمال ليؤدي الطاعة الى وارد الوقت وحيد العين . » وتضيف النشرة ان اللقاء بين الاعورين يسفر عن اقامة دولة مستقلة في بلاد العلويين .

المجهول . وكأنه في الحياة وخارج عنها . وهو ينظر الى الغد ويلقـى ظلاماً . فالأماني تنهار والحساب أخطأ . وما يسود هـو رهبة الحاضر واعتقاد بان المستقبل سراب على سراب . فالحياة ليست ، فحسب ، أكلاً وشراباً ورقوداً بل أفق باسم وخيال ينتقل بك وبذرّيتك الى أجواء وأجواء . وما فقدناه قد تبخل به على ذرّيتنا الاقدار . وما فقدناه خلّفته الحرب .

الواقع الصهيوني

اليهودية والصهيونية

الحديث عن الصهيونية ، والتحذير منها لا يحملان لليهـود بذور العداوة . فاليهودي، في نظرنا ، ليس عدوّاً بوصفه يهودياً. واليهودي، بجده ونشاطه ، قد يثير الاعجاب . ومن نحذر ونأبى هـو اليهودي الصهيوني . واليهودي الصهيوني يتوق الى بسط نفوذه علينا اجلاء لنا، رضاء ام قسراً ، عن رحاب يقيم عليها ، من بعد ، دولته بين الفرات والنيل . وفي يقيننا ان التمييز بين الصهيونية واليهودية لا يغفـل امر الصراعات المزمنة التي قامت – باعتراف العهد القديم – بين اصحاب البلاد الشرعيين والدخلاء عليها من العبرانيين . والتمييز يضع في كفة الميزان خلافات العبرانيين وفراعنة مصر . فما يحدث ، اليوم ، حدث من قبل . واذا كانت الدول – والتعبير لغلادستون احد رؤساء الوزارة في بريطانيا السابقين – لا تعرف عداوات دائمة وصداقات دائمة فالقول ليس مبدأ يسوغ فيه الاطلاق ، فالصهيونية تحمل بذور العداوة الدائمة وتقود الى التأكيد على ان في التاريخ ، حقاً ، معطيات ثابتة تفرض نفسها على غير جدال .

نؤثر ، اذن ، معاداة الصهيونيين على معاداة اليهود . واليهود ليسوا، جميعهم ، صهيونيين ، فمنهم من هالته المأساة الفلسطينية ووقف الى جانب العرب . ومنهم من كان صهيونياً وعاد فامتنع . والانباء تشير الى تحسّس الظلامة من جانب يهود كثر يشكّل اهل الفكر فيهم نسبة عالية . ومنهم من يرفض السيادة الزمنية ويحيا حياة تقشّف ويكبّ على كتب الدين (١) . ومنهم ، عـلى غرار الحاخام لافين ، من هاجم الصهيونية . ولافين ، في مؤلفين قيمين (٢) اسدى الى القضية الفلسطينية ما لم يسده عربي وافسح لنا ، مثلاً ، في المجال للدفاع عنها على صفحات مجلته (٣) . واية نظرة ينظرهـا الى العرب المستشار النمساوي برونو كرايسكي والحاخام المر برجر والعالم رودنسون – وسواهم عديد – لو ناصبهم العرب العداء بوصفهم يهوداً ساعة ناصروا العرب في نكبة فلسطين ؟

الحقائق والوهم

من تكتب عليه العداوة وينبري لعدو له ، اولاً ، ان يعرف من عدوه بواطن الضعف والقوة . وهو ان احجم او سار على غير هدى مضى من كبوة الى كبوة.ولا بد من الرؤية السليمة ولا بد من مواجهةالواقع من منظار الواقع . فالصهيونية جبهة ، في ذاتها ، قائمة في فلسطين المحتلة وفي اميركا وفي كل بلد اوروبي ، والعالم يعرف كفاءتها ونشاطها. ولعل

---

(١) طائفة « الناتوره كارتا » .

(٢) EMMANUEL LEVYNE, *Judaïsme Contre Sionisme*, Edit. Cujas, Paris, 1969. *Les exigences de la foi juive face au Sionisme.*

(٣) TSEDEK, *Dossiers Mensuels*, Nanterre, France, N°. 110-111, Avril - Mai 1971.

فريقاً من العرب ، وحده ، غافل عنها . وهي تساندهـــا اعداد وافرة من اليهود تسيطر ، في العالم الغربي خاصة ، عـــلى قطاعات لا يستهان بها في حقول الاقتصاد والتجارة والمال والسياسة والاعلام وتجلي في العلوم والمهن وفي بعض الفنون ايضاً . ويخطىء من يخال ان اليهود لا نفوذ لهم في المعسكر الاشتراكي ، فلليهود فيه اكثر من حليف . وان اعوزهم الحليف اوجدوا الحليف ، فالوسائل والاساليب هي طوع اليدين ، وجميعها يقرع الابواب ويذلل الصعاب .

لو جاز لنا ان نبدي رأياً في اليهود بوصفهم يهوداً لقلنا انهم لا يعرفون انصاف الحلول ، فهم اما مضطهَدون واما مضطهِدون ، والحسن لديهم هو مغالاة في الحسن او انتفاء حسن . ومن بغض اليهود ، شرقاً وغرباً ، حسب لهم الحساب واتقاهم — ولا نقول اتقى شرهم — ومدّ اليهم الجسور ، فهم يحركون الرأي العام ويبرزون من الامور ما يطيب لهم فبعضهم يقلب الحقائق عمداً ويبدو ضحية « اخطاء » العالم عـــلى الدوام . واذا قاومه تيار رفع شعار اللاسامية وذكّر بالمذابـــح والاضطهاد (١) واحرج الدول وكمّ الافواه فيتلمس النـــاس مخرجاً ويجدون المخرج سعياً الى مساعدة اليهود في « ارض اسرائيل » ولـــو قامت المساعدة على المظالم والاشلاء . وما نقوله ان الصهيونيين تعوزهم النظرة الى الواقع من منظار سليم . فهم يستعجلون الخطوات ويخططون للعلاقات ويخالون ان العرب نسوا سلب فلسطين ومذبحـــة دير ياسين

(١) عرض اليهود ولا يزالون في بعض عواصم اوروبا شريط «المحرقة L'Holocauste » واعادوا الى الاذهان ما عانوه على عهد هتلر من مجازر وويلات . والعرض شوه الحقائق وابرز اليهود ضحايا النازية الوحيدين واوهم او حاول ان يوهم الرأي العام ان معسكرات الاعتقال النازية ضمت ، فحسب ، اعداد اليهود في حين ان التاريخ يثبت ان المضطهدين كانوا من الالمان والغجر والبولونيين والروس وكانوا من اليهود .

والقتل الجماعي وازالة المعالم وقصف المخيّمات وظلامة التهجير . وما اقترفوه لا نحدّده بقول عابر . والعاقل لا يتخيّل افرادهم — او جماعاتهم — يتجوّلون وكأنّ حدثاً لم يحدث في اسواق دمشق ، مثلاً ، او في اسواق بغداد .

الصهيونية لا تجابه بروح اللامبالاة بل تجابه بالتخطيط والحذق والاعلام النشيط والحداثة والانفتاح . ولا اعلام للعرب في الغرب ولا انفتاح عليه . والصورة التي تبرز عنهم توحي بأن بعض العرب ليس جديراً بعطاء الطبيعة ، مواقع ومساحات وثراء .

سياسة النعامة لا تجدي فتيلاً وادراك الحقائق خير من جهلهـــا . والصهيونيون لو نعموا بالثروات العربية وباعداد العرب الوفيرة ومساحاتهم الشاسعة ومواقعها الرابطة بين القارات والمشرفة على البحار لكانوا في العالم قوته الكبرى . وما يثير ان العرب يستهين بعضهم بقوة الصهيونية ويصرّح ، اذا نبه الى الخطر المحدق ، ان لبلاده « رجالاً يدافعون عنها » وثروات تحول بين المكروه وبينها . وما ينفقه الكلام ، حقاً ، تفقده قوة الساعد . والساعد في غياب .

ما نسوقه اطلالة على الواقع لا دعوة الى الاستسلام ، فالصهيوني انّى يكن مداه ليس من فصيل الآلهة.وهو ليس انساناً فوق الانسان(١). وقوته وان كانت قائمة فهي تنطلق ، اولاً ، من «الضعف العربي» ، فلا خلاص بعيداً عن التطوّر ، والتطوّر ارادة ، وارادة الخلاص سبيلها معروف .

الحلم والوعود

الحلم الصهيوني انطلق من عوامل افضنا في ذكرها ، مراراً ، ولا

(١) Surhomme

حاجة الى الترداد . والترداد ، ان جاز ، جاز في خيط عام ، فالعالم اراد حلاً للمشكلة اليهودية على حساب الفلسطينيين وآثر في العهد القديم حرفية النص وآثر لنفسه ، عن طريق الصهيونية ، نقطة رقابة تطل على الثروات العربية وتفصل المشرق عن المغرب العربي .

الصهيونية لقيت تشجيعاً ، بعيد وعد بلفور ، من العرب انفسهم . فاتفاقية الشريف فيصل بن الحسين مع حاييم وايزمان ، الرائد الصهيوني ، في ٣ كانون الثاني ١٩١٩، صبّت النار على الرماد . فالهاشميون وثقوا بوعود بريطانيا التي املّتهم باستقلال ناجز وبتوحيد العرب تحت لوائهم العائلي . وهم ارادوا مقابلة « الجميل بالجميل » فنزلوا عند وعد بلفور وشجعوا الوطن القومي اليهودي وربطوا قبولهم به بالاستقلال العربي وبتحقيق العهود المقطوعة لشريف مكة الحسين بن علي (١) . والعهود تناساها البريطانيون . والقبول يسقط بسقوط العهود. وهو ما لا يصدر عن صاحب الحق المباشر لا ينتج مفعولاً ولا يلزم صاحب الحق .

*

على ان بريطانيا برّت بوعد بلفور وان وعدت بما لا حق لها فيه . وبعضهم يجود بما لا يملك . وتدفق اليهود على فلسطين وتنبه العرب لأبعاد الخطر الصهيوني . وهم ، خلافاً لما يروّجه العديدون ، لم يبيعوا ارضهم من الصهيونيين.وما بيع قبل وعد بلفور وحتى قيام الدولة العبرية سنة ١٩٤٨ هو قلة على قلة (٢) . والبريطانيون ، ابان رحيلهم عن

(١) *The Faisal - Weizmam Agreement, dated 3 January 1919, Quoted by* GEORGE ANTONIUS, *The Arab Awakening*, Capricorn Books Edition, 1965, Newyork, Sixth Impression, pp. 347 sq.

(٢) ثلاثة بالماية .

فلسطين ، « منحوا » الصهيونيين املاك الدولة (١) ، ونسبتها توازي ، تماماً ، ما كان يملكه الصهيونيون . وظلت اكثرية الاراضي الساحقة اراضي عربية استولى عليها الصهيونيون ، عنوة ، من بعد ، غير مفرقين بين مسلم ومسيحي . فما سلبوه من المسلمين سلبوا مثيله من المسيحيين . وهم ، على سبيل المثال ، احتلوا قريتي « كفربرعم واكرت » المسيحيتين وطردوا منها الاهلين ولم يخلوا الاراضي ولم يرجعوا الاهلين (٢) . واصوات الاستغاثةظلت اصوات استغاثة . وبالنداءات لم يبخل الناس .

مخاطر الصهيونية

الصهيونية تنسجم مع مبدأها القائل باحتلال الاراضي بين الفرات والنيل وبالاشراف على شبه الجزيرة العربية وفيها ، قديماً ، تمتع اليهود بمركز مرموق وسيطروا على يثرب والطائف ونشطوا في مكة . وفي الواقع تحدثنا في احدى دراساتنا السابقة (٣) .

من اغترّ بالزيف خال الدولة اليهودية المزعومة قائمة على حق الهي وتصور انها، فعلاً ، قامت في الماضي البعيد وان اليهود هم شعب مختار بمفهوم الاختيار المادي . والصهيونيون ان حدّثوا عن « ارض الميعاد » حدّثوا — خداعاً وبلهجة الواثق — عن « حقهم الالهي » من الازل الى

(١) Biens Dominiaux.

(٢) كفربرعم قرية مارونية واكرت قرية ارثوذكسية احتلهما الصهيونيون سنة ١٩٤٨ ولا يزالون ووزعوا ارضهما على المستعمرات الصهيونية المجاورة وتجاهلوا قرار « محكمة العدل العليا » العبرية القاضي باعادتهما الى اصحابهما الشرعيين .

(٣) — فلسطين والخطر المصيري ، ص ١٦٢ وما يليها .

الابد . وان قبل بعضهم « التخلي » عن جزء منها اعلوا ضجيجاً تنطلي حيلته على السذّج من قراء العهد القديم ومعتمدي نصّه الحرفي. والسذج يثيرهم ان يتمسك صاحب الحق بحقه وان ينازع فيه « شعب الله المختار » . اما اليهود فيعرفون ، في غالبيتهم ، « ان عهد الله لابراهيم خرافة » وان « دولة اسرائيل » لا تقوم عليه (١) . وما شجع خطوات الصهيونية هو الماهما ، اولاً ، بالواقع العربي .

من يشأ يدرك ان اليهود دخلاء على فلسطين وان دولتهم لم تضمّ ، يوماً ، الارض بين الفرات والنيل ، فاليهود او العبرانيون وفدوا الى فلسطين مع ابراهيم «الخليل» من بلاد ما بين النهرين ، ودولتهم دامت فترات متقطعة لم تزد عن عشرات السنين ، في بقعة ضيقة سباهم منها ملوك اشور وبابل وسباهم فراعنة مصر وناثرهم منها الامبراطوران الرومانيان طيطس وادريانوس ، من بعد ، في انحاء المعمورة سنتي ٧٠ و١٣٥ . و«الوعد» ، وهو من فعل « يهوه » اله اليهود، دفعته المسيحية وقالت ان العهود المقطوعة لبني اسرائيل تحققت بمجيء المسيح .

*

ما يهمنا هو المدّ الصهيوني وانعكاساته على الواقع اللبنـــاني والواقع العربي . فأما المدّ الصهيوني وامّا المدّ العربي ، فوجود فريق يفرض زوال فريق ، ولا سبيل الى اللقاء . وفلسطين محطة اولى من محطـــات كثيرة . والبدء بها بدء الانطلاق الى كل رحاب . ولولا الصهيونية لما عصفت الانواء بأقليات الشرق . فالأشوريون حاولوا الانفصال واخفقوا . وللاكراد انتفاضات . والاكراد وفد بعضهم الى الدولة العبرية واتصل ، في العالم ، بمراجع ومقامات وشدد ، عبثاً ، عـــلى

(١) KOESTLER, Op. Cit. pp. 223 sq.

ضرورة المساواة بين الصهيونيين والاكراد . وهـــم يسعون الى وطن يجمع شملهم على امتداد وجودهم في الاتحاد السوفياتي وايران وتركيا وسوريا والعراق . والاشوريون ، على غرارهم ، من صميم البلاد .

النزاع مع الصهيونية ، مجرداً من عبارات التنميق ، يدور اذن ، حول رفض الكيان العبري او حول القبول به . وللرفض آثار وللقبول ذيول . والرفض واجب ، ولا مكان لجسم دخيل خطورته ماثلة امام الاعين ان كانت ثمة اعين . واذا كان الواقع الصليبي ، في ذاته مثلاً ، انحصر في غايته ومداه وشخص الى الاراضي المقدسة تحريراً للحرمات المسيحية وانطلق ، احيـــاناً ، من منفعة الذات لا من اجلاء الاهلين والتخطيط للسيطرة على العالم العربي — فالصهيونية امرها معروف ، والتاريخ المعاصر لا يشير الى نَهم شبيه بنهمها الفريد .

الصهيونيون لا يبطنون مطامعهم في « ارض الميعاد » . ولئن فعلوا فالى حين . فالدولة العبرية مرحلة على درب الحلم الصهيوني . وجميعنا، والحالة هذه ، معنيّ بالصراع ، فريق فيه . ومن خال ان الصهيونيين يسلمونه وينبرون لسواه هو على ضلال ، فالصهيونيون احتلوا الاراضي عام ١٩٦٧ ولم يجلوا عنها وارادوا خداع الناس بالاستقلال الذاتـــي « ليهودا والسامرة » ورفضوا اعادتهما الى اصحابهما الشرعيين . ومن يسمعهم يتكلمون يخل كلامهم الصواب عينه . وهم يخططون للاستيلاء على لبنان مياهاً وارضاً . ولو شاؤوا تخلياً عن مطامعهم فيه لما استطاعوا، فبطاح الجليل ظمأى ، والمياه ان لم يوفرها الليطاني فلا سبيل الى بناء المستعمرات واستصلاح الاراضي وايواء اعداد المهاجرين . والى المطامع في مياه الليطاني لفتت كتابات ودراسات . وما جاء فيها جهله اللبنانيون او تغافلوا عنه .

لبنان والعهد القديم

لبنان ، كما يقول العهد القديم ، داخل في « تخوم ارض الميعاد » . والتوراة واسفار اخرى ، في نصوص عديدة ، تشمله وتعنيه(١) . واللبناني الذي اقلقه الوجود الفلسطيني حريّ ، اولاً ، بأن يتنبه الى الخطر الصهيوني . واذا كان الوجود الفلسطيني محدوداً في زمنه فالصهيونية ان استولت على لبنان فلن ترحل عنه . واذا كان الفلسطيني اتى لبنان مشرداً فالصهيوني فيه — تقول الصهيونية — ذو حق اصيل . والتهجير يخطط له الصهيوني. وكل عطف، اليوم ، من الصهيونية على لبنان ينقلب ، من بعد ، على اللبنانيين ، فالعطف خداع وداخل في نطاق المصالح . واللبنانيون ان انطلت عليهم الحيلة زمناً فهي لن تجوز فيهم الى زمن بعيد .

ما نسوقه يبعد عن هوى النفس . وما تهواه الانفس ليس ، غالباً ، في تحليل المنطق. «والمعرفة» ان جاؤونا بنقيضها تخلّينا عنها. وما نضعه

---

(١) — التكوين ١٥ — ١٨ .
— العدد ٣٤ — ٣ الى ١٢
— التثنية ١ — ٧ و٨
٣ — ٢٥
١١ — ٢٤ « كل موضع تطأه أخامص أقدامكم يكون لكم من البرية ولبنان من النهر نهر الفرات الى البحر الاقصى يكون تخومكم » .
بعض الأسفار في العهد العتيق يشير ، الى جانب التوراة ايضاً ، الى لبنان — يشوع ١٣ — ٥ و٦ :
« وارض الجبليين وجميع لبنان جهة مشرق الشمس من بعل حاد تحت حرمون الى مدخل حماة. كل سكان الجبل من لبنان الى مسرفوت... سأطردهم من وجه بني اسرائيل وانت تقسمها بالقرعة لاسرائيل ميراثاً كما أمرتك » . الخ الخ ...

امام العين سلامة لبنان . والسلامة ليست تغاضياً عن الواقع . والخطر ان حقّق غايته عصف بكيان لبنان .

الصهيونية والعرب

ما يصحّ في لبنان يصح في اكثر من قطر عربي . والدليل ينبثق عن المنطق ، فالصهيونية تودّ جرف اعداد وافرة من اليهود الى فلسطين ، وفلسطين بقعة ضيقة صخرية رملية . ولو ساغ للصهيونية ان تبرم معاهدة الصلح مع مصر وتتعامل معها لتفتحت امامها آفاق اوسع قدر لنا ان نفرد لها مقاماً في دراستنا حول « فلسطين والخطر المصيري » وفي مقالات تناولنا فيها الموضوع نفسه ، فالنقب ، على غرار الجليل ، بحاجة الى مياه الري ، ومياه الاردن(١) تسد من حاجاته الشيء القليل ، وما يعيد الحياة الى النقب هي مياه النيل واليها، الآن، تتجه الانظار وعليها تنعقد آمال الصهيونيين . ومن ذكر تصريحات مسؤوليهم الاخيرة ازداد يقيناً على يقين . وثمة مسؤول اشار علناً الى مياه النيل ، ارواء للنقب ، في نطاق التعاون مع المصريين (٢) .

المصريون ، اذن ، يوافرون في هذا الميدان ان ارادوا ، مقومات الحياة للكيان العبري . وهم يوافرونها ، ايضاً ، في مجالات اخرى نلحظ امرها من بعد . ولو قدمت افواج اليهود الكثيفة الى فلسطين واستعمرت

---

(١) الاردن ينبع في الجولان، في بانياس، قيصرية فيليبوس «Césarée de Philippe» التي يذكرها الانجيل لا في لبنان كما يقول كمال الصليبي في كتابه :
Cross road to Civil War, Lebanon 1958-1976, Edit. Caravan, p. 24.
أما الحاصباني والوزاني فهما من روافد الأردن وينبعان في لبنان .

(٢) Le Monde, 16 Octobre 1978.

النقب لكان بدهياً ان يتفجر الصهيونيون، في مرحلة لاحقة، الى شبه جزيرة سيناء ووادي النيل والاردن وسوريا ولبنان والعراق ، والى كل مكان ترمقه عينهم الطامعة . والحلم ان تحقق ووصلت اعداد اليهود ، في فلسطين ، الى بضعة ملايين قاد الصهيونيين الى الحجاز ومشارف مكة لينطلقوا ، في وثبة جديدة ولدافع جديد ، الى نجد وسائر انحاء الجزيرة ويشارفوا المحيط الهندي ويتوجهوا الى افريقيا الشمالية سيطرة منهم على مرافق الحياة في العالم العربي . وعلى تحقيق الحلم تساعد غشاوة علــى الاعين . والتاريخ حافل بذكر المآسي نتيجة سوء الذهنية ، فهنيبعل ، النابغة الحربي العظيم ، انثنى عن ابواب روما وهلك جيشه لتقاعس قرطاجة : اذا طلب مالا والحّ فيه جلس حكام قرطاجة الى مقاعدهم ووازنوا بين انتصار هنيبعل ونفقات الحملة وخالوا الدنيا مادة فتركوه وشأنه ، فانهار وانهارت قرطاجة من بعد .

الصهيونية ونشاطات اللبنانيين

مطامع الصهيونية لا تنحصر في الارض . وهي وان تاقت الى احتلال الارض العربية تهدف ، ايضاً ، الى الاستئثار بنشاطات كانت الى اليوم او كادت وقفاً على اللبنانيين . فاللبنانيون يقومون في العالم العربي ولحساب العرب باعمال واسعة . والعديد منهم اثرى وعاد الى لبنان ، وبعضهم، في لبنان ، يشتري لهم ويبيع . فاللبناني وسيط ، منفتح على المهن الحرة، ذو خبرة في الاقتصاد تجعله يفيد ويفيد . ولو ساغ للكيان العبري ان يظفر باعتراف العرب لتغلغل الصهيونيون في البلاد العربية . واليهودي في التجارة سيّد ، وفي ميدان الكفاءات العلمية والمهنية عامل فعّال ، ان تسلم مهاماً جلى فيها علــى تكاتف يربط بين بنيه ، وفي التكاتف

يرسب اللبنانيون . ولا نخال ان السياحة تغرب عن الصهيونيين ، فهم، اليوم ، يخططون لها مع مصر وينظمون العلاقات ويحددون الارباح . واللبناني ان لم يعوزه النشاط تعــوزه الامكانات ويفتقر الى التخطيط ويفتقر ، احياناً ، الى الجد . وهو ولوع بالربح السريع ، وان خالف النظم واكتسب العداوات . ولا نرى ان اللبناني يحتل في اقتصاد العالم وابواب الاعلام ما يبدو حكراً على اليهود ، فلا بد ، والحالة هذه ، من الاحتكاك في محاولة من الصهيونيين للحلــول مكان اللبنانيين . واللبنانيون اذا كانوا يرعوون عن شيء فالصهيونيون يحللون جميــع الاشياء ، ففيهم لا تفعل وخزات الابر ، والمال هو المال ، وفي سبيل المال تهون ، عندهم ، الاشياء .

صحيح ان « الدم الفينيقي » يجري في عروق بعض اللبنانيين وان « مامون » اله المال الذي رذله المسيح (١) كان الهاً فينيقياً . وصحيح ان بعض المدن على الشاطىء اللبناني كان « تاجر الشعوب في جزائر كثيرة »(٢). ولكن من الصحيح ، ايضاً ، ان عبــادة المال تستهوي العديدين لبنانيين وغير لبنانيين . والدنيا ، في نظرنا ، ليست سلعاً ومالاً. ولئن توقفنا عنده توقفنا مكرهين . وما نسعى اليه هو التشديد على مخاطر الصهيونية على اللبنانيين . وما يخشاه بعضهم من مدّ العرب له اكثر من علاج . والخطر الماثل امام العين هو ، كما قلنا ، الخطر الصهيوني .

الطاقات العربية

الصهيونية تطمح الى ملء فراغ مهمّ . فالعرب يملكون المــوارد

(١) — « لا تعبدوا ربين الله والمال » متى ٦ — ٢٣ .
(٢) حزقيال ٢٧ — ٣

والطاقات ، وتربتهم معطاء ، ومساحاتهم تمتد من المحيط الى المحيط . وهم لا يصنّعون بل يستوردون المنتوجات مصنعة . ولو شاؤوا لكانوا بغنى عن العالم وادخروا اموالهم وساروا الى العالم بمنتجات العصر . ومنهم من يفتقر ، احيـاناً ، الى الحداثة . والحداثة هي في متناول الصهيونيين .

الفراغ العربي تملأه الصهيونية بنشاطها الفذ . ولو آلت اليها خيرات العرب لعاش الصهيونيون من خيرات العرب وجعلوا من فلسطين ومن كل قطر عربي مركز تصنيع . فالخطر محدق وثمة من يلهو ويستسلم . والاستسلام هو من القدر على تحوير ، احياناً ، في مفهوم القدر . فالقدر ان عاد الى عوامل تخرج عن طاقة الانسان ، فهو ، ايضاً ، يرجع الى ضعفه . والارادة تلاشي الضعف . ومن شاء الحياة ظفر بالحياة (١).

الصهيونية بؤرة شقاق . والغرب ، على آماد ، رأى ، خطأ ام صواباً ، في اليهود عامل تفرقة. ومن الطبيعي الا ترتدي الصهيونية الرداء المخالف. ولو فعلت لأضرت بنفسها ، فهي قامت على الخداع وعـلى اشلاء الفلسطينيين ، وقد تتوسع على اشلاء لبنان وعلى اشلاء البلاد العربية . ونجاحها رهن – وان الى حدّ – ببذر بذور الفتنة في لبنان وفي خارج لبنان لتشغل العرب عن التصدي لها وتنفرد بهم فريقاً اثر فريق . ومن ادرك ابعادها عيب ، احياناً ، في وفائه كأن الوفاء للتربة يمر بالوفاء لها . وكثر يرون ان الوفاء للبنان اعراض عنها ما لم يصبح الوفاء غدراً (٢).

---

(١) «اذا الشعب يوماً اراد الحياة فلا بد ان يستجيب القدر»يقول ابو القاسم الشابي عن صواب .

(٢) « الغدر بأهل الغدر وفاء عند الله » يرى الامام علي .

وما ربحه بعضنا ، امس ، من الصليبيين يكسبه ، اليوم ، من الغزوة الصهيونية ، فالصهيونيون – انى يكونوا – هم الصهيونيون .والصهيونيون جسم غريب وطموح ، والجسم الغريب يلفظ ولا يركن اليه .

الرفض العربي

تقويم الاوضاع والابقاء من الصهيونية على الموقف الرافض واجبان بدهيان . والواجب تطرف في معجم معين . والتسليم باغتصاب الحقوق هو فيه « اعتدال حميد » . وبدهي ان استمرار الجسم الدخيل في العالم العربي مرتبط بارادة العرب ، فالعرب ان صالحوا الغزاة اعطوا الغزاة مقومات الحياة . وهم ان احكموا حولهم الحصار وابقوهم في عزلة دفعوهم الى القنوط واثاروا عندهم العقد وحملوهم عـلى استجداء المعونات . والمعونات ان وافرتها الدول وسخت بها اليهودية العالمية فلن يُسخى بها ويتوافر امرها الى الابد . ومن تمادى في الطلب لقي الاعراض ولا يلقى القبول (١) .

الرفض العربي تقابله الدولة العبرية باللامبـالاة ظاهراً وتزعم ان المخاطر تحف بها في حالة السلم ولا تحف بها في حالتي الرفض والحرب. والعرب لو استسلموا لخداع الصهيونية لوقعـوا في اللجة . وبعضهم – غير هياب – يسعى الى اللجة ، فالدعاية تفعل فيه فعلها فيخال ان الدولة العبرية ، حقاً ، يتهددها السلام . والصهيونيون هرع اعلامهم الى التشديد على « واقعه المقلق » . ومنهم من وضع فيه دراسة هي فريدة في الدهاء (٢) .

---

(١) « سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتـم ومن أكثر التسآل يوماً سيحرم » يقول زهير بن أبي سلمى في معلقته .

(٢) Israël en danger de paix.

الصهيونيون ان لم يصالحهم العرب وينفتحوا على خيرات العرب زائلون ، حتماً ، عن ارض العرب . والزمن قد يطول وقد يقصر . الا ان النهاية من بدهيات المنطق . وفي يقيننا ان مقاومة الاحتلال امرها واجب وان الرفض سلاح ناجز وان حمل ، على المدى القريب ، الشقاء واضطراب الاوضاع . ولكن حياة الامم لا تقاس وحياة الافراد بمقياس واحد . واذا انتفى الخيار كان لها ان تحمل قدرها وترضى بالتضحية . ولا وفاق بين اصحاب الحق ومن يغتصب الارض ويشرد الاهلين .

الكيان العبري يتهدده ، ايضاً ، في فلسطين المحتلة مدى التناسل العربي ، فالدم الذي توافره له الهجرة غارق في التناسل الفلسطيني . والهجرة اليهودية من فلسطين المحتلة ، في ذاتها ، تقلق الصهيونيين ، واعداد الوافدين تضنيها اعداد الخارجين . والوجـود العربي رهن الى حد ، بالتناسل العربي ، واذا كانت الوفرة في تناسل المصريين عالة على المصريين ، فوفرة التناسل العربي ، في فلسطين المحتلة ، خير على العرب وليست وبالا . فالصهيونيين ، من بعد ، ان يواجهوا المخاطر من خارج الارض المحتلة ومن داخل فلسطين . والزمن كفيل، انطلاقاً من « وخزات » المخاطر ومن ملل العالم والرفض العربي بدفع الهجمة الصهيونية . والهجمة ظاهرة ، وهي ان قامت ، قامت الى حين. والهجمة اندفاع شديد ، والاندفاع ينحسر ولا يدوم على حال لا دوام فيه .

الامر الواقع لا يشكل حقاً ما لم يقترن بتسليم صاحب الحق بالتخلي عن حقه. والرأي المخالف ينتقل ـ دون انقطاع ـ بالمجتمع من حال الى حال. فالتسليم بالواقع الصهيوني يستتبعه ، مقابلة ، بقاء الفلسطينيين ، مثلا ، على ارض لبنان . والمنطق يرفض التجزئة . والشعوب تعرف النكسات .

والنكسات لو أمست خضوعاً واضمحلالا لخرجت على سنن الحياة . فالحياة مد وجزر . وهي ليست جزراً فحسب .

زوال الدولة العبرية ، في ظل المعطيات الراهنة ، يصعب عن طريق السلاح . ولكن الرفض العربي ان بقي قائماً يحول دون الهجرة الى فلسطين ويثني عن تحقيق الحلم الصهيوني . واما ان يذوب الصهيونيون في اطار عربي ، واما ان يرحلوا . والامران كلاهما وارد . والرحيل يعجّل فيه استقرار اوضاع اليهود في الغرب بعيداً عـن بذور الاضطهاد . واليهود ، ايضاً ، لا يعيش مجتمعهم على مجتمع يهودي . ولا بد لهم ، ان ارادوا الحياة ، من ان يتفاعلوا في افق غريب ، فاليهودي يجني ثمار الربح من غير اليهودي ولا يجنيها من اليهودي . وهو ان سعى الى الربح من ابناء دينه او عرقه يعجز ، فالتفكير واحد والمعطيات واحدة والنشاط ، اذا شئنا ، واحد . والاختلاف ان قام فهو لا يقوم على اقتسام الاسلاب .

*

لا نرى الحكمة من احجام العرب عن التذكير المطلق بحق الفلسطينيين في العودة الى فلسطين . ولا نرى الحكمة ، ايضاً ، من انثناء العرب عن الطعن ، بوسائل الاعلام العالمية ، بشرعية الوجـود الصهيوني . وكأنهم ينزلون عند مبدأ الخرافة او يخشون اثارة امرهـا ويجهلون ان المسيحية دفعتها عن تراثها الديني . وهم ان تكلموا وافقـوا ضمناً على وجود الدخيل . والدخيل ، في الامس ، كان يستجدي اعتراف العرب وبعضهم ، اليوم ، يستجدي عفوه . وخسارة حرب الايام الستة وان دفعت العرب ، عسكرياً ، الى الحضيض ابقت ، عندهم ، على الكرامة فلم يخنعوا . والرئيس السادات اذ « حقق منجزات النصر » في

حرب تشرين انحدر الى طلب الصلح . والانحدار الى استجداء الصلح يوطد عندنا الثقة بان النصر كان سراباً على سراب .

لبنان والصراع المصيري

لبنان ، بحكم واقعه وموقعه ، هو ، اذن ، فريق في الصراع المصيري . ولكل مجاله ودوره . وليس من الضروري ان يخوض لبنـــان العراك بالرجال والعتاد ولا ان يقوم بما لا طاقة له فيه ، فجراحه لم تندمل ، وهمومه تكفيه ، والمساعدة يحتاج اليها ولا يتوافر امرها . والناس على فراق . وما يمكنه ان يفعل هو البقاء في صفه الطبيعي خصماً على الصهيونية لا راضياً بها .

المجتمع الدولي يدرك ان في الشرق قضيتين ، القضية الصهيونية ومأساة الفلسطينيين . وهو ان نظر الى حرب لبنان ادخلها في نطاق القضية وفي نطاق المأساة ، ولا يفهم ان تنبري المقاومة الفلسطينية « للبنانيين » او ان ينبري لها « اللبنانيون » . وما يدركه ان لبنان جزء من العالم العربي وان الدول تخطب ودّ العرب وترجح ، احياناً ، بين الصهيونية والعالم العربي . ولكن الدول لن تشعل الحرب في سبيل الدولة العبريـــة ولن تشعلها ، خاصة ، من اجل لبنان . والدمار والتعاسة ان استوقفا الناس فترة ، فالفترة فترة يعود بعدها العالم الى نفسه ويشيح البصر عن المآسي وينصرف عن دفع المطامع ويترك الامور لاصحابها ويهتم بعيشه اليومي . والولايات المتحدة الاميركية ان شذت عن القاعدة فالى حين ، فالمواقف مراحل ، وتأثير الصهيونية على الاوساط الاميركية وعلى الشعب الاميركي ان عرف البدء ، فالنهاية فيه هي من سنن الحياة . والمواقف تتحول

وتتبدل . وما يدوم هما الواقعان ، الواقع العربي والواقع الصهيوني . والواقعان يتناقضان .

*

الايمان لا اكراه فيه ، في الدين وفي كل فكرة . والناس ان تعاموا عن الخطر المصيري وارشدتهم اليه احرار طلقاء . وبعضهم يراه سراباً . ولولا اليقين ان الصهيونية خطر على لبنان لسرنا في اتجاه آخر . ومن آثر الواقع توقف ، اولا ، عند الصهيونية المتحفزة لوثبة جديدة في اتجاه لبنان .

الواقع الصهيوني ، في ابعاده واخطاره ، يلزم بالاطلالة على الواقع البشري القائم في مواجهته . والواقع نتناوله ، على غير اسهاب ، في اطاره العربي وفي اطار لبناني ومصري .

الواقع المصري

مصر والعرب

مصر لم تكن في التاريخ « قلب العرب النابض » . وهي وان احتضنت ، احياناً ، قضايـــا العرب وشقت في سبيل العرب ليست عربية المنشأ . والعرب الاصيلون ، اساساً ، هم عرب شبه الجزيرة ومن حف من عرب شبه الجزيرة العربية باطراف سوريـــا والعراق . وعرب شبه الجزيرة ، على ما يتمتعون به من حسنات ، لم يوفوا ، دوماً ، لقضايا العرب . ومن تحسس بها ، اولا ، في التاريخ المعاصر هو الحسين بن علي شريف مكة . والتحسس انطلق عنده من مصلحة العائلة الهاشمية ومن صالح عربي وانطلق ، ايضاً ، من يقينه انه — وهو من سلالة النبي — اكثر الناس حقاً في خلافة النبي . والخلافة تولي صاحبها شأناً في شؤون المسلمين وتضويهم تحت لوائه . والحسين مضى من الخلافة في تعاونه مع الحلفاء . والبريطانيون قطعوا له العهود وتخلوا عنه من بعد .

مصر لم تنطو على نفسها . وهي ، يقول بعض الغربيين ، تقرب من الغرب على قدر وتنفصل عن سائر العرب تفكيراً وتقاليد (١) . والقول صحيح . فهي افريقية السمات وان تناست الامهرية ، لغتها القديمة ،

(١) *Corriere Della Sera*, 12 Ottobre, 1978.

وتكلمت ، اليوم ، لغة العرب . ولو صدق ما ينقله ابن عساكر عن النبي من ان « العربية هي اللسان » لقربت مصر من صفوف العرب . ولكن الوجه الافريقي ، عندها ، وجه غالب ، فأرضها — خارج شبه جزيرة سيناء — افريقية ودمهـــا افريقي وان مازجته دماء ، والمظهر افريقي ، وان غالبه البياض . وما يدنيها من العرب ، في نظرنا ، هو اولا ، اللغة والاسلام . والاسلام « شرحت » له صدرها بعيد الفتح وان ظلت المسيحية ، الى اليوم ، ديانة اعداد وافرة من المصريين .

اللغة والاسلام ان جعلا سوريا تبرز في العالم العربي اشد الناس وفاء للعرب وتصلبا في الحق العربي ، عجزا ويعجزان عن دفع المصريين الى موقف مشابه ، فالواقع الجغرافي والعوامل التاريخية وسبل الحياة اسس فعالة في حياة الامم ، فالنيل ربط مصراً الى افريقيا ، وواديه ، في ذاته ، اطار جامع . وما طواه النيل انطوت عليه مصر فهو شريانها الحيوي ولولاه « لما كانت ارضها ذهباً » . والتعبير هو لعمرو بن العاص فاتحها العربي .

عبد الناصر

على ان وادي النيل لم يخط ، منفرداً ، تاريخ مصر ، فتاريخ مصر القديم جزء من تاريخ الشرق ، وتاريخها الحديث قادها ، ايضاً ، الى كل حدب . وعليها تعاقب حكام كثر ينتمون الى اصل غريب . واول « مصري » تسلم الحكم فيها هو الرئيس جمال عبد الناصر ، وعبدالناصر اعقب فاروقاً ، ملك مصر ، في حكم المصريين . وهو تحسس كرامة العرب وكرامة مصر وفرض المهابة وحارب الفاقة والمرض والجهل — وامرها في مصر قديم قدم التاريخ ، عنه ، مثلا ، تحدث التوراة مشيرة الى «أدواء مصر الخبيثة(١)» — وافاد من الظروف وكسر احتكار

(١) التثنية ٧ — ١٥ .

الغرب ووازن ، في العلاقات ، بين الشرق والغرب ، فأفاد من الشرق والغرب وعبدته الجماهير في كل قطر عربي ، والفلسطينيون رأوا فيه السيف والدرع وأملوا ، بفعله ، العود القريب ورددوا — شاخصين اليه — وردد معهم ثمة عرب ما قاله الشاعر :

« بلغ سلامي وبالغ في الحديث له   وقبل الارض عني عندما تصل ! »

الا ان عبد الناصر ، في تاريخ مصر ، عارض والعارض فريد . فسماته ليست سمات مصرية عتيدة بل سمات تقرب من سمات العرب ، وشعوره كان شعوراً مصرياً وعربياً ، فآمن بدور مصر العربي وشاءها قوامة على شؤون العرب . والامر وان صعب ليس من المستحيلات ، فمصر اوفر « العرب » عدداً وموقعها يلاقي المشرق بالمغرب وصلاتها بالعرب حقيقة راهنة ، فابراهيم باشا المصري ، في التاريخ المعاصر ، دخل شبه الجزيرة العربية فاتحاً وقاد اليه جيوش المصريين . وهو وان انتمى ، اصلا ، الى عائلة غير مصرية ، عمل ووالده محمد علي لمصر الشيء الكثير فبرزت مصر ، بفضله ، عـلى مسرح الشرق الاوسط وهددت العثمانيين في عقر دارهم واشرفت ، من بعد ، على النهضة العربية في صحفها ودور النشر فيها — والصحف ودور النشر بدت ، في تأسيسها ، حكراً على مسيحيي لبنان — وانفتحت على الغرب ولم تتناس رسالتها وموقعها الافريقيين .

*

نحّى عبد الناصر فاروقاً عن عرش مصر . ومصر ، في ايام فاروق ، سارت اشواطاً في اتجاه عربي . وفاروق حفيد ابراهيم باشا المصري ، منّى نفسه بالخلافة بوحي من البريطانيين واستصدر « فتوى » تعود

بأصله الى سلالة النبي . والفتوى ، في حينه ، اثارت سخرية الناس ، والناس ، آنذاك ، حاولت عبثاً ان تجد قطرة دم تجمع ملك مصر الى الرسول العربي . والمهم ان فاروقاً مضى بمصر على طريق عربي شاءه البريطانيون « جامعة عربية » تشد الى عجلتهم الركب العربي . والحساب فسد والعرب ساروا في تيارهم الخاص . واولت مصر اهتمامها قضية فلسطين وخاضت الحرب لاجلها وعزل عبد الناصر في الفـالوجة واشتدت في صدره النقمة على الحاكمين وفعل فيه الغضب فعله وتملكته روح الثأر وانفة عمرت بها نفسه الكبيرة وابى لبلده الهزيمة على يد شراذم من الصهيونيين وهالته ، في الداخل ، اوضاع مصر فتحين الظروف واطاح بالنظام الملكي .

*

من الثابت ان مصراً ، قبل عبد الناصر الرئيس العربي الكبير ، آثر معظم رجالاتها التراث المصري على التراث العربي . وبعضهم رجع الى ماضيه البعيد واستعاد تاريخ الفراعنة وامجاد الفراعنة وانكمش على نفسه ورأى في العروبة عبئاً فأباه . والعرب ، في حينه ، خضعوا للوصايات. وينابيع النفط ، عندهم ، لم تتفجر على قدر وافر الا في تاريخ لاحق . وهم كانوا اشواكاً لا اشواكاً ووروداً . وحرب فلسطين خاضتها مصر وعانت منها . والناس تأبى التضحية في سبيل الآخرين . والمصريون لم يدركوا ابعاد الخطر الصهيوني بل اعجبوا بالصهيونيين ، كفاءات وتخطيطاً ونشاطاً . والذاكرة تعود الى موقف احد رؤساء الوزارة في مصر السابقين ، اسماعيل صدقي ، بعيد قيام الدولة العبرية ، فهو طالع الناس بتصريح استوقفتنا ، آنذاك ، احدى فقراته ودعا فيه الى مصالحة

الدولة العبرية وتساءل قائلا : « الى مَ نستمر في عدائنا لهذا الشعب المنتج الذكي النشيط ؟ » والتصريح لم يثر ضجة او يتعرض لنقــد ، فالمصريون لهم من متاعبهم ، داخل مصر ، الشيء الكثير ، فالفاقة والمرض والجهل تسيطر على الناس ، والنسل على اطراد ، والارض ان رواها النيل وكانت خصبة معطاء يروي بعضها النيل ولا يرويها كاملة ، ومشاريع التنمية مشاريع فحسب ، والحاجة ملحة في كل ميدان ، والدور العربي لمصر لم يكن قد برز بعد الى الوجود .

عبد الناصر والسادات

الدور العربي لمصر في افقه الرحب هو من فعل الرئيس عبد الناصر . والرئيس عبد الناصر انتهج سياسة على قدر نفسه الكبيرة لا على قدر الواقع المصري . والخطأ هــو في عدم التفريق بين كبر عبد الناصر والواقع المصري . ولو فرّق العرب لحذروا وعادوا بالامور الى نصابها العادل ولما القوا ، في قضية فلسطين ، بثقلهم على مصر . والقول لا يفيد ان مصراً غريبة عن فلسطين ، فحدودهــا ، في شبه جزيرة سيناء ، تحازي فلسطين المحتلة ، واطماع الصهيونية في النيل اطماع حياة او موت . ولكن مصراً ليست معنية ، قبل سواها او على غرار سواها ، بالصراع مع الكيان العبري . والمعنية هي سوريا ، ففلسطين ، جغرافياً وبشرياً وحضارياً وتاريخياً ، جزء منها . ولو ان سوريا — والى جانبها الاردن والمجموعة الحضارية المعروفة ، منذ فترة ، تحت تسمية « الهلال الخصيب » — مدت يدها الى الكيان العبري وتخلت عن دورها القومي لجاز القول ان حدثاً تاريخياً قد وقع فعلا وان الستار اسدل ، نهائياً ، على قضية فلسطين .

وافى الاجل الرئيس عبد الناصر وذهب شهيد القضية الفلسطينية ونزاعات العرب القبلية . وخلفه الرئيس انور السادات ، والسادات احب مصراً واراد الوفاء لمصر . ولكن النظرة لديه يعوزها الشمول ، ويعوزها التحسس العربي . وعقدة الرئيس الراحل تتحكم فيه . فما خاله عبد الناصر بياضاً رآه السادات سواداً ، والانفتاح العربي الذي بغاه عبد الناصر لم يبغه السادات ، والطموح الى الدور الكبير قلصه السادات الى تخوم مصر ، والتلفت الى الشرق قابله الوقوف على ابواب الغرب ، « وانتفاء السلام على الارض العربية » — على حد تعبير الرئيس الراحل — بعيداً عن حل مشرّف لقضية فلسطين وشعبها الطريد بغاه السادات سلاماً في وادي النيــل وفي ارجــاء سيناء ، « والمكاسب الاشتراكية » — وان لزمت ، احياناً ، اطار المبادىء — تنكر لهـــا السادات واعاد مصراً ، رويداً رويداً ، الى واقعها القديم ، وحسنات عبد الناصر بدت في عينه سيئات ، والصداقة مع المعسكر الاشتراكي اصبحت في ذمة التاريخ ، والسعي الى الغرب بات فضيلة مثلى وان آثر الغرب مصالح الكيان العبري عــلى كل صالح ، فعرّى رئيس مصر الجديد عبد الناصر من كل حسنة واتهمه بدفع مصر على طريق العزلة وعزل هو نفسه مصراً عن المعسكر الاشتراكي وعن العالم العربي وحرم مصراً من سلاحها وتناسى معونات البلاد الاشتراكية في السد العالي وفي حقــول التصنيع وطرد الخبراء الروس ووضع حل « مشكلة الشرق الاوسط » بين يدي الولايات المتحدة وجهل او تجاهل المبدأ القائل ان حسن السياسة هو ، اولا ، في الحفاظ على صداقة الصديق ، وانفرد في رأيه وموقفه وزاد الصف العربي احراجاً على احراج ومدّ يده الى الكيان العبري وجعله يبرز على ساحة الشرق الاوسط وكأنه صاحب

الكلمة فيه ، ورضي « منتصراً » بما عجز عن تحقيقه الصهيونيون من عبد الناصر منهزماً بعد حرب حزيران ١٩٦٧ .

اوضاع مصر

على ان العقد لا تفسر وحدها ، تصرف الرئيس المصري . ولو ان التصرف قام عليها ، فحسب ، لكان هو في واد والمصريون في واد . والمصريون خالف بعضهم الرئيس السادات وولاه معظمهم ، والولاء قد لا يعبّر عن آراء الناس ، وقد يعكس جهل الواقع . وكثيراً ما يفرض. وهو ، ايضاً ، آني . وثمة اصوات شجاعة ارتفعت في مصر وعارضت السادات ، والسادات يعتمد على نفسه وعلى حلفائه ويعوّل على صمت المصريين . والمصريون قد يكون الصبر مزيتهم المثلى . ومن « مزاياهم » موالاة الحاكم . والامر ليس حكراً على المصريين بل يتعداهم الى اكثر من شعب . « والشعوب القوية » ، وحدها ، تعارض « وتتنكر لعظمائها» على حد تعبير فلوطرخيس(١) . ومصر عرفت تحت « اسم فراعنتها وسادتها » ولم تعرف باسم شعب مصر .

من العدالة ان نقول ان المصريين سئموا اوضاعهم القائمة وانهم ان اولوا شؤونهم الخاصة اهتماماً كبيراً فحسناً يفعلون ، فالفقر على ازدياد والمرض امراض والاميون كثر والحاجيات يبحثون عنهـا ولا يظفرون بها . والرئيس المصري ادخل اوضاع بلاده في كفة الميزان وآثر معالجتها بجدّ واراد الرفاهية لشعبه وخال ان الامور لن تسير في

(١) — فلوطرخيس مؤرخ وحكيم اغريقي ولد بين سنتي ٤٥ — ٥٠ قبل الميلاد وتوفي حوالي سنة ٢٠ بعده .

اتجاه سليم ما دامت الحرب قائمة . « فاما السلم وكرامة العيش — والقول من تفكيره — واما حالة الحرب والاستمرار في دوامة الحرمان » .

التحليل يسلم في خيوط عامة ويرسب امام دقة التفصيل . فعلل مصر مزمنة ولا تفسرهـا حالة الحرب . وحالة الحرب ان اثقلت كتف المصريين فهي زادت الكتف ثقلا على اثقال . وكأن الاثقال كانت ، دوماً ، من نصيب مصر ، فمصر يقفز النسل فيها قفزات عجيبة ، وانجازات الرئيس عبد الناصر من انشاء السد الكـبير الى استصلاح الاراضي في الصحراء الغربية الى منشآت التصنيع الى السيادة على القناة لم تحسن اوضاع المصريين . والمساعدات من عربية واجنبية لم تسد الثغرة وهي كبيرة . والنفط في خليج السويس وفي الصحراء الغربية لم يحل دون قساوة الحياة . والحياة قست ولسوف تقسو ما لم يضع المصريون ، انفسهم ، اسباب الحل . والحل هو في تحديد النسل ، والنسل يخضع لشرعة ملتوس (١) . والتحديد يتنافى مع شرعة الدين . فما عسى الرئيس السادات يفعل والنسل لا ينثني عن سيره المعتاد ؟ وما عسى الانتقال من حالة الحرب الى حالة السلم يبدل في اوضاع مصر اذا كان المصريون مسؤولين عن سوء الاوضاع ؟

من الصحيح ان تخفيف الاعباء الحربية يدني من سلامة الحال . ولكن تخفيف الاعباء يرسب امام قفزات النسل . والاعباء الحربية المصرية لا تقع ، كاملة ، على عاتق المصريين ، والتخفيف منها ان بدل شيئاً فلا يبدل اشياء . ولو غالب النيل صحراء مصر لغلب مساحتها الكبرى . والمغالبة ، في ذاتها ، حدث عالمي . ولكن الامكانات امنيات والتحقيق

(١) — الفقراء في شرعة القسيس والعالم البروتستانتي ملتوس يكثرون من انجاب النسل.

عسير . وما لا يقبل المصريون على تحديد النسل فستظل مصر عبئاً على المصريين . وكل دواء آخر هو دواء مخدّر ، فالجرثومة كامنة ولا سبيل الى الوفاق بين الدواء والداء . وعن الداء يتفرع اكثر من داء . والدواء الجذري يعرفونه ويعرضون عنه .

الهوية المصرية والهوية العربية

ترجح الرئيس السادات بين الهوية العربية والهوية المصرية الافريقية وجنح الى تفضيل هوية على هوية . وهو لو اراد الجمع بين الهويتين لما تعسر . وثمة هوية تكمل هوية . والرحاب تتسع لنشاط المصريين ان ابدوا نشاطاً وحافظوا ، معاً ، على رسالتهم الى افريقيا والعالم العربي وغذوا ، عندهم ، الصناعة واعتمدوها . والدور — اغراء او غضباً من العبث العربي وتراوح الثروات عند العرب بين فقر مدقع وثراء مثير — قد تتخلى عنه مصر للكيان العبري فيتبوأ الصهيونيون مركز الصدارة في افريقيا وجنوبي شرقي آسيا وفي البلاد العربية نفسها ان جارى العرب الرئيس المصري في موقفه وطابوا « لسحر الكلام » وانخدعوا بسراب الوعود ومنحوا الكيان العبري « البركة » وتخلوا عن واجبهم القومي .

*

مصر ادّت في سبيل فلسطين والعرب تضحيات كبيرة . والمنطق يقضي بان تبقى على طابعها العربي وان يساندها العرب الى ابعد حد . واذا كان العرب يتحسسون ، فعلا ، ظلامة الفلسطينيين ومخاطر الصهيونية فالمشاركة في الثروة القومية هي اولى واجبات العرب . فاما ان تكون القضية الفلسطينية قضية قومية عربية مصيرية ، واما ان تنحسر الى افق ضيّق . وما نتخوف منه هو ان تنحسر القضية الفلسطينية من

ضمير العرب وتترك سوريا والعراق والمقاومة في مواجهة الصهيونيين ويتناسى الناس ان نَهم الصهيونية يطل على حلم كبير يسود الرقاع الواسعة ويشرف على البحار .

قد تعود مصر الى صفها الطبيعي ، فالانسلاخ عن المحيط العربي يصعب امره ، والحاكمون لا يدومون الى آخر الدهر ، والحلول ان لم تكن عادلة تحمل جرثومة الخلاف . وما ارتضاه الرئيس المصري يكرس الظلامة ويعبث بمستقبل مصر . والرئيس المصري تمادى في تصرفه وكشف اوراقه دفعة واحدة واعطى ما لا يملك ، فغوت الدولة العبرية . والدولة العبرية ادركت انهيار السادات وما تنطوي عليه نفسية السادات وازدادت اصراراً على اصرار . والصلح الذي كان يستجديه الصهيونيون جثا عليه النظام المصري . وما يضعف الثقة ان الرئيس المصري تعاقد في « معسكر داود » على قضايا مصر وقضية فلسطين . ولو عرض شؤون الآخرين وابدع فيها لحقت له المغفرة . ولكنه اخطأ . ولعله يعاني من اضطراب نفسي . ولعله وقع في « الشرك » وآثر الخروج وعجز عنه . والافتراضان يبقيان المعضلة ولا يشارفان الحل .

عودة مصر الى صفها الطبيعي قد يعقبها ، مباشرة ، وصول جيش الدولة العبرية الى قناة السويس . فلا بد للدولة العبرية من ردة . والردة وثبة . والجيش المصري ، بعد « مبادرة السادات » يفتقر الى « الروح القتالية » . ولكل شيء ثمن . وثمن « الندامة » عند المصريين احتلال جديد لكامل صحراء سيناء .

مبادرة السادات

في يقيننا ان الرئيس المصري يعمل وكأن اسرائيل لم تبرز الى الحلبة في

الشرق ، وان رسالة مصر العربية لم تدرك هداها ، تماماً ، قبل قيام الدولة العبرية. ولكان لمصر ان توجه انظارها الى افريقيا او ان تنكمش على نفسها او ان تفعل ما تشاء لولا دقة الموقف . ودقة الموقف تكمن ، في ما تكمن ، في مخاطر الصهيونية على مصر . واذا كانت الحروب بغيضة فثمة شيء ابغض هو التخلي عن الواجب . ولولا الصهيونية لساغ للعرب ، مثلا ، ان يتحلوا ، على الدوام ، بتفكيرهم التمبلي . فهم احرار . ولكن الحرية تزول امام الخطر ، والخطر يفرض تبدل المعطيات .

وفي يقيننا ، ايضاً ، ان الرئيس المصري آثر معاداة العرب على مصالحة الكيان العبري . وهو ، بعيد « الحرب » ردد « شعارات السلام » واكد على « دوره الحضاري » ووضع العرب امام الامر الواقع وامل ان يجرهم وراءه فخاب فأله وخال ان « مصراً تفعل السلم » ما دامت مصر ، في نظره « تفعل الحرب » واعتقد ان المفاوضات لن تبقى ثنائية وان ثمة عرباً ينضمون اليها وعرباً معينين يتملكهم العجز فيرضخون ويبرز هو على الساحة فيحل المستعصيات ويحظى بعطف العالم الغربي و « بصداقة » الصهيونية العالمية وينعم برضى العرب والفلسطينيين . وما نراه ان الرئيس المصري يخشى العزلة العربية وانه ان عاد الى الوراء عاد اليه مكرها . فما اقدم عليه اقدم عليه عن سبق اصرار . وهو خطط لمبادرته قبل ان تولد المبادرة فطرد الخبراء السوفيات وسار في ركاب الولايات المتحدة الاميركية ومهد للصلح وارتكب « الخلل » وأغفل « الثغرة » . ولسوف يكمل فيه شوطاً . والرأي المخالف هو مجرد رأي.

عودة الرئيس المصري الى الصف العربي يدفعها ، ايضاً ، اعتبار شخصي . فالسادات فعل ما فعل وأوغر صدور العرب . والعودة إقرار بالخطأ . والاقرار بالخطأ لا بل الرجوع عنه وان كان فضيلة أمره يصعب.

والسادات يعرف ان كثراً لا يأمنون اليه وان بعضهم يخطط لزواله . فعلام الرجوع ما دام الرجوع يفقد « الصداقات المكتسبة » ولا يقضي على الغيوم المتلبدة في سماء العرب ؟

انى يمضِ الافتراض في خطوات مصر المقبلة فالنظام المصري بغى ، من قبل ، نهاية الصراع مع الكيان العبري. وحرب تشرين ، على ما يبدو ، وليدة « وفاق » قدّر لاحدهم ان يكتب ، في حينه ، فيه ويرشد الى مغزاه . وما كتبه حاول نشره اثناء حرب تشرين وفوجيء بالرفض . وبالرفض نوقش الرافض ، لسنوات خلت ، فاجاب ان الكتابة افتراضات وتساؤلات قد تقرب من الواقع وقد تبعد عنه .

الافتراضات والتساؤلات قادت اليها الاحداث وضبابها الكثيف ، فالذهول فعل فعله لترك الدولة العبرية خطها الدفاعي على قناة السويس خالياً من الجنود . وما ابقته فيه قلّ عن الالف جندي ، والخط له من العرض ما يقرب من المابة والثلاثين ميلا . وهي قد تنعت بشرّ النعوت ولا تنعت بالغباء ، فعلامَ الاهمال ومخابراتها اعين ساهرة ؟ ولا بد ، اذن ، من تفاهم لتأمين العبور وللتمكين من الثغرة ، من بعد .

احجام المصريين بعد « اقتحام » الدفاع المواجه ، احجام مذهل ، فصحراء سيناء مفتوحة ، والدولة العبرية صبت جهدها على السوريين تخلت عن جبهة الجنوب . والغباء لم يبلغ عند المصريين حدا اعماهم عن الثغرة التي نفذ منها الصهيونيون الى غربي القناة فتوالت الاسئلة وتعالى الاستنكار ، والاوساط الحاكمة في مصر تنفي الثغرة وتقول ان لا مجال للحؤول دون ثغزة هي وهم على وهم .

التحليل ، مشفوعاً بتصريحات وتصرفات سبقت حرب تشرين ونمت

عن تبدل المواقف ، دفع الى القول ان في الامر ما فيه ، فمصر تخطت القناة والصهيونيون عبروا الى جانبها الغربي ، فان سارت مصر ، من بعد ، الى المفاوضات سارت اليها متحررة من العقد ، والدولة العبرية ان قضى عليها « يوم الغفران » بالاهمال فاهملت سرعان ما استعادت مكانتها الحربية . وتبقى سوريا في قتالها مع الدولة العبرية وترغم ، في رأي المخططين ، على الجلوس ، الى جانب مصر ، الى مائدة المفاوضات .

التصريحات وتناسق الاحداث وما كتب عن حرب تشرين كشفت اكثر من نقاب . والتحليل لم نخطىء ، اساساً فيه . والرئيس السادات اعطى على صحته الدليل . ومن تتبع زيارته « التاريخية » الى القدس المحتلة يسائل في معنى قوله الى آريال شارون ، القائد العبري في ثغرة السويس : « كان بامكاني ان اقبض عليك » (١) . فالامور كثيراً ما تمضي على طريق معوّج . والناس يطيبون الى الاحابيل وتخذبهم المعجزات ويشخصون الى آفاق الخيال .

ذيول المبادرة

نكتب في الواقع المصري ونحاول فيه ما نحاول لذيول الواقع وارتباط الذيول بمأساة لبنان . فالاوضاع المصرية قادت الى اتفاقيتي سيناء وآلت ، من بعد ، الى زيارة الرئيس المصري لمدينة القدس . وما حدث جزء ، كما قلنا ، من مخطط كبير يهدف الى فرض الصلح على العرب وتصفية قضية فلسطين . والصلح والتصفية لا يتمان بسحر ساحر ، بل يتطلبان التحرك ويوزعان الادوار ويفرضان التنفيذ ، فالنظام المصري راض ، والمقاومة تغلها القيود وان تعاطفت معها سوريا ليوم لا ريب فيه ،

(١) «I was able to get you.»

والتصدي للمقاومة في لبنان هو في نطاق الممكن ، وبعض المسؤولين ، في الارض المحتلة ، « تنبأ » به قبل حدوثه ، وثمة دول عربية «رضاؤها» معلوم .

الانكفاء المصري فتح باب الاحتمالات وقرّبها من الفهم . ومصر لو عادت الى الصف العربي لتوارت الاشباح . والانكفاء المصري يظهر مدى ارتباط سلامة اسرائيل بموقف مصر . والدويلات العنصرية والدينية ، نفسها ، تبدو سراباً ان انحدرت مصر الى مصالحة الكيان العبري .

من ينتصر لا تملى عليه الشروط . ومن يندحر يخرج من الاراضي المحتلة ولا يبقى فيها . وهو ، ايضاً ، لا يشد الحبل على الاعناق فيتلفت الناس ويرون ان الخيار خياران : اما التسليم بالاحتلال ، واما التخلي عن حقوق الفلسطينيين ومصالحة الكيان العبري . وما يفرزه الواقع هو ان « النصر » لو كتب ، حقاً ، لمصر في حرب تشرين لحررت مصر — كاملا — شبه جزيرة سيناء .

بيد ان مصراً ليست « الاولى ولا الاخيرة » على طريق النضال القومي ، فالحرب طويل والعرب وفير . والحرب مدّ وجزر ، مسالمة وقتال . واذا كانت مصر ، الى اليوم ، في الصراع عنصره الاول فالمستقبل كفيل بأن يتبوأ الصدارة « عرب » آخرون . واذا كان الواجب لا يفرض القتال ، في ظل المعطيات القائمة ، فالواجب يحث على الصمود والرفض. والصمود والرفض ، اليوم ، هما السلاح الناجز ولا سلاح سواه .

*

اعباء مصر — وعندها توقفنا — اعباء جسام . وما يسوغ قوله في العرب لا يخشى النضاب ، فبعضهم نبع عنده الثراء ونقله من جحيم الى

نعيم ، وبعضهم ينفق ويسخى في مجالات الترف ، وبابها فسيح . وكل رائد مصري ليس ، على غرار عبد الناصر ، بذلا وتشملا بالصبر . وما يخاله بعض العرب في حقه اجراماً يرى فيه بعض المصريين وفاء لمصر ، فالنظرة نسبية والرأي نسبي . والادانة توجب ان يكون الانسان بمنأى عن الاخطاء .

التأكيد على « زلات » العرب يمضي بموقف الرئيس السادات على طريق التفسير ويفضي الى ترتيب النتائج على « مبادرته السلمية » . فالصهيونيون ، بفعل المبادرة ، توافرت لديهم القناعة بان الرفض العربي لم يعد قاطعاً واملوا ان العرب يتنازلون عن مبدأ « الدولة الفلسطينية » ويسلمون بواقع النكبة . والصبر ، في نظر الصهيونيين ، لم يعد مزية عربية ، فهم غالبوه وغلبوه . ومن تقويض المبدأ يتزعزع الموقف . وثمة عرب ، في تصور الصهيونيين ينتقلون ، رضاء ام قسراً ، من مرحلة الرفض ال مرحلة القبول .

من حق الناس ان يحللوا النتائج ويرتبوا المسؤوليات . ومن واجبهم ان يحيوا في دنياهم فلا يفيقوا على واقع اسود . والواقع ، في متناقضاته المثيرة وآفاق فوضاه ، يخلف اثره في لبنان وفي بلاد عربية اخرى . والمصير تتقاذفه الاقدار .

الواقع العربي

الشرق العربي وشبه الجزيرة العربية

الواقع العربي رافقنا في الدراسة ظله واشرنا اليه في حالات . وكان لا بد لنا من ان نفعل ، فهو ينعكس على واقع لبنان ، ولبنان قائم في الشرق وفي الشرق العربي ان وجب التحديد . والشرق العربي اصطلاح ، والاصطلاح لا يفيد ، مثلا ، ان الشرق العربي وعرب شبه الجزيرة توأمان . ولكن الصلات جامعة وان انفصل ، في نظرنا ، المصير ، الى حد ، في شبه الجزيرة العربية عن المصير في الشرق العربي . والمصير واحد ، تماماً ، لمن غره الكلام وليس واحداً في مجال التطبيق العملي . واذا كان الشرق العربي يتأثر ، دينياً ، بشبه الجزيرة العربية ويرتبط بها، ايضاً، بروابط اقتصادية وتاريخية وتجارية فشبه الجزيرة العربية ، هو ، في ذاته ، وحدة مستقلة وعالم منفصل عن الشرق العربي . والاطار الضروري الجامع ، يجب ان يكون ، اليوم ، الخطر الصهيوني .

التلاحم ، اصلا ، قائم بين الطرفين ولا تعادل فيه . والتأثير السياسي والديني ينعكس من شبه الجزيرة على الشرق العربي وينعكس ، مبدئياً ، من الشرق العربي على شبه الجزيرة العربية . وشبه الجزيرة العربية يحتل،

لموارده ، في العالم المركز المرموق ، فالعالم يراعيه ويعمل ، احياناً ، برأيه . ولكن القاعدة لا تؤخذ على اطلاق، والحد فيها، احياناً، هو حد الدولة العبرية . وبعضهم في الغرب ، حالياً لا يتخلى عن الدولة العبرية ولو اراد العرب .

الا ان الغرب مرتبط بشبه جزيرة العرب . فشبه الجزيرة يوافر له النفط . وثمة طاقات فيه ، ايضاً ، يرمقها الغرب . ومنتوجات الغرب ومنتوجات اليابان تملأ « بلاد العرب » . ناهيك عن حساسة الموقع . وما دامت الدولة العبرية مدينة ببقائها للغرب وما دامت « سلامة » الغرب ومصالح الغرب هي في ايدي العرب ، فالعرب لو ارادوا لأمكنهم الضغط على الغرب . فمن بغى امرأ وافر له « العدة » ، والعدة لا تعوز العرب . وما يعوزهم قد يكون الارادة على المواجهة . والمواجهة جد، والجد يحمل المخاطر . وعلى المخاطر قد يؤثر بعضهم الطمأنينة والرغد .

الغرب سعى ونجح واقام في المنطقة «تحالفاً» يتصدى للتيارات «الهدامة» و« للمبادىء المستوردة » . و« التحالف » تبسطنا فيـــه لعشر سنوات خلت(١). واذا كان عدو العدو هو صديق، فصديق الصديق هو صديق يوافق بين المواقف في اطار لا تجاوز فيه ، فالمقاومة الفلسطينية ، مثلاً، ان دفعت عنها « الافكار الهدامة » وانضوت تحت اللواء المرغوب تلقى المساعدة والدعم ، وان انزلقت وعارضت كان نصيبها « الاهمال » . وثمة دول في مواجهة الدولة العبرية ان ساغ تعاملها مع المعسكر الاشتراكي ساغ الى حد ان تخطته حجبوا عنها المعونة ، وبعضهم في حاجة ، معاً ، الى المعونة من شبه الجزيرة العربية ومن العالم الاشتراكي . والخيار

(١) فلسطين والخطر المصيري ص ١٢١ الى ١٣٥ .

ان طرح قد يظل خياراً فيتعسر القوم وتنعكس الاثار على المواجهة مع الدولة العبرية وعلى اوضاع لبنان .

*

هذه البدهيات نتلمس اثارها من حين الى حين . ولولا التناقض بين المواقف والامنيات لأحرج العدو ولتبدلت الحال . ولكن البدهيات تسود المواقف ، والانعتاق منها ليس في متناول اليد . و« لعرب المشرق » ان يبنوا عليها الحساب . والمهارة هي في المعادلة بين المتناقضات ، والمعادلة ان قامت تبقى عرضة للردات . والرئيس السادات اخطأ في تقدير مدى الرباط بين قضية فلسطين وعرب الشرق .

فلسطين والعرب

فلسطين ، في ذاتها ، ليست ، في رأينا ، شغل العرب الشاغل في كل مكان . وما يتحسسه ، مثلا ، عرب شبه الجزيرة ، هو اساساً ، وضع القدس لا واقع الظلامة في اطاره الشامل . فالمسجد الاقصى هو « ثالث الحرمين » وعنه لا يتنازل الاسلام . والاسلام يأبى أن يشرف العدو على ارض القدس ما دام المسجد الاقصى قائماً عليها ، فالله « اسرى بعبده الى المسجد الاقصى » (١) ، والحرمات هي الحرمات ورباط الدين هو رباط الدين ، و« دار الاسلام » هي « دار الاسلام » . وما نخشاه ان يتخلى بعض العرب عن فلسطين لوعد يسلم المسجد الاقصى ومدينة القدس .

للمسجد الاقصى حرمته ولا نزاع فيها . ولكن الواقع الصهيوني يبرز آفاقاً أبعد . فهو يعرض ظلامة كبرى من ظلامات التاريخ . فالشعب

(١) « سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى . » اسرى١.

الفلسطيني شرد من ارضه . وتشريده جزء من مخطط يبغي السيطرة على لبنان وشرقي الاردن وسوريا والعراق ، وعلى جزء من ارض مصر ويمهد للاشراف على شبه جزيرة العرب . والقضية ، في يقيننا ، قضية شعب وأرض لا ، فحسب ، قضية المسجد الاقصى .

القومية ، اذن ، من افق معين ان سارت في ركاب الدين وجب عنها الدفاع وان انحرفت عنه تركت وشأنها . وثمة اناس يندفعون وراء «القومية الوطنية» وان ضاق مفهومها. وعرب شبه الجزيرة يتحلون بأصالة وشيم لا نقاش فيها وينسجمون مع معتقدهم الديني . وللامة ، في نظر الدين ومن تطلع عابر ، مفهوم قد يخالف مفهوم القومية . واطار الدين ان شئنا التشديد عليه لا يثمر في نطاق عملي .

ما يصح في عرب شبه الجزيرة يصح في افريقيا الشمالية ، فالمغرب هو المغرب وحماسه فتور ، وبعض الاوزار في الانكفاء المصري يعود اليه . وتونس تنظر الى واقعها وحالها . والجزائر ان مضت في اتجاه مخالف فانطلاقاً من روحها الثوري ومن مقابلة الحلف بالحلف ، وانطلاقاً من نزاعها مع المغرب ومن ثروات الصحراء الكبرى و« الرغبة » فيها .

تعرية الحقائق خير من سراب الوهم ، فالحساب يبنى على الحقائق ولا يبنى على الاوهام . وما يجمع بين الاطراف هو القدس وان تفاوتت فيها النظرة ، فشبه الجزيرة العربية اليها اقرب . وهو ، بوصفه مهد الدعوة الاسلامية ، اشد تعلقاً بالقدس من سائر المسلمين . والتعلق بالقدس ليس شغفاً بفلسطين وبشعب فلسطين .

ما نقوله تقوم عليه الادلة ، فالسودان تجذبه الشؤون الافريقية ولا « تخيفه » مخاطر الصهيونية ، وسلطنة عمان تولي « اهتمامها » ايران واليمن

الجنوبي ولا تستشعر الخطر الصهيوني ، والمغرب يؤثر على فلسطين صالحاً في افريقيا الشمالية ، وهو ، ان بحث شأناً دولياً، تلفت الى الصحراء الغربية والى برجي المراقبة الاسبانية على ارضه في مواجهة جبل طارق او على مقربة منه(١) . وثمة من صرح فيه ، لخمس وعشرين سنة تقريباً، ان مشكلتين تستدعيان حلا في البحر المتوسط ، مشكلة الجزائر ، ومشكلة قبرص . وهكذا تحدو المواقف الى التأكيد على ان القضية الفلسطينية هي ، اولا ، قضية المجموعة الحضارية القائمة بمواجهة الدولة العبرية ، وبصورة اكثر وضوحاً قضية المجموعة المؤلفة من العراق وسوريا والاردن ولبنان وفلسطين ، وانها ، ايضاً ومبدئياً ، تعني مصراً دخولا من مصر في « تخوم ارض الميعاد » حتى حدود النيل .

على ان « الرباط القومي العربي » — والتعبير اصطلاح شخصي — يشد بعض العرب ، خارج المجموعة الحضارية السورية ، الى فلسطين والفلسطينيين . واذا كانت القدس اطاراً جامعاً فالقضية الفلسطينية ، في ذاتها ، حرية بالاهتمام . وثمة عرب ، في اقطار عديدة ، لهم منها موقف قومي . وهم قد لا يتخلون عن الواجب في الساعات الحوالك بل يهبون الى المساعدة ويبذلون العطاء ويسخون فيه . وبعضهم ، في نظرنا ، على غرار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، يؤثر الهوية العربية على كل هوية . وعبد الناصر شقي في سبيل العرب وفي سبيل فلسطين . وكثر لم يخفوا ، يوماً ، اعجابهم بالرئيس الكبير ، وتحسسوا ، على غراره ، الخطر الصهيوني وادركوا ابعاده وان نأوا عنه في المستقبل القريب بفعل موقعهم الجغرافي . وهم لو انثنوا عن الاخذ بناصر فلسطين

---

(١) شوطة ومليلا .

لما تملكنا العجب . والعجب – وان الى حد – يفعل فينا فعله لخروج مصر عن صفها الطبيعي .

العالم والمصالح

الغرب شاء الدولة العبرية ، معاً ، حسيباً ورقيباً ولم يشأها مزاحماً لنشاطاته فيه . والعالم ، شرقاً وغرباً ، المّ ويلمّ بكفاءة اليهود . وهو آثر لهم – على حساب العدالة – وطناً قومياً في فلسطين ولم يبغ تحقيقاً لحلم خرافي. وهو، ايضاً ، ان ودّ للدولة العبرية الاستقرار الذاتي يأبى ان تحل مكانه الدولة العبرية في العالم العربي . فالغرب يدرك الاجور المرتفعة والتململ الفئوي ويعتمد على طاقات العرب في سد عجزه . والعرب ان صدقت حسابات الدولة العبرية يسهمون ، عمالا لا تقنيين ، في تنمية الاقتصاد العبري . وما يبيعه الغرب بسعر عال يعرضه الصهيونيون بسعر بخس نتيجة حتمية لانخفاض الاجور وتوفر المال وقرب المسافات الى افريقيا والشرق الاسيوي . ولا نرى ان العالم توقف عند بدهيات التحليل. وهو لسوف يفعل من بعد .

*

خروج مصر عن صفها الطبيعي أمله العديدون وظفروا – ولو موقتاً – به . والعالم لا تقوده الخلقيات ولا يعتمد – شأنه في الامس – تقسيم الناس الى « مؤمن وملحد وكافر ومرتد » ولا يستسيغ امره . وما يندفع وراءه العالم المصالح والعلم في آفاقه الرحبة . فالانسان وطىء القمر ومضى الى الفضاء واكتشف الذرة . والفكر يخطط للحياة على آماد طويلة باحثاً في كثافة السكان ومساحة الارض وامكانية الانتقال الى الكواكب

الاخرى . وهو اذ تجاوز مفاهيم الامس ألحق بالعرب ظلامة كبرى . ولا بد من دفع الظلامة . والسبيل اليه تطور لا رقود .

التقنية والطاقات العربية

العرب يقبل بعضهم ، اليوم ، على التقنية وبعضهم يعرض عنها ويرى فيها سلعة يوافرها المال . والمال متى زالت الثروات العربية آل الى زوال ، فلكل شيء نهاية ولكل شيء اوان . فما عسى العرب يصبحون بعد ان تنقرض ثرواتهم الطبيعية ؟ واذا كانوا ، اليوم ، وهم من هم امكانات واسعة ، يعجزون عن اسرائيل ، فانى لهم ، بعد انقراض الموارد ونضب الابار ، ان يتصدوا لها ويتفوقوا عليها ؟

العرب لو ارادوا لرفعوا مستوى المواطن العربي وقاربوه من الحداثة وقضوا على الفوارق الطبقية ودفعوا الروح القبلية واعدوا انفسهم « لعهد جديد » يلي عهد المعادن والنفط . ولو تساءلوا لظفروا بالاجوبة عن خسارة الحروب امام الدولة العبرية وهي حبة الرمل في بحرهم الواسع . ولكن التساؤل يقود الى التساؤل ، والحلقة طويلة ، ومبدأ السببية ينتقل بالانسان من حال الى حال والصمت ، احياناً ، خير من الكلام .

من اراد خير العرب رجا تبدل الذهنية ، فالذهنية ، عند بعضهم ، اسيرة ، والاسير لا يملك امكانية التقرير . والاوضاع لا تسلم إلا بسلامة التفكير . ومن اجال الطرف ، في ظل المعطيات الحاضرة ، لا يرى خاتم المطاف ، بل يخشى على دول المواجهة من فداحة الاثقال .

*

دول المواجهة تتحمل اعباء المواجهة . وهي ، شرقي فلسطين ، وحدة جغرافية حضارية مستقلة معنية بالصراع ومعنية بمأساة لبنان . ولبنان ان قام في الشرق العربي قام ، اولا ، في الوحدة الجغرافية « العربية » بمواجهة الدولة العبرية : فلا اغفال للواقع ، ولا بد للواقع من ان يدخل ، جلياً ، في حساب المواطن اللبناني . فمن حتميات المنطق ان قيام لبنان في نطاق الوحدة الجغرافية الحضارية المعنية يفرض عليه ان يتفاعل فيها . والتفاعل ضمن المجموعة الصغيرة يلزم ، في حالات ، بالتفاعل مع المجموعة الكبرى. فاما ان يكون لبنان جزءاً من المجموعة العربية ويلتزم ، مبدئياً ، بخطها واما ان يخرج عنها ويبدل من موقعه الجغرافي . والامر مستحيل وان يكن « الايمان ينقل الجبال من مكان الى مكان » .

لبنان والعرب

على ان تفاعل لبنان في محيطه لا يعبث باستقلال لبنان . فثمة عرب يبغونه نقطة تلاق ويطيبون الى الاقامة فيه ويودعونه الاموال والاثقال. واذا كانت سهولة المواصلات تطوف ، اليوم ، بالعرب الى كل رحاب فالعرب لا تضيرهم السكنى في بلد جميل يطل ، معاً ، على الغرب وعلى بلاد العرب. والانسان لا يفصم بين بيئته وبين نفسه. وهو انى يلق الرغد يؤثر قدراً منه في بلد تشده اليه الوشائج على الرغد الكامل في بلد غريب. وامرؤ القيس ، من قبل ، « طوّف بالافاق ورضي من الغنيمة بالاياب». واذا هُجّر عربي من وطنه فهو يودّ استقراراً في بلد يدنو من بلده ، لغة وعادات وتقاليد ولا نقول ديناً ، فلا يفصم مع بلده ، نهائياً ، كل رباط او يقطع « السرة » التي جمعته اليه . والظاهرة يخللها اللبناني ان خرج من لبنان او هجر لبنان الى عالم الغرب ، فهو يشعر انه غريب

فيه « والغريب غريب » ، والقول لامرىء القيس . واللبناني ، على غرار العرب ، يرجو قرباً الى بلده ويتشوق الى اموره . ومن قطع مع لبنان جميع الصلات وتركه الى غير عودة لا يقضي على حنينه الى لبنان . « والحنين ابداً لاول منزل » ، والشطر لابي تمام .

وفي رأينا ، ايضاً ، ان مناخ الحرية يوافر اللقاءات ، وان لبنان ، في الاصل ، واحة يسعى اليها المشتاق . وكل آت لا يتمتع بثراء الحياة او يستطيع ذهاباً الى مكان آخر . وكأن العربي في « حالة تأهب » يتحفز للرجوع من حيث اتى . وهو ، في لبنان ، قريب من بلده . وسرعان ما يعود اليه ان امكنت العودة .

العربي في لبنان يشارف التيارات الفكرية ويلمس تعدد الاراء . وكثر ينتقلون الى لبنان لانتمائهم الفكري . واللبنانيون يعكسون الواقع العربي في متناقضاته المثيرة ويعبرون عن المفارقات فيه فيأخذون بناصر فريق ويعادون فريقاً . ومن افتقد الايمان قلق عليه وان عرف العرب ان المتكلم « سنان ولسان » يحدث عنهم ويتبنى قضاياهم ، احياناً ، على غير ايمان. والايمان قد تقوم القناعة فيه وقد تفتقد . والامر رهن بالاخلاق . والاخلاق وقف على اصحابها ، وفيها لا نود الدخول .

هذه العوامل ، في اعتقادنا ، تجعل من بقاء لبنان امنية ولا نقول ضرورة. فما من بلد او فريق الا ويمكن الاستغناء عنه . وما نشدد عليه هو ان اللبنانيين شقوا ، على قدر ، من « نعيمهم » الفقيد ، وان بعضهم ان شاء تبدلا في المعطيات وتخلفاً عن الركب العربي احرج نفسه اولا . والاحراج لا يفيد ان الامور هي ، فعلا ، في متناول اليد وان فريقاً من اللبنانيين يفيد على هواه من المتناقضات القائمة في العالم العربي .

العالم العربي ، في ذاته ، لا يؤلف وحدة متناسقة بمفهوم الوحدة . وما ينقسم اليه هو وحدات اربع تحددت ، عن صواب ، بشبه الجزيرة العربية ووادي النيل وافريقيا الشمالية والمجموعة السورية العراقية . والوحدة الاخيرة اشار اليها وحددها ، « بين البحر المتوسط والصحراء العربية » ، المستشرق لامنس (١) ولم يعطها تسمية . ومن اعطى التسمية هم البريطانيون ابان الحرب العالمية الاخيرة . والتسمية هي « الهلال الخصيب » . والتسمية اعتمدهـا ، ايضاً ، مؤسس « الحزب القومي السوري » في « مبادئه » ناسباً اياهـا الى العرب الاقدمين . ولم نر في مراجع العرب ما يعـود بالتسمية الى العرب ، اوائل ومحدثين . والاغريق ، اصلا ، هم الذين فصلوا بين البلاد السورية او السريانية من العراق الى الشام واطلقوا على بلاد آرام تسمية سوريا. فقبل الاحتلال الاغريقي كانت سوريا تعرف باسم بلاد آرام ولم تعرف باسم سوريا.

الوحدات الاربع ان شكلت عالماً هو العالم العربي فهي لا تنتمي الى فصيل واحد ، ولا تشكل ، تماماً ، امة بمفهوم الامة . وما يشكل الامة ، اصلا ، هو المعدن الواحد والشعور الواحد والمصالح الواحدة والتفكير الواحد والرغبة في العيش المشترك . ناهيك عن الاطار الجغرافي الجامع وفيه تتفاعل ، احياناً ، تقاليد وعادات بعضها يقرب من بعضها ويكاد يذوب فيه . ولا نرى ان عناصر الامة الواحدة متوافرة ، تماماً ، في العالم العربي . وما قد يربط بين اجزائه هو ، اولا ، اللغة والدين الاسلامي . والاسلام ان شد اليه اعداداً غفيرة فهو لا يضوي تحت لوائه

(١) LAMMENS: *La Syrie,* Op. Cit. T. 1, pp. Isq.

جميع الاهلين . والدين وان كرم لا يحول دون المتناقضات . وهو ، على حد ما نعرف ، لم يحل دون انقسام الامبراطورية الرومانية قديماً وانشقاق البنغال عن الباكستان في الامس القريب . وما نسوقه مثالان وسواهما لا خلاف فيه . فالمتناقضات سنن في حياة الامم وفي حياة الافراد . وقل ان يتجرد الانسان الى ابعد حدود التجريد ويتحرر من الميول والاهواء . وما نراه ان العرب يسرف بعضهم فيها ويعتمدها في الحياة ركيزة ولا يعتمد العقل .

الامة العربية الواحدة نرجو توافر امرها . وهي لو قامت لدثرت الخلافات في العالم العربي . والخلافات رهن بالمتناقضات . والمتناقضات العربية افاد منها العالم وحولها الى صراعات ، فالعالم تقوده المصالح ولا تقوده الاخلاق . وفريق من العرب هو فريسة الاطماع ، فان اقبل على التطور لوّح العالم ، امامه ، بمخاطر الاقبال وصوّر التطور عبثـاً بمقدسات الاسلام . وان طاب العرب الى النظام ولم يمض النظام في ركاب الغرب دفع الغرب نظاماً عربياً الى قلب النظام . والمفارقات ، نتيجة المتناقضات ، لا تعرف الحصر . والجد نفتقر اليه ولا نلقاه ، والمصالح لا تهادن ولا تعرف الصمت ، وبلاد العرب زاخرة بالخيرات ، وهي قبلة الانظار . ولا بد من اثارة النعرات . ولا بد ، ايضاً ، من الافادة منها الى اقصى الدرجات .

المتناقضات العربية ، احياناً ، تحول بين العرب واحترام العالم . والعالم يحترم من يحترم نفسه . وهي اذ تذر الخلافات في صفوف العرب تمهد السبيل امام كل اغراء ، فالولايات المتحدة الاميركية ، على سبيل المثال ، شجعت الرئيس السادات على مبادرته « التاريخية » واثقة من ان المتناقضات العربية تحول دون اجماع العرب . والعرب ان اجمعوا على رأي ، فالزمن

كفيل بان يطوي الرأي . ومن يبقى عليه هم اصحاب الحق المباشر ، منظمات ودولا قلائل . ومن لا يغريه الوعد قد يحجمه الوعيد . ولكن الولايات المتحدة لا تلم بذهنية جميع العرب ، فالسوريون مراسهم شديد والحسابات ان صدقت فلا اطلاق فيها . وما خرج عن المنطق يحرك كوامن العقد . والعدالة ان تاهت عند الغرباء ، فالاقربون ، فيها ، لا يترددون .

المتناقضات العربية لا تقف ، دوماً ، عند حدود « المبادىء » بل تعبر المبادىء الى اطار الاشخاص . ومن انتفض بوجه السادات انتفض للمبدأ والكرامة . ومن انتفض وغَمَضَ رفضه نظر ، اولا ، الى صالحه العائلي . ومن الناس من يؤثر حفاظاً عـلى كرسيه ، ومنهم من يبغي التشفي ، ومنهم من يخشى على معتقده الديني . ومن حافظ على كرسيه سار في الانتفاضة الى حد . ومن بغى التشفي نال مأربه وسكت . ومن خشي على الدين ابقى على الخشية وابى التلفت الى حليف طبيعي يتوازن في القوة مع الدولة العبرية ومع حماة الدولة العبرية . فاما الحليف القوي والامل في استرجاع الحق ، واما انتفاء الحليف وضياع الوطن السليب ، فالمعطيات الدولية والعربية الراهنة تفرض وجود الحليف ، فلا العرب يستعيدون فلسطين على سنان الرمح ، ولا العالم يستمع الى الصوت العربي ما لم يسانده عملاق قوي . ولكن المتناقضات تقضي على المنطق فيتفرق العرب شيعاً ويأنس بعضهم الى صداقات لا صدق فيها ويدور ، دون ان يدري ، في فلك مريب . وكأن ما قيل في خلفاء معينين ، في اواخر عهدهم ، يصلح في كل حين. وما قيل افسد الرؤية واحلّ العدو محل الصديق . وحسن الرؤية والتصرف السليم لم يخونا ، من قبل ، معاوية الكبير .

من المؤسف ان يحذف حسن التقدير من معجم الاخلاق . ولكنها ظاهرة . والناس تحكم في مستوى الاخلاق . وعلى « قدر اهل العزم تأتي العزائم » من بعد .

*

المتناقضات العربية قد تقوم بين افراد المجموعة الواحدة وقد تفصل بين المجموعات . وهي شدت في لبنان من عزائم الفرقاء . فثمة عرب ساندوا لبنانيين معينين ، وثمة عرب ناصروا اللبنانيين والفلسطينيين ، فليبيا والعراق اخذا بجانب فريق ، والاردن تبنى فريقاً حظي ، ايضاً ، بتأييد سعودي ، وسوريا وقفت الموقف المستقل وفرضت رأيها على الفرقاء . والآراء ، عند الجميع ، انطلقت من « المصلحة العربية » ، والمصلحة العربية مصالح لا مصلحة محكمة التدبير . ومصر ، دون سواها ، وضعت نصب عينيها مصلحة مصر في حرب لبنان . وهي ، من قبل ، في حرب اليمن اعتبرت التدخل من المصلحة العربية فـــي الصميم .

المتناقضات عبثت بوحدة الصف العربي واضرت باللبنانيين والفلسطينيين وانعكست على اوضاع المقاومة وقسمتها اعداداً قاربت اصابع اليد فشهدنا ، في لبنان ، منظمات تنتمي الى سوريا والعراق وليبيا ، ولمسنا ، في اطار التنظيم الواحد ، تيارات مختلفة متضاربة فخسر العمل الفدائي اندفاعه الثوري ، وقامت ، عندنا ، النزاعات بين المنظمات واضطرب حبل الامن ، وافاد اصحاب الغايات واستغلوا العداء ونشط المخططون وربح العدو وخسرت المقاومة وخسر لبنان .

المتناقضات افادت الدولة العبرية عند قيام الدولة العبرية ، فالعرب

خاضوا الحرب وآراؤهم على فراق . فمن دخل اللد والرملة اخلاهما من بعد . ومن وصل الى مشارف تل ابيب وقف وقفة الشاهد . وحصار الفالوجة لم يستصرخ احداً . فكل دولة صرحت بشيء وطوت اشياء . ومنهم من مالأ سراً ان لم يكن جهراً . ويحدثونك ، من بعد ، عن الوفاق . ومن اراد ان يفهم يحار ويعجز . ومن سأل في مفهوم الامة سُدّت بوجهه الابواب . ومن اراد التطور خالوه مارقاً ، فالتفسيرات جائزة اني تكن الاسباب ، والحديث دائر حول « نظام متطور عصري يدفع الرجعية والقبلية والعشائرية » . وان رجوت التفصيل سقط المنطق ، والمنطق لا يقوم على المتناقضات ، والمتناقضات ان حاولوا بينها التوفيق، تفضي الى انصاف الحلول ، وانصاف الحلـول تسلم المظهر وتودي بالجوهر . وزوال المتناقضات رهن بتوحيد الانظمة في العالم العربي .

*

العالم العربي فسيح وسكانه كثر . والكثرة العددية ، في حالات ، ضرر لا نفع والاعداد ان لم يواكبها التطور عبء على نفسها وعـلى المجتمع . وثمة مجتمعات عربية معينة ، يقول ولي الدين (١) نصفها مشلول ، تعيش فيها النسوة على هامش الحياة فلا يشاطرن الرجل مهام الحياة . وولي الدين افرد لاوضاعهن مكاناً في « صحائفه السود » . والناس ، بفعل كثافة الاعداد وانتفاء التطور ، يواجهون العبء عبئين، « فالعدو على الابواب » والجهد ينصب عليه ، والمرض والجهل والفاقة تسود الحال ، والتصدي ان وجب في مواجهة الدولة العبرية فهو يفقد حماسه امام مرارة الواقع . ولو كان المصريون خمس ما هم عليه لكان

(١) ولي الدين يكن : الصحائف السود ، مطبعة المقتطف ، مصر ، ١٩١٠ ، ص ١ الى ٢٠ .

الامر اجدى وانفع ، ولما جنح الرئيس المصري الى ما جنح اليه . ولو ان التطور فاعل فعله في مصر لحسب العدو وحسب لها العالم الف حساب .

مقتضيات المواجهة

المواجهة مع الصهيونية تفرض الحداثة في كل مجال . والثروة القومية الموحدة اساس فيها ، فالعدو يتلقى المساعدات من كل حدب ، والدول العربية في خط المواجهة ، تفتقر الى الثروات . والثروة هي ما وراء خط القتال . واذا كان العرب يؤلفون « امة عربية واحدة » ويستشعرون الخطر المصيري ولا يتوافقون ، فحسب ، في نظرتهم الى القدس واماكنها المقدسة — فلا بد للثروات من ان تكون في متناول جبهة الموجهـة . والمواجهة لا تصلح من موقف الضعف . واذا خال « الاثرياء » ان العبء هو على سوريا والعراق والاردن والفلسطينيين ولبنان — ولا نقول مصراً — وحجبوا المساعدة او بخلوا بها فهم يعبثون ، معاً ، بالمنطق وباوضاعهم من بعد . وقد يندمون ان آثروا الاحجام وانثنوا عن بدهيات تطرح نفسها امام الاعين بعناد واصرار .

ما نخشاه ان يبعد بعضهم ، على الدوام ، عن آفاق الجد فيتواكل ويتخاذل ويستسلم الى الاقدار . والاقدار تودي بالارادة وتثني عن الواجب . والعرب يتناسى فريق منهم واجبه القومي فيقتتل ويتذابح ويعود ، بعد حين ، الى الصف الواحد كأن شيئاً لم يحدث . ويتساءل الناس فـي اسباب الوفاق وفي اسباب الفراق ويسوؤهم الانفعال ويؤثرون الفعل على الترجح ويرجعون الى العقل ويسعون الى مخرج يوافـر الكرامة ويستعيد الحق ويجعل للمنطق حرمته وينأى بالصداقات عـن الاثارة والمؤثرات ويجعل لكل شيء حده ويعرف الحد ويعزف عن شطط

الكلام ، « فما ينفقه الكلام تفقده قوة الساعد » والكلام ان نفث كربة فهو لا يستعيد حقاً . والعالم يهاب الافعال ولا يهاب الكلام .

العرب ان ادانوا الرئيس المصري قولا لا فعلا واعتمدوا أنصاف الحلول واحجموا عن الحزم واكتفوا بسحر البيان ، فالبيان لن يبدل شيئاً في مجرى الاحداث . ومبرر الادانة يفقد معناه ان كان ، فحسب ، « سحر بيان » . والجد رائد ولا رائد سواه . و« سحر البيان » وحده ، استسلام . والاستسلام ليس من الايمان . واذا كان القدر ركناً من اركانه — والبخاري لا يذكر امره — فالقدر يفيد معرفة الله المسبقة بالاشياء، وهو لا يعني ان الله يعمل الارادة ويدفع السعي عن الانسان. وما الاشارة الا في معرض التدليل على مرض قضى على النشاط ونفى الردة وجعل العرب شهداء على الحسنة والسيئة ، لا يد لهم في مجرى الاحداث . فعلام ننعي فلسطين ونبكي على لبنان اذا عدنا بمأساة لبنان ونكبة فلسطين الى عوامل خارجة عن الارادة ، تسير في مسار الضرورة على دقة واحكام ؟ وعلام يستعدون انفسهم على الرئيس المصري ان افلت من يده الزمام ؟ وما نراه ان المأساة والنكبة هما من فعل الانسان وان الانكفاء المصري لا يغرب عنه . والمسؤولية لا تنفي المؤثرات الطبيعية ، ولكل شيء حيز ونطاق .

الواقع اللبناني

الاخلاق والمظهر

البصيرة والادراك رجوناهما ورفعنا من اجلهما الصلاة . واذا كان الله يخلق الانسان ويتركه في يد خياره فالله ، ايضاً ، في نظر المؤمن ، يتدخل في شؤون البشر وينزل عند رجاء الانسان . ونحن رجاؤنا لم يثمر . وكأن الاثم يحول دون الرجاء . والضراعة ان لم تفعل فعلها اليوم فقد تفعله من بعد .

اللبناني ذكي ونشيط . ونشاطه طموح لا حد له . والحسن لديه يغالب السوء . والعجب ان الحسن ، احياناً ، يغالب ولا يغلب . فالعقلية اللبنانية ، مثلا ، لم تتأثر بعظة الحرب ، فالايمان مفقود والمال هو المال والثراء مزية ان ذكروا الحسنات كان في طليعتها ، والمظهر هو المظهر والتوافه توافه والخبل فطنة والعيّ بلاغة . ومن لا يعرف من الكلام الا السلام ويخونه الفهم يدفّقون ، لصالح مادي ، احياناً ، على لسانه الكلام فتخال انك امام المعرفة النيرة وصواب النظرة وسحر البيان . وتحتل المآدب مكانها على اشلاء القتلى . ومن كان ، امس ، صنماً غارقاً

في الخصام اصبح ، بفعل النفاق ، وطنياً وداعية سلام . ومن استباح الاموال – اموال الدولة واموال الناس – حفّت به الفضائل ، فالموبقات هي في التقاليد ، ولا حسيب عليها ولا رقيب .

المادة تحتل في الحياة مكانة كبرى ، والامر طبيعي . والشعوب تبرز قيمة المادة ولا تغفل قيَم الروح . ونحن ، احياناً ، نجثو امام قيم المادة ونتخلى عن قيم الروح .

من التقاليد الا يسأل اللبنانيون في مصدر الثروات ولو قامت على انين الثكالى . وثمة من حجب الحياة عن مريض او جريح وتنقل متنزهاً بين لبنان وخارج لبنان وقارب في ارباحه ارقام الخيال وشغف الناس « بفطنته وسلامة خلقه » . وثمة من امتهن المحرم وناب عن « الشعب » . وعن « الشعب » ، احياناً ، ناب شراء الضمائر وناب الغباء . وثمة من عمل موظفاً صغيراً في فرع مؤسسة اصبح ، من بعد ، على رأس ثروة مثيرة فشيد الابنية في العاصمة وامتلك المصارف « ودخل المجتمع اللبناني » ودلوا عليه بالاصبع ومحضوه احترامهم الوافر ، فالمال ، في لبنان، يغفر الزلات ويصنع المعجزات . وهو في بلاد العـالم يهز العروش ويخلع الرؤساء ان قبل الحاكم من احدهم جرعة ماء . وثمة جاهل احتل منصباً لقدر ساخر وكتفه مثقل بدين وافر ووافر له المنصب نفض غبار الدين وانعمه بالثراء ، ولا نقاش في وضع ولا حساب .

من التقاليد ان يحدث النـاس عن مفهوم الدولة مجرد حديث وان يصفقوا للحاكم ولو فسد الحاكم ويلمسوا التجاوز ويسكتوا عـن التجاوز . والظاهرة تستدعي التحليل . والتحليل يتوافر في الخروج على الاصول . فما دام المسؤول يغض الطرف عن الواجب ، فالمواطن يحذو

حذو المسؤول . والثقة تائهة . وما يأخذونه منك تستعيده بوسيلة او طريقة . والمال سيد وعبـادة المال مباحة . فلمَ الانتفاضة وعقلية المسؤولين ، في نظر المواطن ، لا تعرف التبديل ؟ وما دام المسؤولون لا يتغيرون ، بفعل الاقطاع العائلي وسيادة المال ، فالمواطن باقٍ على حاله يستثمره المسؤول ويستثمر المسؤول .

من التقاليد ، ايضاً ، تبدل المواقف ونقل البندقية من كتف الى كتف، فالتنكر شيمة والخيانة شيمة و« الصفح » شيمة . وثمة من يرجوك ويلوذ بك فتؤازره وتصحو – ان غفلت – وتجده يعمل من وراء ظهرك . والمجتمعات تنهار لانعدام الوفاء .

المجتمعات تنهار لانتفاء مفهوم الدولة . وعندما نرى عروشاً تهتز وانظمة تزول ورئيساً للدولة يُقسر في ايطاليا ، مثلا ، لاتّهام يقول ان طريقاً عاماً مر ، بايعاز منه ، بالقرب من منزله ، وان وزيراً في انكلترا يبعد عن منصبه لقبوله زجاجتين من الكحول ، ونلمس ان الموارد العامة في لبنان موارد لبعض الوزراء وان نوابـاً ومسؤولين ، بعد « حرب السنتين » ، يوحدون بين منافعهم الخاصة وخزينة الدولة ، ونسمع ان « سادة وكبراء » افادوا ، في صميم المحنة ، من مضاربات النقد فاشتروا وباعوا وحققوا الارباح – نكفر بالمناصب والنيابات والوزارات ونسلم بان مفهوم الدولة هو ، حقاً ، في وادٍ ونحن في واد .

*

الكتابة في الواقع اللبناني لا تعرض الواقع قبل المأساة ، وله افردنا مقاماً في دراسات ثلاث ، وفيه افضنا ، خاصة ، « بوحي من تاريخ الموازنة »(١) . والى رأينا – خاطئاً ام مصيباً – نلفت القارىء اذا شاء .

(١) من وحي تاريخ الموازنة ، ص ١٥٧ وما يليها .

وما نبغيه ، الآن ، هو الواقع بعد « حرب السنتين » . والواقع املناه باسماً وانحسر عن كل اشراق . واللبنانيون سئموا حالا لا نهاية لـه وآثروا الحد على ما عداه ، فما عساهم يفعلون وقد الفوا الاشواك ولم يبق لهم الا نفث المرارة وصراحة القول ؟

الوجه الجديد والتقنيون

للشرعية حقوق والدولة ظمأى . و« العهد » اطل بوجه جديد متحرر من النزاعات وعقد الارجحيات ورضي الناس . وما دامت المراكز موقوفاً بعضها على فريق وبعضها على فريق فالثغر باسم والقلب مفتوح . ومن آثر الصالح العام لا يتوقف عند المناصب او يرمق ، بعين الحاسد ، « المنصب الرفيع » . والمهم ان يملأ « المركز اللائق الرجل اللائق » . وخلنا ، لجسامة الاحداث ، ان المعاونين يكونون على مستوى الاحداث ، فالظروف الاستثنائية يواكبها رجال استثنائيون ، ولبنـان في الرمق الاخير ، والناس على انتظار . وأتى « التقنيون » . و« التقنيون » قـد يصلح بعضهم على كل صعيد ولا يوحي الطمأنينة على صعيد سياسي . وانتفاء الطمأنينة انتفاء مهابة . وانتفاء المهابة يشد من الصلابة فيعمل المتصلب على هواه ويعاود سيرة الحرب وينشىء « دويلته » ويدفع عنها المكروه . ويصحو الناس ويذهلون ويمضون في كل تيـار وفي كل ركاب ويغفلون الدولة وركاب الدولة ، فالدولة موجودة على الورق ، والحسم ضال ، والآمال ينعشها التردد ، والحزم نفتقده ولا نلقاه . ولئن سألت اجبت ان ليس بالامكان ابدع مما كان فالتوافق السياسي منتفٍ « والاحتلال » قائم ، والمخطط لم يدرك حده ، والمصير في مهب الرياح .

الحكم امام الواقع

من الامانة ان نعترف بان الموقف في دقته وتعقيده لم يحقق ما اراده الحكم . ومن الامانة ، ايضاً ، ان نقول ان بين اللبنانيين اكفاء كثراً وامناء كثراً يعرفهم الناس ويعرفون الناس . ولو جيء بهم معاونين للحكم ، ولهم ما لهم من العفة وقوة الحجة ، لما خاب الظن ولنظر اليهم المواطن نظرة الجد وانثنى عن الغي وهاب الحكم . ولو تحددت الاسس وفرضت على اللبنانيين لسهل الامر . فلا شيء اضنى من التردد ، والامور في موضعها والا فلا .

الانتقاد يسهل على من بعد عن الحلبة . والمبررات لا يلم بها كل انسان . وسلامة النية رائد . وما نأباه هو انتظار الاجماع ، فمحمد بن عبد الله لم يجمع عليه الناس . ومن قاتله هم اهله وعشيرته . والمسيح ، قبل محمد ، رأى « انه لا يكون نبي بلا كرامة الا في وطنه وبيته » (١) وان « اعداء الانسان اهل بيته » (٢) . والاجماع لو قام لقام في النظرة الى لبنان . وفرض الرأي من جانب الحاكم هو من مهام الحاكم . والحاكم ، ان فعل ، خضع له الناس .

الرد يعول ، كما قلنا ، على جهل الواقع . والواقع انى يكن لا يخرج عن احد احتمالين : تجزئة لبنان او الحفاظ على سيادته ووحدة اراضيه. ولبنان لو جزىء لما بقي لبنان ولوجب ان يطرح لإسمه البديل . وما نبحث فيه هو استمرار لبنان .

*

(١) متى ١٣ – ٥٧

(٢) متى ١٠ – ٣٦

بدهي ان ما يريده فريق قد يرفضه فريق.ولو قام التوافق لما وقعت الاحداث . والفرقاء ابرزوا المتناقضات . والحكم ، وحده ، كفيل بصيغة الوفاق ، فهو « الاطار الجامع » ، وهو ليس لفريق على فريق . اما الاستشارات ، عملا بكل مشورة ، فخروج عن المنطق ، فاللبنانيون اسلسوا قيادتهم لرجل غريب عن اطراف النزاع فعمل وجهد واضنى قواه . ولكن الاخلاص لا يكفي منفرداً . ولا بد من فرض الدواء . ولئن تعذر الامر وجب الجمع بين الفرقاء والمصارحة الى ابعد حد ، فابقاء الحقائق بين الطيات لا خير فيه . والحكم ان تحمل وزر التريث فثمة اوزار يتحملها آخرون . ولا بد من التفصيل :

أ ـ الاستقرار والامن فقدهما اللبنانيون طويلا وظلوا يسمعون ازيز الرصاص ويقرأون ـ باسهاب ـ عن قتل الابرياء . ومن سار الى عمله تلى الفاتحة او رسم علامة الصليب . ومن بعد عن عمله خط وصيته . ومن مضى الى الدراسة هلع قلوب ذويه . ومن رفض الجعالة تعرض لشتى الاخطار . ومن ولج مصلحة عـامة داس الانظمة والقانون . واللبناني كفر بذاته وبالقيم وخاب فأله في الامن وسأل عن السلطةووجد سلطة الجماعات . وكل يغني على ليلاه .

ب ـ الوفاق الوطني حدثوا عنه مراراً ، وبعضهم ، خارج الحكم لم يصدق فيه . والوزر اوزار . ولتعذر الوفاق عامل خارجي . واخبار الوفاق تتصدر الصحف ، والاذاعات تثير امرها ، والحكم بحثه مع « السادة والكبراء » بعد ان تنصبوا اوصياء . والحيرة فعلت فعلها . ومن لا رباط له لا سلاح له . والحال يسير على طريق السوء . والصمت لزمه الناس ، والناس رجوا الوفاق ونعوا الوفاق .

ج ـ الجيش ظل نواة جيش ، فلا معدات ولا اجماع . وهو تأثر بقذارة الاحداث فانقسم على نفسه والتحق بالفرقـاء . ومن نعته بالتخاذل نسي ان الجندي من لحم ودم ينتظر قراراً ولا يلقاه ، فالخلاف حوله دائر ، والخلاف من جوهر الصراع بين قيام « الجيش الوطني المتوازن » وعودة الجيش الى وضع قديم . والجيش ان كان لبنانيـاً فلا غضاضة فيه . واذا كان لا بد « من الجيش المتوازن » فليكن «الجيش المتوازن » . والعبرة هي في أمن المواطن وسلامة لبنان .

د ـ الدويلات نشطت في كل لبنان . والاحداث ، احياناً ، ابرزت اليها الحاجة . ولو لجأت الى الدولة لمـا فعلت شيئاً ، فالدولة عاجزة وجيشها لم ينتظم ومهامه في الثكنات . وهو انف الثكنات وود تجريد المسلحين من السلاح .

هـ ـ السمعة الوطنية في هوة . والعالم جاد علينا بكل نعت وقرأ عن المذابح وعرف بالمنكرات وشاهد رؤوس الاسرى على الأسنة وذهل لموقف رجال الدين وفقد الثقة في عودة الحياة الى مجراها القديم وآثر على شمس لبنـان الضباب والصقيع وادار ظهره « لمدنيتنا العريقة » و« لأبجدية احيرام » . وبعضهم ـ دون خجل ـ يزين ، الى اليوم ، مكاتب السياحة في امهات العواصم بمباهج لبنان كأن حدثاً لم يحدث وكأن اللبناني استغفر ربه وثاب الى رشده ومحا آثار العار وانصرف الى البناء .

*

الحروب تلزم ، اولا ، بحماية المدنيين . ولم نر ان المدنيين ، فـي الجانبين معاً ، نعموا برعاية المتحاربين ، فهم تعرضوا للمخاطر وشكوا

السلب والنهب وافتقدوا العون وشقوا الى ابعد حد ، فبدا لهم المحارب إلهاً او نصف إله يأمر فيطاع . وفي القلب انين . وما يشكو منه المدنيون لم يقرب اليهم مبادىء الحرب بل لعنوا « المبادىء » ولعنوا الاهداف وودوا من صميم الافئدة ان تعود الدولة . وعبثاً ينتظرون .

في الغرب لا يفهمون ان تطول الحرب ويجهلون الاهداف . ومن المّ بها اعتصم بالصمت . وقد يحبل فيصرّح بفاه من نار ويصب اللعنات. ولا تبدل التصريحات والتنبيهات والتحذيرات من رصاص القنص وقصف العشا . ولئن عددنا خشينا التعداد . واللبنانيون ان لم يتفقوا على صيغة التعايش فعلامَ يتفقون ؟

و ــ الهجرة على اتساع . واللبناني حزم امتعته وسافر الى كل مكان. واذا كان الحفاظ على لبنان يقوم على هجر لبنان فالكلام يفقد معناه ولا بد من اصطلاح جديد على معاني الكلام . واذا كان بعض اللبنانيين يتمسك بالاثرة او يبغي الاثرة فعليه ، اولا ، ان يعالج داء الهجرة . وما يعيب هو اننا نبغي « الغنم » ونأبى « الغرم » . والغنم ان نفعل ما نشاء، والغرم ان نتحمل التضحية ونرفض حوار العقل .

ما نريد هو الحفاظ على الارض ولو فسدت الارض . فنحن نسير الى الصحراء ونمضي الى افريقيا السوداء ونحط الرحال في كل بلد ونأبى البقاء على تربة لبنان . ولو ظل النزيف آخذاً مجراه لكان لنا ان ننزل عند حكم المنطق ونرضى بزوال لبنان . اما ان يخال اللبناني انه حر ، يهجر ولا يعود ويتمسك بارجحية الوهم فخيال على خيال . ومن اسر برأي مخالف اساء الى لبنان . وثمة من يبغي النقيضين وينسى ان امراض لبنان هي في المتناقضات .

ز ــ اعادة التعمير امانة الناس ، فالحرب شوّهت الجمال ، والقصف قوّض المنازل . واذا كان الوقت لم يتح للحكم ان يعمل على ازالة آثار القصف فالوقت اتسع ، من قبل ، لازالة آثار الحرب . وما يؤسف هو وضع المشاريع والتحدث عن العمل والانصراف الى طي الاوراق . ولكان من الاجدى ان يوجه الحكم همه الى ناحية واحدة هي ناحية الامن ويصب جهده على تحقيق الوفاق لا ان يمني اللبنانيين بالاصلاح والاعمار ما دام يدرك ان العقبات كأداء وان « ترميم الدولة » يفوق ما عداه . الا ان الحكم حسن النية . وهو ان المّ باشياء لا يدرك ما يحاك في الظلام ، فان اسقط قناعاً واجه اقنعة وان سهل امر تعسرت امور فالسوء آخذ مجراه والنيات معقودة عليه .

ح ــ الاعلام رفض الرقابة وتوجيهات الحكم . والتعددية ان كانت دليل عافية فهي ليست اشراقاً في بلد تنتابه الاوجاع . والاعلام عبر عن الواقع اللبناني في انقساماته ومتناقضاته فانشطر الى محطات اذاعية ثلاث ثم الى اربع محطات كل واحدة منها تبث ما تهوى . والمحطات اعتبرت نفسها مستقلة عن الدولة . وما بُثَّ يرّص الصفوف ، احياناً ، ولا يرصها دوماً .

الناس ، ايضاً ، افادوا من هموم الحكم . والحكم عاش علـى الترجح . واذا كان لا بد من المركب الخشن فلا انثناء عنه . والتاريخ لا يقسو على دافع الظلامة ولو كان الدفع على حراب « السرايا » . فالمهم ان تنتهي المأساة ويسلم الابرياء .

ط ــ المهجرون مأساة . ومن رحل عن قريته وحيه تاق الى العودة . والامل كان معقوداً على الاسراع فيها . وكأن الواقع الانساني لا يوخز

الضمائر ، وكأن المهجرين من فصيل ونحن من فصيل . وما عسى بعضنا يفعل لو قاسى ما قاسوا وعرف الطرد والحرمان ؟

المهجرون يستدعون النظرة الشاملة لا نظرة جانبية . فالمشرد مشرد والحقيقة لا تعرف التمويه . والحلول ان لم تكن عادلة تفقد علامتها الفارقة .

في رأينا ان عودة المهجرين تساعد على اعادة اللحمة، فالمزيج هو المزيج ، واللقاء خير من الفراق . ولو بقي من اللبنانيين اثنان على قيد الحياة لوجب ان يكونا من الجناحين . واذا كنا نشدد على الفصل بين الدنيا والدين ونسعى الى تشريع مدني اختياري في الاحوال الشخصية وننشد التزاوج بين المسلمين والمسيحيين ونبغي وحدة الشعور والدم فكيف نبقي على الفواصل البشرية ونفرق بين اللبنانيين ؟

المصارحة

رسمنا خيوطاً والخيوط لا تشمل كل شيء . ولو حاولنا ان نلم بالواقع اللبناني ، كاملا غير منقوص ، بعد حرب السنتين لفاتتنا اشياء . وما أثرناه يتراءى ، من نظرة عابرة امام كل مواطن . وامام كـل مواطن يمثل ، ايضاً ، شبح الغلاء وشبح الفوضى ، والشبح اسود . واذا كانت اطراف النزاع تبغي استمراراً فيه فعلى كل انسان ان يتدبر امره. ولعل بعضهم يبغي زوال لبنان . واذا كان الله « عليماً بذات الصدور » فالناس لا يتملكهم الغباء . والغباء ان نخال ان العشا يغشى جميع الاعين وان نصرخ ان وجب الصمت ونصمت ان لزم الصراخ ، ان نبكي ميتا ونرفس الموتى، ان نشكو من زلة ونغفر زلات. وثمة مسؤولون في دولتين غربيتين ضجوا من اوضاع لبنان وحمّلوا وزر الاحداث فيه

لبنانيين معينين (١) . والكرسي الرسولي ، نفسه ، دعا الى اخمـــاد الفتنة(٢) . ومن حقنا ان نسائل ونسأل ، فالارواح ازهقت وتزهق ، وابواب العمل تُسد" او سُدّت ، والبلد يدور في فراغ . ولا بد من تحديد المسؤوليات . والتحديد واجب وطني ولا يترتب على فرد من الافراد .

*

لا نرى ان لبنانيين محددين هم المسؤولون ، وحدهم ، عن نكبة لبنان . وما ذهب اليه بعضهم في الغرب تجاهل عصبية الفرقاء واخطاء الفرقاء . فاللبنانيون ، جميعهم ، مسؤولون عن النكبة . والذهنيـــة والرواسب تتحمل عنها التبعة . والاحكام ان ادركت جوانب واغفلت جانباً رسبت في ميدان التعليل . امـــا اسرائيل فلا يضيرها ان تغرق

---

(١) وزير خارجية فرنسا ، دو غيرنغو ، اسهب وافاض وعاد بأحداث لبنان الى التقسيم والأرجحيات وقال ان التقسيم وبقاء الأرجحيات ضرر ووهم ، وأن الأمل في تدخل فرنسا او في تدخل المجتمع الدولي ليس وارداً وخلص الى ان المصارحة بالحقائق هي المدخل الى الحل .

Ministère des Af. Et; Bulletin d'inf; 17 Oct. 1978.

– نائب رئيس الجمهورية الاميركية موندال ووزير الخارجية فانس ، وكبار معاونيهما وجهوا ، تباعاً ، التحذيرات وأيدوا الوزير الفرنسي وشددوا على وحدة لبنان ونوهوا بتدخل اسرائيل .

– الرئيس الأميركي الاسبق فورد صارح في ١٥ نيسان ١٩٧٦ الرئيس اللبنـــاني ، آنذاك ، ان ما تستطيع الولايات المتحدة ان تفعله هو اجلاء الموارنة عن جبل لبنان .

Le Monde Diplomatique, Novembre, 1978.

(٢) – بعد ختام الدراسة قرأنا في الصحيفة الناطقة بلسان الفاتيكان ان قداسة الحبر الاعظم ، البابا يوحنا باولوس الثاني ، اشار في رسالة مذاعة اثر انتخابه الى « ان موقف الكنيسة من المسائل الساخنة في العالم يتقرر ، فحسب ، من زاوية دينية وخلقية . » والرسالة حملت « الى لبنان وشعبه تمنيات الحبر الاعظم بالخير والسلام. »

L'Osservatore Della Domenica, 5 Novembre 1978.

السوريين واللبنانيين في « وحول لبنان » ، فهي تسعى الى صالحها ولا تسعى الى صالح لبنان . وثمة من قال ان الصهيونيين يدفعون بالموارنة الى الانتحار (١) . وما نراه ان تلاوة « فعـل الندامة » ان وجبت ، فالتلاوة واجبة على جميع المواطنين .

اللبنانيون معنيون بالقول الصريح وبعضهم قال شيئاً وبطن اشياء . واذا كانت النية منعقدة على التقسيم او على اللامركزية — تعذر امرهما او امكن — فمن الواجب ان نكشف النية ، وفي الامر نفع . واذا انطوت النية على تذويب لبنان في اطار كبير ، فالمعرفة خير من الجهل . واذا كانت النية الابقاء على الارجحيات فلا بد من الجهر . واذا كان بعض اللبنانيين يبغي انتقال الارجحيات اليه فالفأل يخيب . وكل ارجحية الى زوال . وما تكسبه اليوم تفقده في الغد .

ما نريد هو ان نعرف ما نريد وان نصارح فيه . ولئن عبنا على الحكم مواقف فللحكم حسنات اولاها النظرة الى الواقع من منظار الواقع والرغبة في الابقاء على وحدة لبنان . ولكل شيء خاتم . ولا بد من الخروج من دوامة الحيرة وعبث الاهواء . ولا بد من الحزم ولو عزّ الحزم . ولا بد من فرض الآراء .

الامن ورسالة العرب

فرض الآراء يسير جنباً الى جنب مع توفر القوة . ولبنان لا قوة له . ومعظم القوات على الارض اللبنانية قوات غير لبنانية . والتساؤل يدور حول نظرة اللبنانيين الى الرئيس اللبناني اذا استعان بقوات غير لبنانية

---

(١) Le Monde Diplomatique, Op. Cit. Novembre 1978.

على فريق من اللبنانيين او على جميع الفرقاء . ولعل دقة الجواب شدّت العزائم ، فاللبنانيون يعرفون ان وراء الأكمة ما وراءها . ولكن الحكم ما دامت الاستعانة بالجيش اللبناني ليست ، اليوم ، واردة في نطاق فسيح — هو امام خيارين : اما الطلب الى القوات العربية بالتدخل ، واما الايعاز اليها بمغادرة لبنان . وطلب المغادرة قد يثير زوبعة وقد يعيد الحرب الى الساحة ، وقد لا يتقيد به بعض العرب . الا ان للبنان الحق في ان يرجع القوات العربية الى بلادها ، فهي جاءت « بناء على طلبه » وبناء على طلبه ترحل . واذا كان صحيحاً ان لبنان طلب القوات العربية فلا بد من ان يبني لبنان على الشيء مقتضاه ، وان تكن طمأنة المواطن وان يكن فرض هيبة القانون لا يسيغان قصف العشا وايقاع الضحايا وتدمير الاحياء ، وكلاهما ليس من « رسالة » العرب الى لبنان.

اللبناني يرفض الاحتلال ويرحب برسالة العرب . وما نرجوه ان يبقي العرب على صفاء الرسالة وان يظهروا من سعة الصدر ما يحمدون عليه . وسعة الصدر شيمة عربية عندها يتوقف الناس وتوقف الشاعر . والشاعر من رهبان لبنان :

« كانت العرب ارحب الناس صدرا
ولدى الضيم أصلب الناس عودا ! »

الرحابة والصلابة تسيران جنباً الى جنب . والصلابة تقوم في وجه العدو . واللبنانيون أقربون ، والاقربون اولى بالمعروف .

*

ما نخشاه ان ننتقل من سوء الى سوء ، ونطالع ، كل يوم ، اخبار الدمار . وما شاهدناه وقاسيناه يغني عن قراءة الانباء . ولا بد من تجريد الناس من السلاح ، في بيروت والشمال والبقاع وفي كل مكان .

التجريد من السلاح لا استثناء فيه . فاما ان ينزع السلاح من ايدي العامة واما ان يبقى معها . ولا سبيل الى انصاف الحلول . ومن حق الدولة لا بل واجب عليها ان تتمتع بالسيادة الكاملة . والدولة ان قضى الظرف تحرّم وتبيح . وهي « دولة مساندة لا دولة مواجهة » . وما يسيغه العرب على ارضهم نرضى بمثيله ، وما يأبونه نأباه ، فلبنان في طور الاحتضار ، والنقاهة دخلها وعاد منها ، والعبء مشاركة ، وهو لا يترتب ، فحسب ، على لبنان .

مواجهة الواقع

الحرب خلفت آثاراً تنعكس على حياتنا كل يوم . والمأساة تتجدد بشكل او بآخر . وانى تكن المخططات فللمخططات حدّ . ولو لم يشكل لها اللبنانيون تربة خصبة لما « اينعت » وقادتنا او كادت الى الهلاك . ونحن ندرك ان ارادة الاقوياء تغلب ارادة الضعفاء وندرك ، ايضاً ، ان تلاقي الارادات يلاشي المعارضة ويفسح في مجال الوئام . وللبناني ان يلقي بوزره على نفسه اولا . والدول . ، في الآونة الاخيرة ، اعربت عن موقفها بجلاء . وجميعها شدد على انتفاء التدخل والتدويل . ولا بد لنا من ان نلمّ بكل شيء . والخير ينبع من المعرفة ولا ينبع من الجهل .

*

الحرب لم يكن بوسعها ان تشير ، تخصيصاً ، الى هوية جميع من قتل وخطف على الهوية . والحرب عشواء . والرواسب تعلق في الشعور الباطن ، والسوء يتربص الدوائر بالابرياء . والابرياء يقعون فريسة الاقدار وضحية الجنوح الى الثأر فيدفع الناس ثمناً لجرم لم يقترفوه ،

وتطول السلسلة وتكثر الاحقاد . وما لا تعالج الامور بعزم فالختام بعيد. وغاية الحرب ان تمثلت في جر الويلات على الابرياء ، قبل الحرب وبعده ، فتحقيق الغاية لا نقاش فيه . و« بلد الاشعاع » واقع ، الى زمن ، في مكامن الخوف . والنفوس تبغي الهداية ، والبحث عنها يطول.

امكانية التدخل الخارجي

التدخل ان كان له ان يحدث قد يحدث من جانب الدولة العبرية ان مضت مصر في محاولتها وصمدت سوريا في وجه مشاريع التسوية على ساحة الشرق الاوسط . وما نراه ان الدولة العبرية قد تتردد فيه ، فالحرب على ارض لبنان تحيط بها الصعاب ، والخسائر فيها كبيرة ، والحرب « الخاطفة » لا وجود لها في المدن الآهلة والجبال الوعرة . ويقيننا ان التدخل الخارجي ، في حال حدوثه ، لن يخلو من المضاعفات الدولية وان لبنان هو الخاسر فيه ، دماراً مزيداً وتضحيات بشرية كبيرة . ولا ندرك مدى تأثير التدخل الخارجي المباشر على الكيان اللبناني بل ندرك فقط ضرره على لبنان .

*

النتائج ليست من فصيل واحد ، والسلبية لا تسود على اطلاق . واللبناني ، بعد المحنة ، يدرك ان الاعتماد اعتماد على النفس فلا ينخدع بوعد او يغتر بزيف ، فالمهاجرون في واد والوطن في واد ، والدول — وفي القول تكرار — تسعى الى مصالحها ، ولها من الهموم ما لا خلاف فيه . وبعضها يأبى مساساً بلبنان ويردد انه لن يجرد الحملات « لدافع خاطىء » او لدافع ثانوي . ومن حسنات الاحداث ان نشيح البصر عن

سراب الوعود . ولعلّ الحرب تطل بنا على مفهوم صحيح نضع معه الامور في نصابها ولا نخرج بالاشخاص عن حد سوي . وان لم نفعل نكون قد ادينا جعالة الحرب ولم نربح شيئاً . وعسى الحكم يأخذ المعول ويكثر الهدم فيؤدي الامانة ويطمئن الى حكم التاريخ ويطمئن، اذا شاء، الى حكم اللبنانيين . واللبناني لا يعوزه الذكاء . وهو يتكيف وفقاً لكل ظرف . والظرف يدعو الى الوفاق الوطني ، فالتعايش قدر وسنة وهو قدر اللبنانيين .

الوفاق الوطني

القاسم المشترك

الوفاق الوطني ننظر اليه من زاوية خاصة ولا نعرض فيه صيغة التعايش من افق سياسي ، فالصيغة لنا فيها رأي يطل على العلمانية ، وعليها شددنا في دراسات ثلاث ، وان كنا ، في مرحلة اولى ، نرى ان الغاء الطائفية السياسية اساس لا بأس فيه . وفي رأينا ان العلمانية والعروبة ماضيتان في طريقهما ومتجاوزتان الاشواك وان النكسات ، امامهما ، من سنة المد والجزر . فالتطور يغالب ويغلب . والتطور يقود الى المفهوم القومي ولا يربط بين القومية والدين وبين الدنيا والدين .

ما يستوقفنا ، الآن ، هو القاسم المشترك بين اللبنانيين وبصورة اوضح الحدود التي يشكل تجاوزها مساساً بالوفاق الوطني . ولا بد ، في رأينا ، من الاطلالة على جوهر الحقوق عند المسيحيين والمسلمين ومن الاطلالة ، ايضاً ، على اسس التفاهم بين العرب واللبنانيين .

الوفاق اللبناني هو الباب السليم لحل الازمة التي يتخبط فيها الشعب اللبناني . وانى تكن الاوضاع الخارجية وتكن المؤثرات فالحل هو بين

ايدي اللبنانيين . وبعض اللبنانيين ، لسوء الطالع ، يحدث عن العامل الخارجي ويدع ، جانباً ، العامل اللبناني كأن لا ثقة له بنفسه وكأن ما تراه العين ويدعو اليه المنطق سراب على سراب . فلو توافق اللبنانيون على صيغة العيش المشترك وتبنوا القرار الواحد للجيش الواحد ووقفوا من النزاع العربي الصهيوني الموقف الواحد لعاد الاستقرار الى لبنان وانتهت الازمة ، فالوفاق الوطني ليس رهناً بارادة الدول او مرتبطاً بحل شامل لاوضاع المنطقة . والدول ، نفسها ، دعت اليه ونوهت بأن الحل شأن لبناني صرف وسبيل لا بد منه ان اردنا خاتم النزاع . والامر لا يعني ان اضطراب الاوضاع ، خارج لبنان ، لا ينعكس على حال لبنان بوصفه كياناً قائماً في مواجهة العدو بل يفيد ان الاستقرار الداخلي منوط ، الى حد كبير ، بارادة اللبنانيين .

المسيحيون

المسيحيون يبغون حفاظاً على لبنان ومكانة وطدها دورهم فيه ، فالعالم ، شئنا ام ابينا يربط بين لبنان والمسيحيين . وهو ، ان حدّث عن لبنان ، لا يغفل المسيحيين . وكأن لبنـــان والمسيحيين توأمان . وبعضهم ، قديماً ، عرف لبنان بجبل لبنان . وسكان الجبل انتموا ، اصلا ، الى طوائف وفئات برز فيها الموارنة في نظر الغرب . والموارنة ، وان لم يشكلوا في الجبل اللبناني ركيزته الوحيدة ، سعـوا الى الغرب ووطدوا معه الصلات . والصلات ، ايضاً ، ربطتهم بالمسلمين عرباً وغير عرب . والحملات التي جردت على جبل لبنان مؤشر على الوجود الماروني ، فالموارنة كانوا هدف الحملات الاول وان سكن الجبل ، الى جانبهم ، الدروز والشيعة واقام في الجبـل ، ايضاً ، النصيريون

والسنة . وبجبل لبنان نعني سلسلة الجبال المعروفة جغرافياً وتاريخياً بالجبل اللبناني الممتد بين الجليل الاعلى وجبال « العلويين » .

المسيحيون في جبل لبنان واقع قائم ، والموارنة يشكلون فيه اكثرية المسيحيين وان يكن المسيحيون ، من غير الموارنة ، يفوقون الموارنة عدداً في لبنـــان ، جبلا ومدناً وسهولا وسواحل . ولكن الاعداد كثرت ام قلت ، لا تحول عند المسيحيين دون شمول النظرة في واقع معين ، فالمسيحيون يتفارقون في امور ويجمعون على امور . وما يجمعون عليه ، في اطار الواقع القائم ، هو الحفاظ على وجه يعكس حضارتهم وانتماءهم الديني ويسلم شعورهم ومكانتهم ويصون حقوقهم ورباطاتهم مع الغرب (١) ، على ان لا يتأثر الواقع بنسبة الاعداد ، فالاعداد تتقلب والمفاهيم ان ارتهنت بها قد تقرع النذير وتودي بمكانة المسيحيين .

ما يجمع عليه المسيحيون لا يشكل ، في نظرنا ، مدار خـلاف ، فالتمسك بالحضارة المسيحية هو من اختصاص المسيحيين ، وهو في ذاته ، مدخل وفاق لا سبب فراق ، فالحضارة المسيحية تسامح ومحبة ومساواة ، وهي تطل على التطور الروحي والمادي وتوافر التقدم وتوسع الافق . ولا نرى ان المسلمين ، في لبنان ، ينثنون عن التقدم ويؤثرون عليه القشور . ولا نرى ، ايضاً ، ان المسيحيين ان بغوا السلامة لانتمائهم الديني والحضاري ، يرتكبون ذنباً بحق المسلمين. فالاسلام لا يكره في الايمان ، والعرب ، خارج لبنان ، قد يعزف بعضهم عن التفريق بين دين ودين .

المسيحيون ان حاوروا الغرب فالغرب حاوره المسلمون وحاوره

(١) الغرب ، في مفهومنا ، هو العالم الغربي في شقيه الشرقي والغربي .

فخر الدين . وفخر الدين انشأ معه الصلات ووسع براءات (١) العثمانيين الى الفرنجة ومضى الى الغرب ومكث فيه واجرى مع امير توسكانا فرديناند الاول « حامي الموارنة » ، اتفاق تعاون وطرح عليه وعلى الكرسي الرسولي وعلى ملك اسبانيا ، من بعد ، فكرة تجريد حملة مشتركة تستعيد الاراضي المقدسة وعلى رأسها قبر المسيح(٢) .

*

مكانة المسيحيين ، في لبنان ، ليست وليدة ظرف آني ، فللمسيحيين كيان يعود الى فجر المسيحية وتؤكد عليه الرباطات الدينية والانتماءات الفكرية وتبرزه النزاعات المختلفة ان شئنا سعة التأكيد . فالجبل بشرته المسيحية في اول عهدها . والمسيحية سارت الى السواحل ورسخت فيها وادت رسالتها بعد الفتح الاسلامي . وما انتهى الى الحقائق لا جدال فيه . والاوضاع لو كانت طارئة لجاز فيها النقاش . والنقاش ، مثلا ، يجوز في الوجود الصهيوني في فلسطين المحتلة لظلامة الوجود ولا يجوز ، في لبنان ، في الواقع المسيحي . وان سلمت المكانة بطل الحديث عن « الخطر » الطارىء على الوجود المسيحي . وان اريد بها شراً كثر فيها الحديث . واملنا ان تسلم المكانة وتنتفي الاخطار .

الحقوق تنبع من الوجود . ولولا الوجود المسيحي لما برز الكيان اللبناني ولما عرف لبنان حدوده المعلنة ، ففرنسا ، بعيد الحرب العالمية الاولى ، « منحت » على حد ما اشرنا اليه ، جبل لبنان ، سهولا وموانيء وتعهدت بسلامة لبنان . والتعهد ، في حينه ، شمل لبنان في جناحيه المسلم

(١) Capitulations.

(٢) الخوري بولس قرألي : فخر الدين ، ص ١٧٨ .

والمسيحي . وما يستوقفنا ان للمسيحيين حقوقاً ثابتة . والحقوق الثابتة ليست الحقوق « الجامدة » ، فالجمود يدفع التطور ويدفع عجلة التاريخ ويبقي على ارجحيات يأباها العاقل . وما يأخذه المسيحيون يسوغ لغير المسيحيين . والمهم ان ينتفي الشعور بان مرافق لبنان وقف على المسيحيين بوصفهم مسيحيين . ولا شيء اجدى من المساواة . وخير ما نرجو ان يدرك المواطن ان المناصب رهن بالكفاءة وانها في متناول جميع اللبنانيين ، فلكل دوره ومجاله ، ومجال المسيحيين رحب . ولو نوزعوا فيه لما ساغ النزاع .

*

النزاع ينتفي امره في مجالات الفكر . ومن شاء ان يجمع الى التراث العربي تراث الغرب وان يطل على نشاط الفكر فيه لا يعبث بواجب قومي ، فالمعرفة شيء والقومية شيء . ومن يبغ المعرفة يمض على دربها . وهو يكسب ويكسب . ولو تحجر اللبنانيون عند تراث معين لذابت معالم شخصيتهم في معالم اخرى . وهم لو لم يسهموا في الاستشراق(١) ويساعدوا في نهضة العرب لانحسر دورهم ، فان ادعوا حقاً فلا يدعون بطلا . والبطل مرفوض ، اما الحق فلا مساومة فيه . ولو طلب الينا التخلي عن انفتاحنا الحضاري لجابهنا الطلب بالرفض ، فالعربية لغتنا وآداب العرب ادابنا ، والسعي الى المعرفة انى يكن مصدر المعرفة لا غضاضة فيه . و« الازدواجية » ان عابت في ميادين فهي لا تعيب في مجالات العلم .

(١) الاستشراق هو دراسة لغات وعادات وفنون وعلوم وآداب وديانات الشعوب الشرقية .

الانفتاح رباط جامع . وثمة صداقات لا تخلّي عنها وعلاقات روحية امرها يفرض نفسه ، وصلات قامت عبر التاريخ لا بد من الحفاظ عليها . والصداقات والعلاقات ان فقدت انكمش الانسان وعاش في عزلة ، والعزلة ليست من قدر اللبنانيين . ولا نرى ان العرب وهم ، اليوم، يجوبون العالم ، يبيعون ويشترون ، يسوحون ويقابلون، يعيبون صلاتهم على اللبنانيين . وما نأباه ان تعبث الصلات بالواجب القومي وتفصم العرى بين اللبنانيين .

*

ما يجمع عليه المسيحيون ليس خروجاً على المنطق . وما يتفارقون فيه ، احياناً ، هو النظرة الشاملة ونزاعات حول سراب الاثرة بين فريق يؤمن بالاولوية وفريق يرفض التبعية ويبغي المساواة . والنزاع توافه تدني بعض المسيحيين من الجناح المسلم فيرى انه الى جانبه « في تحمل الصدمات » ودفع الافتئات . وثمة مسيحيون لهم ، على غرار ثمة مسلمين ، مواقف قومية . وهم يشعرون شعوراً عربياً وان اسفوا لجدار الدين ، ويتحسسون الخطر المصيري ويدركون ان سعة الافق اجدى من صرامة النظرة . والنشأة في مجال رحب يعرف التمازج البشري تدفع الى رحابة الصدر . وفي الامر اطلاق ان جاز الاطلاق .

المسلمون

الجناح المسلم يبغي المساواة الناجزة ، والاساس سليم . وخير المساواة ، في رأينا ، مطلب مسيحي لا مطلب اسلامي . والمساواة هي في التزاوج المتبادل بين الفرقاء . والفكرة يعتمدها المسيحيون . ودثر المفارقات يدعو الى تشريع اختياري موحد في الاحوال الشخصية يعارضه الاسلام.

والمسلمون يعتمد بعضهم وفرة الاعداد ويهمل الكفاءات . والكفاءات لا بد منهـــا في جهاز الدولة . ولا سبيل الى اناطة المهام بمن ليس اهلا لها . ويسرنا ان يطل جميع المسلمين على المعرفة والعلوم وان يتبوأ المسلمون المناصب ، اكرمها وارفعها . وما نعرض عنه هو الانكفاء الفكري والعلمي عند كل انسان . وما نشدد عليه انتفاء الاثرة وانتفاؤها عدل ، فاللبناني لبناني ، ومن رضي بالغرم حق له الغنم . وعلة لبنان قامت طويلا على « عقدة الرفعة »(١). و« العقدة » لو حللناهـــا لوجدنا انها « عقدة نقص» (٢) لا « عقدة رفعة » .

الجناح المسلم يريد ان تشعر شعوره في كل امر ، والاطلاق صعب . فان فخر المسلم « بالكعبة » فالامر طبيعي . وما يخرج عن الحد الطبيعي هو ان تحرج في شعورك الشخصي . ومن الافضل ان نحيا بعيداً عـــن الاحراج . فمن الامور ما يستوجب وحدة النظرة . والمغالاة من اسوأ الاشياء وهي استفزاز ، والاستفزاز ليس مؤشراً على الطمأنينة بـــل يبعث الريبة ويوغر الصدر .

*

المسلمون يريدون ان تتبوأ الثقافة العربية مركز الصدارة في لبنـــان . ونحن ، على غرارهم ، نرى ، في الثقافة العربية عوداً الى اصالة الجذور ومنهلا لا يعرف النضاب . والآداب العربية والبناها ولا نزال على غير تفريق بين الجاهلية « والمثلث الاموي » والعصر العباسي وعصر النهضة . والاطلالة على الفلسفة «العربية» — عربية صرف ام اسلامية — تجذب

---

(١) Complexe de supériorité.

(٢) Complexe d'infériorité.

وتنير . ولكن الاطلالة والموالاة وان رحبتا ، لا بد من ان تماشيا روح العصر ، فالادباء كثر والفلاسفة عديدون . ومن بغى التخصص لا حرج عليه . ولا سبيل الى « الوقوف على الاطلال » واغفال تطور الفكر . ولا سبيل ، ايضاً ، الى ابقاء « ابي نواس » سيد المجون ، في منهج الدراسة على الزام فيه . وامره ، على ما ترامى الينا ، شكل ، منذ سنوات ، مدار خلاف فاعترض عليه بعضهم وتمسك به بعضهم رغم التناقض بين المجون والدين . وابو نواس شعوبي لا عربي . ومن شاء ابا نواس له ابو نواس . ولكل في الأدب رأيه ، والآراء آراء .

بيد ان آداب العرب وعلوم العرب لا تحول دون التلفت الى الحضارات ، فان تحجر المسلمون عند التراث العربي خالفناهم رأياً ، وان اعتمدوا التراث العربي وتطلعوا الى كل تراث كنا واياهم على وفاق . ومن حقهم ان يطلبوا الى غلاة المسيحيين ان يعودوا الى الاصالة العربية وان يؤثروا العربية على كل لغة فلا تبدو العربية ، في بلدها ، دخيلة ولا تسود اللغات الاجنبية في كل مرفق . فالعربية نطق جميل وهي لغتنا . واذا كان العالم ، شرقاً وغرباً ، يسعى الى العربية ويخص تعليم العربية اهتمامه الوافر فالتنكر للعربية في بلد عربي لا سلامة ولا كرامة فيه . وفي يقيننا ان الحفاظ على العربية ليس فقط امنية المسلمين بل هو ، ايضاً ، امنية اعداد وافرة من المسيحيين . ولا نرى ان لفئة ان تفرض رأيها على فئات . فمن بغى الغرب عاش فيه . اما الحياة على الارض اللبنانية فتفرض احترام العربية والنهوض بها الى مصاف وطني .

*

المسلمون يريدون للبنان وجهاً مسلماً ، والوجه المسلم يقود اليه المنطق ، فالمسلمون ، في لبنان ، واقع قائم واعدادهم وافرة وان تفرقوا ، على

غرار المسيحيين ، شيعاً وفئات . والوجه اللبناني المسلم يكمل الوجه اللبناني المسيحي . وهذا قدر لبنان لا بل هذا رونقه وهذا جماله . اما ان نضفي او نحاول ان نضفي على لبنان الوجه الواحد فاخلال بـ« التوازن » لا بل اخلال بالواقع اللبناني . وما يأسف له الناس هو اهمية المظاهر ، لا الوجه الاسلامي الحضاري . فثمة ارض على الطريق العام ، في بلد معين ، يدفعون ثمنها ما يسيل اللعاب تشييداً لمسجد يضفي — في تقويم خاطىء — الصبغة المعينة على المكان . وثمة معهد ديني يقام في وسط محدد تشديداً على مظهر عديم . ونحن نطيب ، معاً ، للمعهد والمسجد ونرتاح للتقوى والعلم ونأسف ، فحسب ، لأثرة المظاهر والتنافس المثير . وفي عرفنا ان الوجه الاسلامي هو احترام الاسلام والحفاظ على التراث الاسلامي .

استفزاز المظهر ليس وقفاً على المسلمين ، فللمسيحيين فيه باع طويل . وثمة من خفق قلبه وامسكه بيديه ، لبضع عشرة سنة خلت ، عند الطواف في بيروت بتمثال العذراء . والعذراء وان اكرمها المسلمون فالطواف ، على شكله الحاصل ، لم يكن من الحكمة . والدليل جاء سريعاً بعد يومين بطواف المشاعل عشية عيد المولد فطارت شرارات ونتج حريق وكثر قضوا نحبهم او شوهوا فيه . ولا نرى ان « المشعل » و« التمثال » هما من جوهر الدين بل نجد انهما تحدٍّ يعكس الشغف « بالمظهر الديني .»(١) ولا بد في كل وفاق وطني من العزوف عن المظاهر المثيرة ، في الاذاعات والنشرات وفي كل مجال ، فالوفاق الوطني يرفض التحدي ، والتحدي اداة خلاف ، والخلاف والوفاق على طرفي نقيض .

(١) Religiosité.

الوفاق الوطني نبحث له ، الآن ، وجهاً يغيب عنه الفصل بين الدنيا والدين . وفي غياب الفصل نسعى الى حلول تدفع السلبية وتدني اللبنانيين من اللبنانيين . وما يبعد عن السلبية يخطو نحو الوفاق . والسلبية ، احياناً ، ان يرى المرء من الامور وجهها الواحد وان يتمسك بما يرغب فيه ويعرض عن الآخرين . والناس لا يسير جميعهم في اتجاه معين بل هم « ملل ونحل » . وما يتفارقون فيه ويلتقون حوله يعود الى الطبيعة البشرية ، والطبيعة البشرية تجمع ، في ذاتها ، بين النقيض والنقيض .

*

المسلمون يشدد بعضهم على وجه لبنان العربي ايماناً به او اعراضاً عن المفهوم اللبناني او انتماء الى الاسلام العربي او ردّة على اسراف فريق من المسيحيين في انفتاحه على الغرب . وفي يقيننا ان التشديد على وجه لبنان العربي هو في محله انطلاقاً من الايمان بارتباط لبنان ببلاد العرب ، فالتاريخ جامع واللغة وثاق والتقاليد رباط والمصير يشد بين الناس . ومن آمن من المسلمين بوجه لبنان العربي ليس منعزلا ، فالتجاوب يلقاه عند مسيحيين كثر . ولئن اعرض المسلم عن المفهوم اللبناني « الفينيقي » فثمة من يرى ، بين المسيحيين ، ان التراث الفينيقي تراث انساني ، وان المفهوم الفينيقي ليس رابطة قومية . والرابطة ، ان جازت ، جازت لأهل السواحل مسلمين ومسيحيين ، ففينيقيا نشأت فيها ، مدن وجماعات حملت مشعل المدنية ولم تغرق في مفهوم قومي . والمفهوم الفينيقي ، في نظرنا ، شبيه بمفاهيم حضارية قامت في نقاط من العالم وانقرضت وحدّث عنها التاريخ .

وجه لبنان العربي يطل ، بعض الشيء ، على الانتماء الاسلامي العربي.

والمسلم ان فخر بانتمائه الاسلامي لا يرتكب اثماً . واذا كان المسيحي اللبناني فخوراً بسدة بطرس وبالكرسي الرسولي او متعلقاً ببطريركية الفنار في القسطنطينية او متفاعلا مع مقامات المصلحين في اوروباواميركا فلا غضاضة في ان ينظر المسلم الى مكة والمدينة ويرنو الى كربلاء والنجف ويولي مقاماته الدينية ولاءه الروحي . وما يضير ان يطغى الانتماء الديني على الشعور الوطني وان يخال اللبناني ان الولاء للتربة يمر برغبات العلماء في مكة والنجف وبرغبات «اهل الكلام»(١) في حاضرات العالم المسيحي وفي صوامع الاديرة . وتبقى الردة ، والردة انفعال . والردة لمجرد الردة ، لا تسير في طريق سليم . وما نطيب اليه ان يسير اللبنانيون الى الشرق والغرب وان يدركوا « حسنات المياه ونداءات الصحراء » فيبعدوا عن العقد ويروا الجمال حيث يتوافر الجمال .

العرب والوفاق الوطني

ما عرضناه حده حسن النية لا حد سواه . والحديث عن الوفاق الوطني يبقى حديثاً ما لم يؤمن به الفرقاء . والايمان ارادة ، وان انتفت الارادة تعذر الوفاق .

الواقع اللبناني يعيد اللبناني الى ضرورات الوفاق ، والوفاق شأن لبناني وان على قدر شأن عربي . فالعرب يواجهون خطراً مصيرياً واياماً حوالك. والتصدع ، عندهم ، في الصف الواحد قد يصبح واقعاً . وليس بالامكان ، في ظل المعطيات القائمة ، ان يغالبوا العدو ويغلبوه . وهم لو استطاعوا لحال دون الغلبة الظرف الدولي . وما يترتب عليهم ،

(١) Théologiens.

الآن ، ايقاف المد الصهيوني . والمراحل ، من بعده ، تعقب مرحلة اليوم . والحداثة ان اخذ بها العرب كاملة عبدت امامهم الطريق. والعرب لا يرضون بان يدور لبنان في فلك الدولة العبرية ، وما يثير الدهشة ان نسعى الى صداقة العرب ونهمل وحدة المصير العربي . فاما وحدة المصير واما معاداة العرب . ولبنان لن يبحث في المساعدات ويخطط لاعادة التعمير ويرقب خاتم الاحداث بعيداً عن الوفاق بين اللبنانيين .

الا ان التفاعل المصيري شيء والانزلاق الى سياسة المحاور في العالم العربي شيء آخر . فاللبنانيون ليسوا طرفاً في سياسة المحاور العربية ولا يساندون الفرقاء في نزاعاتهم الداخلية ، فالخلافات تشق لحمة العرب، والتيارات تعمل في صفوفهم عملها ، ولا حرج على اللبنانيين ان ابقوا على حيادهم فيها وصادقوا جميع العرب واهتدوا بهدي صالحهم الوطني. ولو تفاعل اللبنانيون مع النزاعات العربية لوجب عليهم ، من فترة الى فترة ، نقل البندقية من كتف الى كتف . وسرعان ما يتصالح الفرقاء ويقف اللبنانيون على حافة خطرة . ومن ناصبته العداء لا ينسى ميلك عنه وان نسي عداوة صاحب العداوة الاساسي .

التبعية والتنسيق

من المسلم به ان لبنان يتفاعل ، في بيئته الحضارية اولا ، وان الواقع شده الى العالم العربي . والعرب لو قاطعوا لبنان لشلّوا حركة اللبنانيين . والمنطق ، من نظرة عابرة ، يؤكد على التنسيق بين لبنان والعرب . والتنسيق شيء والتبعية شيء آخر . والتبعية امرها مرفوض .

لبنان ، في العالم العربي ، له اوضاعه الخاصة ، ولا يمكنه ان يغفل علاقاته مع كل العرب ولو تناحر العرب . ولا بد من استقلال المواقف،

احياناً ، ولا بد من رحابة الصدر . والاعباء ان فرضت لعلة وبلا علة خرجت عن المنطق واحرجت الناس .

لبنان ودوره الطليعي

لبنان رائد ومنار ، يفرض الكلمة ولا يتلقى الكلمة ، يحضن قضايا العرب ويلتزم بما يجمع عليه العرب . والالتزام في القضية المصيرية الكبرى لا خلاف فيه . ولئن قاطع العرب نظاماً معيناً لتعامله مع العدو قاطعه لبنان . ومقاطعة النظام ليست تنكراً لبلد النظام . ومن يرجع الى صفه الطبيعي يهرع اليه الناس .

القضية الفلسطينية فرضت نفسها ، وان على تفاوت ، على الواقع العربي . وهي ، في كل بلد عربي ، تعبث بالوفاق الوطني ان تخلى عنها فريق وساندها فريق . ومصر نفسها لن يسلم الوفاق فيها ان تغاضت عن قضية فلسطين . ولو قبض النظام المصري على مصر بقبضة من حديد وكمّ في مصر كل صوت معارض ، فالقبضة الحديدية وكمّ الافواه لن يدوما الى ما لا نهاية له . ولا بد للمعارضين من ان يسمعوا صوتهم، وبعضهم فعل . ولئن تعالت الاصوات حول المواقف منها انقسم المصريون وادرك من فاته الادراك ان الصلح يقرع نذير الخطر ولا يحل معضلة المصريين .

دور لبنان الطليعي يجعل من لبنان امانة في عنق كل لبناني . ومن صالح لبنان ان يتبارى اللبنانيون في الوفاء له . والوفاء توافق آراء لا افتراق آراء . والامر شورى . وعلى الوفاء لا يختلف الناس .

شمول الامانة يشعر بالمسؤولية . ولو حجب دور ورفعت المسؤولية عن فريق لتخلى صاحب الدور عن تبعاته وقطف الثمار ورفض الاشواك.

فمن يشعر بضآلة وضعه يأنس الى اللامبالاة . ومن كان مواطناً ثانوياً أحس بعقدة النقص. وعقدة النقص توجد الصغف وتحول دون الاهتمام وتدفع بالانتقال من كتف الى كتف . فمن واليته والاك . ومن لاشيت فيه العقد ورفعته الى مصافك توقف عند انتفاء التفرقة وعمل واياك على قدم المساواة .

الفلسطينيون والوفاق الوطني

الوفاق اللبناني يمر ، في ما يمر ، بالوفاق اللبناني الفلسطيني ، فالعرب يأبون ، اليوم ، مساساً بالفلسطينيين ، و« الحركة الوطنية » تسير الى جانبهم . ولكن الوفاق لا يفيد قبولا بالتجاوزات او بالتحريض عليها . والوقوف الى جانب الحق الفلسطيني لا يعني مساساً بلبنان او بسيادة لبنان .

الوجود الفلسطيني زرع عقداً ولم يبدل ، اصلا ، من التوازن الطائفي ، فالفلسطينيون لم يحوزوا الجنسية اللبنانية ومعظمهم لم يسع اليها . ومن شاءها ووصلها ليس ، مبدئياً ، مسلماً بل مسيحي . والقول ان المقاييس الطائفية تأثرت بالوجود الفلسطيني يدحضه الواقع . وما حوّر فيه الوجود الفلسطيني هو التوازن السياسي والتوازن الاجتماعي ، فالجناح المسلم رأى في الفلسطينيين ، انطلاقاً من انتماء معظمهم الديني والطائفي ، حليفاً ورديفاً . والكادحون ، من مسلمين ومسيحيين ، بفعل ظلامة الفلسطينيين وعيشهم على هامش الحياة ، انسوا الى الفلسطينيين حلفاء طبيعيين في وجه الطبقات الرأسمالية الحاكمة على غير تفريق بين الطبقة المسلمة الثرية والطبقة المسيحية الثرية . والفلسطينيون ما لم يصبحوا لبنانيين لا يعبثون ، في لبنان ، بصيغة التعايش المتأثرة بالاعداد

اللهم الا اذا كان في الافق ما تستحيل قراءته بين السطور . فالامور تستدعي الاتجاه الى كل حدب والتنبه الى كل امر وتحليل الطوارىء والمعطيات . وقد تنحسر الرؤية ونبقى في ظلام ونخشى من اختلال التوازن ونلجأ الى علم الغيب . والغيب في علم الله .

*

الحكم في لبنان صعب ودقيق . وهو ، في عهد الانتداب ، لم يعرف الخطورة ولم يطل باللبنانيين الى افق بعيد . ولو ان الحكم ، انذاك ، ارتدى طابع الخطورة لزالت الخطورة بفعل السلطة ، وهي ، في ذاتها ، « شخص ثالث » يحكم الرقابة ويملك القوة ويعمل ما يشاء . ولا بد اليوم من الاستعانة بالحكمة ، فالوضع ، على حد ما قيل فيه ، شبيه بالسير على الزجاج ، ان رفعت الرجل عن الزجاج تعذر السير وان القيت بها على الزجاج تحطم الزجاج . والصعوبة ، في لبنـــان ، تنبع من صيغة التعايش ومن تعذر الاطلالة على مفهوم حديث . ولئن امكنت الحداثة تلاشت الصعوبة واطل لبنان على عصر ذهبي . ولا بد لسنة التطور من ان تذوب الفوارق والعقد .

على ان المحنة اثبتت ان للبنان وللتعايش فيه اصدقاء عديدين تألموا وصرخوا وتحفزوا واجمعوا على ضرورة بقاء لبنان وحدة مستقلة ومثالا للوفاق الطائفي . وهم يرون ان الغلبة لفريق على فريق امرها متعذر ، فلا بد اذن ، من الوفاق الوطني . والوفاق لا يعني انكماش اللبنانيين على انفسهم في اطار صارم يضع العصبة على الاعين ، فعلى اللبنانيين ان يسيروا ، دوماً ، الى الرحاب الواسعة دافعين العقد ومتفاعلين في كل محيط . وهم ، في الامس ، مضوا وتناثروا . وما نشدد عليه — ان

فعلوا — ان يعودوا الى وطنهم الاصيل . ولو شئنا شعراً لرددنا قول شفيق معلوف ، الشاعر الزحلي ومخضرم الشعر في الوطن والمهجر :

« لا تلمهم فيوم هجرك كانوا	وعذارى العلى على ميعاد
يوم دقوا سواحل الشرق بالغرب	ولم يهدهم سوى العزم هاد
في قلوب المغربين جراح	حملوها على الجباه الجعاد
كلما احتكت المجاذيف شع	الافق منهم بكوكب وقاد
وزعتهم كف الرياح فهلا	جمعتهم يد النسيم الهادي ! »

الشعر ان « غوى » فهو ، ايضاً ، يصدق . وللبنانيين رسالة الى العالم العربي . ورجاؤنا ان يؤثروا رحابه على كل رحاب .

رسالة المسيحيين

المساواة

للمسيحيين رسالة الى العالم العربي تقوم على العلم والمعرفة والمحبة والسلام . ومن الخطأ ان يتناسى المسيحيون الرسالة وان يخال العرب ان المسيحيين يتهافتون على المال ويثلمون الكرامة . ومن سوء التقدير ان يعتقد العرب ان الاقليات تقبل بالتصنيف وتؤثر الربح على المساواة فلا مواطن يخضع مواطناً لانتماء ديني او عنصري او فكري . واذا كان بعضنا يحب العرب فالمحبة لا تعبر افاق الكرامة الى منعطف الذل ، فللذل ذووه ، ومن يرتضي الذل ليس منا ولسنا منه . واذا كنا نتحسس ظلامة الفلسطينيين فشعوراً بالواجب القومي ورفضاً للتشريد . والمسيحيون ليسوا من « منبوذي الهند » بل يبغون المساواة ويرفضون البديل .

بدهي ان المسيحيين ان شاؤوا المساواة عبدوا لها الطريق . وبدهي ان الخروج على الأكثرية ، في المواقف القومية ، هو شر الخروج . فأما ان نكون غرباء عن محيطنا واما ان نتفاعل فيه. ولا يعتمدن احد معاني خاطئة ، فللخداع وقت وللتمويه وقت وللاستقامة وقت . والاستقامة تفيد

ولا يفيد التمويه . ولئن شكونا امرأ وجبت الصراحة فيه ، والحفاظ على معالم الشخصية لا يفيد الخروج عن الواجب القومي .

الاقليات وقضاياها ليست وقفاً على العالم العربي ، فالغرب يعرف منها العديد ، وفي كل رحاب يحدثون عنها . وفي الاقليات ، نفسها ، تبرز الفئات . ولو وجب ، دفعاً للنوازع ، امتشاق الحسام لغرق الشرق والغرب في انهر الدم . ولكن الاقليات تمتشق الحسام قليلا وتغمده غالباً. ومن انس اليه خاب فأله . والاوضاع لا تسلم على اسنة الحراب . والاقوياء ، انفسهم ، يحسبون للتقلبات حساباً . ولا بد من الحكمة . والحكمة عقل ويد .

الاقليات والفكر

الاقليات في العالم العربي واقع قائم . وهي ليست دخيلة على تاريخ العرب . وكل اقلية ليست اقلية دينية بل عنصرية ودينية وفكرية . فبعيد الاسلام ، على سبيل المثال ، تفرق المسلمون الى « ملل ونحل » وقامت فيهم فرقة المعتزلة . والامر ، في حينه ، ارتدى طابع الخطورة ، فالقرآن هو القرآن ، والنص هو النص ، حرفية لا تأويلا . وحار المسلمون وارتد بعضهم عن الحرفية . ومن اعتمدها هو السواد الاعظم . ومن ثار عليها ، اولا ، هم القدرية — « خصماء الله في القدر » على ما ينسبون الى النبي — في ردة على ابن جهم ، احد غلاة الجبر . والمعتزلة ، من بعد ، دفعوا الجبر عن الاسلام واسسوا نظاماً فلسفياً عرف باسمهم وتأثر ، في دمشق ، بموقف المسيحية من الحرية البشرية ، تشديداً عليها ودفعاً للجبر . وكثر من غير المسلمين والوا الاسلام بثاً للفكرة ودفاعاً عنها . والفكرة اعتنقها المأمون واعتمدها المعتصم والواثق . وبرز المعتزلة

رواداً ومفكرين اوائل . وهم لم يعتمدوا القوة بل آثروا عليها الفكر . ومن جاراهم ، من غير المسلمين ، حذا حذوهم وشاء الامور حواراً ولم يشأ الخصام .

الاقلية درعها الفكر . وهي ان لجأت الى العنف لجأت اليه مكرهة . فالعنف ، عندها ، ردة وليس بدءاً . وانتفاء العنف او اللاعنف ان كان حسنة فالاستسلام لا كرامة فيـــه . ولكن الآراء امضى من « شجاعة الشجعان » . وانى تكن الآراء فالناس يصغون اليها . والفكر ان اراد المنطق لا ينحسر خاسراً . ومهما تبد العقبات فالفكر رابح . وما نراه ان لرسالة الاقليات الى العالم العربي ان تأخذ بعين الاعتبار واقع العرب وامال العرب وان تبني على الشيء مقتضاه وتسعى الى الخير وتسهم فيه وتحتضن ، مبدئياً ، المواقف ، موالاة ومعاداة ، وتكون في طليعة العالم العربي .

الاقليات لا تستعدي عليها الأكثرية . والأحداث ان دفعت الى الساحة بجسم غريب فالجسم الغريب عارض والعارض لا يدوم . ومن توقف عنده تحمل وزره ، فنحن من العرب ، وثمة رسالة ، كما قلنا ، نحملها اليهم . وان حدثنا عن المعرفة والعلم فاننا لا نحتكر المعرفة والعلم . ولكن الرسالة رسالة، ولكل مقام . واذا كانت فرنسا ، اليوم على سبيل المثال، تنشط ارسالياتها العلمية الى افريقيا والشرق واميركا وفي اوروبا نفسها، فالامر يفيد ان فرنسا تحاول ان تستعيد ، عن طريق الفكر ، في العالم دورها الطليعي . ومن يتابع اهتمام فرنسا ببعثاتها خارج فرنسا ير مدى الاهمية التي تعلقها فرنسا على رسالة الفكر . والاقليات ان حملت وان على قدر ، الى العالم العربي طاقاتها الفكرية تسدي لنفسها خدمة وتبرز من كيانها زاوية كريمة بعد ان آمن العرب ان الاقليات من عبدة المال .

والعرب ، بالطبع ، لا تنتفي عندهم الكفاءة . ولكن لقاء الكفاءات هو خير اللقاء .

الاقليات ، ايضاً ، محبة وسلام ، فالمسيحيون ، بوحي من تعاليم دينهم – ان عملوا بها – لا يعرفون البغضاء ولا ينفثون السموم بل يؤثرون التفاهم ويمدون اليد ويناصرون الحق ويأبون التخاذل ان كتب القتال . والمسيحية لا تبشر بالذبح والقتل والتشريد ولا تحتضن الاجرام . ومن سار على طريقها ترك السيف . ومن استعمل السيف راح ضحية السيف . ومن جنح الى السلم حسناً يفعل ، فالسلام مفهوم مسيحي ، والمحبة والرحمة هما ، ايضاً ، مفهومان مسيحيان .

المسيحيون والقضايا القومية

قد يقال ان المسيحيين انثنى بعضهم أو كاد عن رسالته الخالدة ونسي او تناسى مواقفه الماضية . والرأي رأي . فمن اسس دور النشر العربية في مصر ، بعيد النصف الثاني من القرن الماضي ، لبناني مسيحي . ومن اسهم في نهضة العرب هم مسيحيون لبنانيون . ومن دافع عن العرب في المحافل الدولية كان مسيحياً ، فمكرم عبيد ، مثلا ، ناب عن الوفد المصري في اكثر من مناسبة وطرح قضية مصر ، ابان الاحتلال البريطاني ، في بريطانيا نفسها ، وثمة مسيحيون لبنانيون والوا الشريف فيصلا وحوكموا في دمشق ، وبنو تغلب ، من نصارى العرب الاقدمين ، تقدموا ، من قبل ، مع شاعرهم الاخطل ، الى المدينة ، جيوش الخليفة يزيد بن معاوية ، وفارس الخوري ، اللبناني اصلا ، له في تاريخ سوريا الحديث مواقف هي على كل لسان ، وامين الريحاني في « ملوك العرب » و« قلب العراق » و« تاريخ نجد الحديث » و« رحلة الى المغرب » اعطى الدليل

على محبة العرب . وثمة مسيحيون رادوا النهضات القومية وضووا تحت شعاراتهم المسيحي والمسلم ولاقوا ترحيباً في سوريا والعراق وفي اقطار عربية مختلفة واعادوا الاقليات الى نطاق « الامة » وطالبوا بفصل الدنيا عن الدين . ونحن لا نناقش في المبادئ انى تكن المبادىء . وما يهمنا هو حمل الرسالة وانفتاح المسيحيين على العالم العربي .

العرب لو رفضوا الفكر المسيحي لما اعتنق بعضهم مبادىء المسيحيين من رواد النهضة . وهم ، في مأساة فلسطين ، اسلسوا امورهم ، في قيادات معينة ، الى المسيحيين لا الى المسلمين . ومن واجب المسيحيين ان يتوقفوا عند الماضي ويستعيدوا دورهم العربي . ولهم ان يسهموا في النهضات وان يبعثوها الى الوجود ويكونوا رواداً ويدفعوا العصبية الدينية بالعصبية القومية ويخلصوا لبيئتهم ويوالوها ، وان كان الولاء لا يحول دون كرامة الموقف وسلامة الحال .

العرب ورسالة المسيحيين

العرب ، اذن ، لا يجابهون كل مسيحي بالرفض على صعيد سياسي او فكري . ومن أباهم فيهما ويأباهم اناس معينون يأخذون حرفية النص ويعملون بها ويخالون ان النصرانية هي المسيحية(١). وللنص ، في حينه ، مبررات اثرنا امرها وتبسطنا فيه في دراسة مستقلة تصدر من بعد(٢) . ولئن تناولناها ، اليوم ، فبخيط رفيع . ولا بد من ان نفعل ، فبعض المسيحيين يقرأ النص ويخاف . وبين العرب من يأنس الى حرفية النصوص

(١) « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء . بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فانه منهم . » المائدة ٥١ .

(٢) نظرات في الحتمية والجبرية والحرية .

فيرفض ان يعود الى اطار التاريخ ويأبى التأويل ويصر على ابقاء الاقليات في مصاف ثانوي . والاقليات ليست معدة ، فحسب ، للاقتصاد والمال . والنصوص ، لسوء الطالع ، تكثر عندها المخاوف فتخشى ان تعود الى « احكام الذمة » وان تنزوي في نشاط محدود .

على ان الاقليات تسير الى شبه الجزيرة العربية وتعمل فيه . واذا كان للخوف ان يفعل في النفوس فعله فشبه الجزيرة العربية هو تربته الخصبة . فالشريعة الاسلامية تطبق فيه والمسيحيون لا يتخوفون منها . والخوف « يأمر » فيهم « وينهي » في لبنان ، ولبنان ليس في شبه الجزيرة العربية . والامر ظاهرة . وبعضنا يتوقف عندها ويتساءل : « علام الخوف من الاسلام في بلد لا يطبق شريعة الاسلام ؟ وعلامَ انتفاء الخوف في بلاد تعرف الشريعة وتطبق احكامها ؟ »

المسيحية لم تذب ، من قبل ، في خضم الاشواك ورواسب العقد . وهي لن تذوب ، اليوم ، في عصر يدني الانسان من الانسان ويقرب المسافات ويعدد اللقاءات . فلا نظرة سوداء ولا خشية لم يتوقف عندها آباؤنا في الايام الحوالك بل اخلاص لمحيطنا وتفاعل فيه .

عقد الخوف ، لتباين الدين ، لا نشعر بها تماماً ، على صعيدنا الخاص . الا ان عقدة الخوف وعقدة التفاوت تعبران نطاقنا الضيق الى رحاب اوسع . ولكل موقفه ورأيه ، ولكل رأي حرمة ان سلم الرأي . وفي اعتقادنا ان المسلمين ليسوا من فصيل واحد ، فمنهم من يطبق الشريعة بحذافيرها ويستوحي حرفية النصوص ، ومنهم من لا يفعل ويأخذ من الشريعة احكامها في التبني والميراث والزواج والطلاق وفي الاحوال الشخصية بوجه عام . والعبرة ان كانت في الشريعة فهي ، ايضاً ، رهن بارادة المسيحيين . والارادة تطل على نشاطهم الفكري ودفعهم بالاجتهاد

الى الامام(١) . فهم اسهموا في نهضة العرب ، والعرب لم يرفضوا نتاجهم الفكري . ورواد العرب من المسيحيين لم «يستأذنوا» المسلمين العرب في مبادئهم المعروفة بل طلعوا بها والعرب اعتنقوها . والمقاومة الفلسطينية لم تحدّ من نشاط رجالاتها ومقاتليها المسيحيين . والمسلمــون العرب حضنوهم . واكثر الرافضين عناداً ، خارج فلسطين وفي الارض المحتلة ، مسيحيون لا مسلمون ، فالقومية تنحسر عن الرباط الديني ، وصاحب الرأي يبدي رأيه والرأي يفرض نفسه . ولا نخال ، في ظل المعطيات القائمة ، ان سوريا والعراق والاردن ومصراً ، نفسها ، تعود بالاقليات الى احكام الذمة ، ولو شاءت لأبى عليها العالم . ومن والانا والبناه . ولا عزوف عن دورنا في العالم العربي ، فنحن « معتزلة » اليوم ، ونحن من اهل الفكر ولا نقول اهله .

احكام الذمة لم تكن كلها عيوباً . واهل الذمة دخلوا في ذمة الاسلام ودفعوا الجزية وحماهم الاسلام . ومن الشطط ان نخال ان الدخول ، أمس ، في ذمة الاسلام كرس ، في ذاته ، المهانة والذل . وما كرّسهما هما سوء التطبيق وعصبية الجهل . ولولا « الذمة » واحكام الذمة لزرت وازرة وزر اخرى ولما نزل صالح بن علي الهاشمي ، والي الشام العباسي ، عند طلب الامام الاوزاعي واسلم في سنتي ٧٥٩ و ٧٦٠ ، الموارنة في جبل لبنان (٢) .

---

(١) يقول، خطأ، كاتب فرنسي ان الشريعة الاسلامية تطبق بحذافيرها في جميع البلدان العربية . L'Express, op. cit. p. 56

(٢) « وقد كان من اجلاء اهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ عامة بذنب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم واموالهم، وحكم الله الا تزر وازرة وزر اخرى ، وهو احق ما وقف عنده واقتدي به . واحق الوصايا ان تحفظ وترعى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه قال : « من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فانا حجيجه . » ابن عساكر ، الجزء الخامس ، ص : ٣٤١ .

انى تكن الامور فالاقليات قائمة والبلاد بلادها . ومن يدع الى الرحيل عنها او الى التنكر لها يقع في شطط . فالرحيل معيب ، والقفزة الى المجهول يأباها العاقل . والاصغاء الى كل رأي ليس في موضعه ، فالصهيونيون ، في فلسطين المحتلة ، يطبقون احكام التوراة . وان لم يخضعوا لها الاقلية فالحياة تتأثر بها . ومن عاش في ظل الكيان العبري وقفل راجعاً يحدث عن سوء الاوضاع . ومن يحدث ، غالباً ، هـو المسيحي ورجل الدين من المسيحيين . ولو امكن ذكر الاسماء لما اغفلنا الذكر .

الآفاق واسعة وكريمة ، والحلول على قدر الافاق . والاقليات ان خلت الى نفسها واستلمت الى التعقل ابعدت عنها المتاعب ، فالمسيحي إذ يمضي الى شبه جزيرة العرب او الى اي قطر عربي يسعى الى العمل ولا يتعاطى السياسة . واذا كان ذا نشاط فكري فالمجـال رحب . ولبنان ، على كل ، نقطة انطلاق فكري . وثمة بلاد عربية ترحب بنشاطه . ومن دفعه لا اسف عليه . والمهم ان يؤدي اللبناني رسالته اخاء ومعرفة وتقدماً وسلاماً ومحبة وان تدرك الاقليات ان الدنيا مراحل وان نيل المطالب صبر واناة .

المسيحيون وعالم الغرب

المسيحيون يسعون الى العالم العربي ويؤدون رسالتهم فيه . وهم ، ايضاً ، يحملون رسالة العرب الى الغرب . واذا كان صحيحاً ان الغرب يسعى الى العرب وينفتح عليهم ويمد اليهم اليد ويشابك معهم المصالح فمن الصحيح ، ايضاً ، ان العرب في ذاتهم ، عالم مستقل عن عالم الغرب فلكل مفاهيمه وحضارته وقيمه ، ولكل طرقه وتفكيره . والغرب وان

لم تتحكم فيه ، اليوم ، عقدة الدين ، هو ، في شعوره الباطن ، عالم مسيحي . وانى يفعل او يفعل المسلمون يبق ، وان الى حد ، غريباً عن المسلمين . والمسلمون ، وان بقدر ، غرباء عنـه ، فالتقاليد هي التقاليد والرواسب رواسب ، والنظرات تتباين ويتباين الشعور .

لا بد ، اذا جاز التعبير ، من قاسم مشترك يجمع الفريقين ، والقاسم هم المسيحيون العرب . فما يندفع اليه المسيحي في سبيل المسلم يطمئن عالم الغرب فينظر الغرب الى العرب بعيداً عن الحذر ، والامر طبيعي ، فالانسان يقصر عن حاله ، ولو حاول لحاله عرضاً لخال الناس انه يبالغ فيه . ومن يجيد الدفاع عنه هو ، غالباً ، من بعـد عنه . ولو اوكل المسلمون العرب الى المسيحيين منهم الدفاع عن القضية الفلسطينية لجاء الدفاع في موقعه الكامل ، فالمسيحي العربي هو في عرف الغرب ، مسيحي من اقليات العرب . ومن يسمع المسيحي يدافع عن حقوق المسلمين وحرمات المسلمين يصغ باهتمام اليه ويحل كلامه الاعتبار الواجب . ولو فطن العرب وابرزوا ، بلسان مسيحي عربي ، امام العالم المسيحي واقع الاماكن المقدسة المسيحية والاسلامية في فلسطين لتردد العالم في تأييده المطلق للغاصب المحتل . ولو انبرى المسيحيون العرب الى مواجهة الصهيونيين لقل العطف ، وان الى حد ، عن الكيان العبري ، فالغرب زرع الكيان العبري على ارض العرب انطلاقاً من العقد والمصالح وبفعل الرواسب . والرواسب قديمة وحديثة . وما قدم منها يعود الى خلافات التاريخ ، والدين احدها ان لم يكن اولها . وما هو حديث يرجع الى انحسار المد الاستعماري قهراً عن ديار الاسلام في آسيا وافريقيا وفي الشرق العربي . والرواسب ، في اعتقادنا ، يبددها المسيحيون ولا يبددها المسلمون .

الانفتاح الحضاري العربي على الغرب يخلف في الغرب اثره . واذا كانت للمسيحيين العرب مزايا فاولى المزايا هي انفتاحهم ، معاً ، على حضارتي الغرب والشرق . والغرب لولا المسيحيون العرب لجهل الشيء الكثير عن العرب وعن تراث العرب . ومن ابرز ، في التاريخ المعاصر ، التراث العربي وحسنات العرب هم المسيحيون قبل المسلمين .

المغالاة

بيد ان الانفتاح على الغرب شيء والاعتقاد ان المسيحيين العرب هم قطعة من الغرب شيء آخر . ولئن انسلخ المسيحي عن محيطه العربي فعبثاً يبحث الباحث . والواقع يفيد اننا في العالم العربي ومرتبطون به . ولا بد من ان يرسخ الواقع في ضمائر الناس ، فالمسيحيون يتفاعلون ، اولا ، في محيط عربي وان نهلوا المعرفة من كل مصدر . وما يطلون عليه ان لم يطل عليه العرب وجب ان يطلعوا عليه العرب . وما نفع المعرفة ان ادخرها الانسان وبخل بها على غيره ؟ وما نفع الفضائل ان حسبناها حكراً على معاجم الغرب ولا اساس لها في معجم الاسلام ؟

مهما تكن الاشياء لا بد من وضع الامور في نصاب سليم ، فالمغالاة تدفع على طريق الخطأ . والمسيحي ، بفعلها ، يخال نفسه « نصف اله » يحتاج اليه المسلم ولا يحتاج الى المسلم . واذا كان المسيحي والمسلم العربيان يكمل واحدهما الآخر ، فالمسيحي لا يفرض واقعه على المسلم. ولكن الذين يرون انه لا يستعاض عنهم يزيدون ، لسوء الطالع، عن اصابع اليد ، فمنهم من اوقف على نفسه الكفاءة والعلم ومنهم من احتكر اللغات . ومن حاول دفع الشطط عيب في فهمه واخرج عن قومه ، فالانسان يطيب للاوهام ويرفض الواقع . ولو قلت لبعضهم ان اناساً عديدين

يفعلون ما يفعل ويحترفون حرفته ويبزونه في مجالات لعلت في وجهك الضجة ، فما علق في الذهن عالق فيه . ومن الصعب ان يزول الوهم بالنقاش المجرد . وما يزيل الوهم هو الخبرة ، والخبرة قد توافر الندم حيث لا ينفع الندم .

دفع المغالاة واجب لا عبث برسالة المسيحيين . فلكل شيء وجهان ، والحسنات ، احياناً ، تطغى على السيئات . والمهم ان يكون الاساس في موضعه وان عاب التفصيل . والمهم ، ايضاً ، ان يشعر المسيحي انه ، في محيطه ، يلقى التجاوب ولا يحيا على هامش الحياة . ولــو تفاعل المسيحي في نطاق المادة وتخلى عن آفاق الروح لأضر نفسه . ولو قبع في جبله وسهله لضاق افقه وجمد . واذا كان اليهودي عنصراً منتجاً يجلي ويتفوق فلمَ لا يبرز المسيحي العربي في عالمه العربي وفي كل مجال ؟ والمسيحي ان لم ينتج فكرة عليه ان « يستورد » فكرة ويحملها ، ان سلمت ، الى العالم العربي .

آفاق الفكر

النتاج الفكري يلاشي الحواجز والحواجز الى زوال . وليس لنا ان نرى ، دوماً ، سلبيات الامور بل لنا ، ايضاً ، ان نأخذ منها وجهها الجميل . والمسيحيون ، في العالم العربي ، ليسوا عابري سبيل بل جزء من كيان العرب . وما يتخوفون منه التطور كفيل بدفعه . والتطور ان لم نؤمن به نقع في شطط ، والتطور والدعوة اليه هما من صميم رسالة المسيحيين . ومن بغى امرأ سعى في سبيله . وحسن التصرف يفوق ما عداه .

النتاج الفكري يسهم في التقنية ان اقبل عليها العرب ويحمل التقنية الى العرب ان جهلها العرب . والتقنية توافر وطناً وتخسر وطناً وتواكب العصر و تعبر من صعيد الى صعيد . ومن بغى التقدم احلها مقاماً . والتقنية ليست يداً تعمل في حقل او يداً تشيد منزلا وتجبل جبلة بل يد تستوحي العقل الى اقصى الحدود . وهي لو اعتمدها المسيحيون العرب لزاحموا الغرب في بلاد العرب ولحلوا محله في قطاعات معينة . والتقنية ليست غريبة عنهم ، فمنهم من يعمل في حقل الذرة ومنهم من اطل عـلى اكتشاف ومنهم من جلى في فروع الفن . ورسالة المسيحيين العربية ترتدي وجوهاً عديدة . والموالاة في حقل توافر الموالاة في كل حقل ان كرم الحقل .

الرسالة نظام وتخصص فيه . ومن يدعي المدنية لا يهمل امره . والنظام دقة ومؤشر على مدى التقدم . ولا بد منه في حياة العصر . واللبنانيون ان شاؤوا حمله الى بلاد العرب لهم ، اولا ، ان يدوروا في فلكه . وهم ، احياناً ، يخالون ، ان التقيد به عبء ثقيل وان « الكرامة » هي في الاعراض عنه . ولعلها البيئة . وهم ان خرجوا منها الى آفاق النظام يعملون به ويحترمون النظام .

المبادىء والآراء

ما نقوله هو من باب المبادىء وفي صميم رسالة المسيحيين الى العالم العربي . وهو لا يفيد ان الخبرة والتقنية تغربان عن المسلمين او ان النظام لا وجود له في معجمهم الوطني ، فعبد الله الطريقي ، مثلا ، في شؤون النفط خبير عالمي ، والنظام يتفوق فيه العرب ، احياناً ، على اللبنانيين. وكثر بين العرب يتلقون اسس التقنية ويستوعبونها وان تقاعس ، في

نظرنا ، بعضهم عنها . واللبنانيون ، ان كانوا للتقنية تربة خصبة ، يؤثرون عليها التجارة ويتخاذلون فيها . ونحن ، في رسالة المسيحيين الى العالم العربي ننطلق ، غالباً ، من واقع ما يجب لا من واقع قائم .

الحقائق تضني من لا يبغي حلول الواقع . وهي آراء ، والرأي ينحني لرأي افضل . ولا بد من الحلول وان شابتها الشوائب ، فالشوائب ترفع والخطأ يصحح . وما ينتفي فيه الخلاف هو حسن النية ، فالمحاولة تقود احياناً ، على طريق الصواب ، وقد تقود ايضاً ، الى العشا . واذا طاب بعضهم لخراب بلده فنحن تتملكنا الحسرة لكل جرح . وما نرجوه هو اسفرار الليل . واذا كان محتما ان يحيا المسيحيون في الشرق فمن المحتم ، في مفهومنا ، ان يحملوا راية المسلمين العرب — ان نصعت الراية — في الشرق والغرب . ونحن لا نرتدي رداء الواعظ او المرشد بل نقوم بواجب المواطن ونخشى على انفسنا من حوالك الايام .

العرب يريدون ان نسير الى جانبهم ونبقي على يدنا مشدودة اليهم . وهم ، بالطبع ، ليسوا آلهة ولا يخلون من النواقص . وما نأخذه عليهم لم نبطنه ولم نخفه . وفي كل دراسة ابرزنا حالهم ، حسنات وسيئات . والثبات ، عند بعضهم احياناً ، لس مزية مثلى . وبعضهم يوالي ويخذل وينسى ان للصداقة مقياساً وللخذلان مقياساً وللاخلاق مقياساً . والشعوب على غرار الافراد ، طباع وميول ، ضر ونفع ، سلامة وخطأ. الا ان رسالة المسيحيين هي في اطار الاخاء ومن صميم الوفاق . وهي لا تحمل معاني الذل او تنطلق من الزلفى ، فللمسلمين قدرهم ، ولنا قدرنا . وقدرنا الانفتاح على العالم والتفاعل في محيطنا العربي .

بيد ان السير في الركب العربي لا يكون عشا ان حكم العشا ، فلا احد يرضى الهلاك ان رغبه الناس . وما يفرض يرفض . ولا بد من الشورى . ومن يخرج عنها ويستأثر بأمر مصيري او بشأن جماعي يتحمل التبعة ويواجه الاعراض . فللفكر مقامه الاول . وما دمنا ندور في مجال الفكر وندعو اليه فالاعداد لا تعصف بامكانية التقرير ولو شاءت الاعداد . فنحن والعرب على وفاق في اطار يبقي على الشخصية اللبنانية ولا يذوّبها . والابقاء على الشخصية والحفاظ عليها ينطلقان من احترام النفس ومن اداء الرسالة على وجهها الأكمل . ولئن حدنا عنها وخلنا الدنيا سلعاً فقدنا الاحترام ولاشينا انفسنا . ولنا ان ننفض غبار العزلة ونبشر بالاخوة ونمد الذراعين ، في معاهدنا ، لكل وافد ونسدي الخدمة من قلب طاهر ولا نعطي من اللسان ما لا يضمره القلب . ولو فعلنا لصنا الخلقيات من العبث ولساغ لنا ان ننعي الخلقيات عند من يفقدها ويدعي امرها .

*

ما نحن عليه قائم ولا جدال فيه . ومن انتفاء الجدال تنبت القناعة ، والقناعة حول رسالة المسيحيين يتوافر امرها ان نظرنا بموضوعية الى الامور . ورسالة الفكر والخلق رسالة سامية ، ان اعتمدها المسيحيون سجلوا نصراً . والخاسر هو الذي يبني بيته على الرمال ، فالرمال تموج وتتحرك . وما نتوق اليه هو التخطيط لحيـاة هادئة تضمن مستقبل

اجيالنا من بعد ، فالاجيال سئمت حالها ، وهي تود الانعتاق من واقع لا استقرار فيه . ومن سار منها الى الخارج بات يأبى العـودة وانف مشاحنات الدين ومفهوم القرية . فاما ان تكون للبنانيين رسالة ، واما ان تكون الحياة خبط عشواء . والرسالة مثال . والحياة تفقد معناها ان فقدت هدفها ومثالها .

قدر المسلمين

العالم العربي

الواقع يلزم بالنظرة الى العالم العربي من منظار الواقع ، فالعالم العربي « عالم » لا دولة او قطر واحد . والبحث في « الوحدة العربية » والدعوة اليها لا يغير ان الحقائق . فالعالم العربي ، على غرار اميركا اللاتينيةالاسبانية مثلا ، هو مجموعة اقطار . وإذا كانت اللغة واذا كان الدين ومزيج الدم الاسباني و« الهندي » لا يجعل جميعهـــا من شعوب اميركا اللاتينية الاسبانية امة واحدة تعرف المصالح الواحدة والشعور الواحد والحدود الطبيعية الواحدة ، فالعالم العربي ، على غرار العالم الاسباني الاميركي اللاتيني لا يدرك ، تماماً ، الشعور الواحد والمصالح الواحدة والحدود الطبيعية الواحدة . واذا شئنا تحليل الواقع العربي وتحديد « قدر المسلمين » فيه وجب علينا ، اولا ، الاعتراف ببدهيات واقعها يفرض نفسه . والبدهيات تقول ان العالم العربي وحدات اربع تشد بعضها الى بعضها روابط وتعوزها ، احياناً ، المفاهيم الواحدة والشعور الواحد . والبدهيات إن قالت ان القارة الواحدة وان كانت مجزأة الى عدة بلدان تدركالحدود الطبيعية الواحدة فهي ، ايضاً ، تشير الى ان العالم العربي لا يعرف الحدود

الجغرافية الواحدة امتداداً منه على القارتين الاسيوية والافريقية من المحيط الاطلسي على حدود المغرب الى المحيط الهندي في اطراف شبه جزيرة العرب . وما تشير اليه البدهيات لا يعبث بالامتداد الواحد للعالم العربي بين المحيطين . وما يعبث بالامتداد هو قيام الدولة العبرية في وسط العالم العربي وفي فصلها المشرق عن المغرب العربي .

من الحسن ان يتوق العرب ، في ما بينهم ، الى الوحدة الشاملة وان يسعوا اليها . ورجاؤنا ان يتوحدوا في الملمات وفي كل حين وان يجمعوا شملهم وان يبرزوا، امام العالم، اشقاء لا يعرفون الشقاق . ولكن الامنية شيء والواقع شيء اخر . وما يتوافق عليه العرب ، مبدئياً ، يتوافقون عليه في اطار مجموعاتهم الاربع لا في اطار المجموعة العربية الواحدة .

*

العرب في المجموعة الحضارية السورية وفي شبه الجزيرة العربية يواجهون ولا يزالون الى جانب الخطر الصهيوني ، واقعين معينين . فتركيا ذات حدود مع العراق وسوريا . وشبه الجزيرة العربية والعراق يحسبان الحساب — ولهما ان يفعلا — لايران ، جارتهما الاخرى ، وايران وتركيا حقيقتان راهنتان ، وقدر العرب يرتبط بهما . والحساب، في عرفنا ، لا يقوم من جانب واحد ، فتركيا وايران لا تتجاهلان على حدودهما المجموعة البشرية الكبيرة الزاخرة ارضها بالخيرات ، نفطاً ومعادن . ولكل من سوريا والعراق منهما مطالب ، فكيليكيا وانطاكيا وما قرب منهما هي في قبضة الاتراك ، وخوزستان والأهواز منها — تؤلف اليوم ، جزءاً من ايران ، والعرب « يعرفون » الامر . ولا بد لتركيا ولا بد لايران من ان يطيبا لظهير يشغل العرب عن كل

مطلب . والمواقف الآنية ليست المواقف النهائية . والاطار الديني لن يبدل من رضى الدولتين عن الواقع المرير الذي يتخبط فيه العالم العربي .

ما عرضناه ، عابراً وسراعاً ، اثرناه الماما بالمؤثرات التي يواجهها العرب في صراعهم مع الصهيونية . والمؤثرات تخضع وتلزم ، والخضوع والالزام هما من صميم القدر . والقدر العربي ، جبراً ونصيبا ، نبغي اطلالة فيه .

مفهوم القدر

المسيحية والاسلام ، في الشرق العربي ، يتوزعان الادوار ، وان زادت منهما فيه اعداد على اعداد . والمسلمون ، في مفهوم الدراسة ، هم المسلمون العرب . وقدر المسلمين العرب هو ما نعرض امره من زاوية عربية صرف ومن زاويتين هما مأساة لبنان ونكبة فلسطين .

القدر ما خرج عن يدنا لضعفنا البشري ، تردداً ولا مبالاة واستسلاماً للاهواء وضعف ارادة . والقدر ، ايضاً ، تفعله في الانسان عوامل لا تعود الى الطبيعة البشرية ، فالمصادفة قدر والقوة القاهرة قدر وتلاقي الارادات قدر وتضاربها واستقلالها قدر والظاهرات الطبيعية قدر . والقدر هو الجبر . وقدر العرب مصيرهم ونصيبهم وواجبهم . وهو ، ايضاً ، مجرى حياتهم بمعنى نبغيه . وفيه ، من نواح عديدة ، تبسطنا في دراسة جاهزة(١) .

الطبيعة والعرب

قدر العرب الاول هو ما خرج عن يدهم ، فالطبيعة جعلت ، حتى

(١) نظرات في الحتمية والجبرية والحرية .

الآونة الاخيرة ، من شبه الجزيرة العربية «ارض بؤس وجوع» . وهي ، من بعد ، ربطت العالم بخيراتها . والطبيعة ، ايضاً ، اعدت شبه الجزيرة والرحاب التي ادركها الاسلام في البلاد السورية وفي وادي النيل وشمالي افريقيا ، اماكن تلاقي الحضارات والقارات وتحكم رقابتها على المضايق وتحتضن اعرق المدنيات وتضم اعداداً وافرة من السكان . فعلام لا يحتل العرب ، والحالة هذه ، في العالم طليعة العالم ؟ وعلامَ تطغى عليهم الارادات ؟

الاعداد لم يوحد بينها الاسلام ولو فعل لما تبدل الحال . وفي الرحاب العربية ، الى جانب المسلمين ، جماعات ينتمي معظمها الى المسيحية ويعتنق بعضها اليهودية . واليهودية كثر اتباعها ، في الارض المحتلة ، بعد قيام الدولة العبرية . والدولة العبرية احسنت الى العرب من حيث لا يدرون فدعتهم الى اليقظة — وبعضهم استجاب — ووضعتهم امام المسؤوليات وارشدت الى الضعف ودلت على القوة وانذرت بالاخطار . وما قد يلحق بالعرب ، من بعد ، من خير وشر منوط بعزيمة العرب ولا يرجع الى عدم التحذير . والعرب لو شاؤوا لحوّروا في مجرى الامور ورقوا في كل مجال .

في العالم العربي ، اذن ، اكثرية مسلمة واقليات مسيحية ويهودية . واليهود يسكنون ، في معظمهم ، الارض المحتلة وينفردون فيها بواقعهم ويعادون العرب مذكين صراعاً يكثر فيه الترجح قبل ان يطل على خاتم حتمي يتمثل بانحسار المد الصهيوني ان تمسك صاحب الحق بحقه واندفع العرب وراء الحداثة واحلوا الدنيا مقاماً والدين مقاماً ، ورصوا الصفوف وابقوا على موقفهم الرافض واحكموا حصار الدولة العبرية ولفظوا جسمها الغريب .

ما نلحظه ، من جهة اخرى ، ان قدر العرب مرتبط بارادة العرب ، فلا القومية تجمع بمعزل عن الارادة ولا الرباط الديني هو خير الرباط . والنزعة الفردية تضعف المواقف ، ودفع النظام يعبث بالاوضاع ، والميل الى الترف يصرف عن مواجهة العدو ، والروح القبلية ، عند بعضهم ، تستأثر بالطاقات وتوغر الصدور فينفرط العقد وينثني فريق عن المواجهة وينصرف الى شؤونه ويتحول الصراع من صراع عربي صهيوني الى صراع عربي عربي .

اذا كان من البدهي ان تكثر الطبيعة البشرية من المتناقضات فالطبيعة البشرية لا تفسر الحدة في صراع الاخوة . وما يفسرها هو الميل الغريزي عند العرب ، الى التنافر والتحاسد والاندفاع الى « تقاسم الاسلاب » . وابن خلدون لحظ الظاهرة وتوقف عندها(١) ورأى ان العرب هم اعداء العرب . والعرب ، من بعد ، اورثوا اخلاقهم وعاداتهم ، وان على قدر ، الشعوب التي فتحها الاسلام وان تكن النزاعات القبلية تتعدى ، اصلا ، ذهنية العرب الى ذهنية الشعوب المغلوبة . فالعراق وسوريا ، ان تباعدا ، احياناً ، وعادا فتلاقيا — عرفا ، قديماً ، النزاعات القبلية على وجه حاد ، والعراق وسوريا ، اساساً ، من سلالات عنصرية واحدة تربط بينهما الحضارة ويربط بينهما التاريخ . و« قبائلهما » في الماضي ، خاضت اكثر من عراك مع « قبائل » الجنوب .

(١) ابن خلدون : المقدمة، العمران البدوي ، الامم الوحشية والقبائل، العرب، الفصل الثامن والعشرون .

من قدر المسلمين ان يحاولوا التوفيق بين الشريعة واحكام التطور ، فالمسلمون ، انطلاقاً من ايمانهم الوطيد ، يأبى معظمهم مساساً بحرفية النصوص ، والامر يكرم من منظار معين . وهم يطلون على الحياة من باب فسيح ويبغون المجاراة والتفوق ويعرفون ان الامور حدوث دائم لا خلاف فيه . ولكن الشريعة ، عندهم ، كلام ازلي . والحدوث ، ان شاؤوه ، يدور في اطار الدين .

تطلعات المسلمين هي وقف على المسلمين . وما نسعى اليه هو التدليل على الاسس التي يعتمدها المسلمون ازاء الاحراج الفكري ، مبادىء و« ايديولوجيات » . ولم يكن للمسلمين ان يتجاهلوا امر المبادىء ، فالمبادىء واقعها مفروض والآراء في كل بلد على نزاع حولها بين مؤيد ورافض .

ما نراه ان الاسلام يرفض من المبادىء « تيارها الهدام » ويكيف المبد على ضوء الشريعة . فاذا توقفنا عند الالحاد وجدنا ان الاسلام ، على غرار المسيحية ، يجزم برفضه . وان استهوانا المفهوم الاشتراكي رأينا ان الاسلام يمضي به على طريق حذر ويهدي من نصوص الدين ، فالدعوة الى العدالة الاجتماعية ، احساناً وعطاء ومساواة ، بارزة في القرآن . وهكذا تكثر ، عند العرب المسلمين، «الجمهوريات الشعبية الاشتراكية » و« الاتحادات الاشتراكية العربية » وجميعها ينبثق عن روح القرآن الداعية الى العدالة والمساواة . والسؤال مطروح ، فحسب ، في مدى ارتباط « المفهوم الاسلامي الاشتراكي » بالمفهوم الاشتراكي العلمي القاضي ، اولا ، بفصل الدنيا عن الدين .

الا ان المفهوم الاشتراكي العلمي وان لم يلق تطبيقاً ، حتى اليوم ، في الدول العربية ، هو ، احياناً ، من جوهر المبادىء عند بعض الاحزاب الحاكمة . وبين المسلمين مفكرون يسعون اليه بعيداً عن كل انتماء حزبي . والمستقبل قد يفرز مواقف لا يدركها الحاضر . والتنبؤ يصعب أمره . والغرب تجاوز ، بعض الشيء ، مفاهيم علمية يدور حولها العرب ، وانتقل الى مرحلة التأمل في اوضاع جديدة . والعرب قد يتجاوزون المبدأ الاشتراكي وينتقلون الى آفاق اخرى . والغد لناظره قريب .

ما يستوقفنا هو السعي المستمر الى التوفيق بين التطور والدين . وما يستوقفنا ، ايضاً ، انتفاء الحدوث ، في مجالات معينة ، انطلاقاً من احكام الشريعة . والواقعان من قدر المسلمين . فلا بد ، معاً ، من السعي الى التوفيق ومن التمسك بموجبات الدين ، فالقرآن — والاشارة سبقت — هو كلام الله الذي لا يزول . وكل تغيير في سنن الكتاب ، احياناً ، هو ، في ذاته ، خروج على الدين . والخروج ارتداد ، والارتداد « لا يقبل » من المسلمين (١) .

*

هذه الحقائق نسوقها وندخلها سراعاً في قدر العرب وفي مصير النزاع بين العرب والصهيونية ، ونرى ان الحد منها او دفعها — ان امكن الدفع — ضرورة مثلى . فلا شيء يمكن للصهيونية يداً في شؤون الشرق ولا شيء يوطد وجودها فيه مثل التواكل وخلافات العرب . والعرب ان نبذوا المفارقات وشدوا بينهم الاواصر اوهنوا الصهيونية ودفعوا

(١) « ان الذين كفروا بعد ايمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم واولئك هم الضالون . » آل عمران ٩٠

LAU Byblos Library

مدها وقلصوا وجودها . ولكن انى لهم ان يحسنوا المواجهة ان ظلت الانظمة العربية على ما هي عليه تبايناً وتناحراً ؟ فالشعوب على غرار الافراد تخضع لعواطف السوء . وهي لا تنهض ولا يؤازر بعضها بعضاً اذا عمرت القلوب بالحقد . ومن الصعب ان تتبدل الاوضاع بين العشية والضحى وان ينقلب الحقد سلاماً ومحبة . ولا بد من الجهد ومن عامل الوقت وان تكن الايام اقامت الادلة على تقلب المواقف وانطلاقها من اقصى الجفاء الى اقصى الوفاق .

المصير والنتاج الفكري

انى تكن المواقف فالمصير العربي رهن بالاطلالة الوافية على ضرورات الحداثة . والاطلالة هي ، اولا ، حدوث خلاق ، يبدع الفكرة ويدفعها الى الايدي . والعرب لا يوجدون ويخلقون ويبدعون بل « يتلقون » ويحتذون ويدورون في اطار معلوم . والاطار ، وان كرم ، يفرض قيوده ويثني الفكر عن التفاعل الكامل . ومن يبغ ، مثلا ، اختراعاً عربياً او نتاجاً عربياً فكرياً مهماً يخب فأله كأن الفكر ، خارجاً ، اوقف على نفسه كل اكتشاف او اختراع او ابداع . وما نقوله تحديد لواقع نرجو خلافه . فنحن نود العرب في طليعة المسيرة الفكرية ونأسف للانكفاء عنها ، فالزمن سباق ، وهو ، في كل هنيهة ، يمضي بالانسان من مجال الى مجال .

العرب والمسلمون قامت لديهم ، امس ، المدنيات العريقة وجلوا في الأدب والعلوم وفي بعض الفنون ودانوا ، بعض الشيء ، بتقدمهم للشعوب المغلوبة ، فالاسلام ، في عهد الخليفة عمر وفي عهد الامويين ، نقل رايته بعيداً عن شبه الجزيرة العربية وافاد من طاقات وخبرات

السوريين والفرس والهنود والمصريين والافريقيين الشماليين ، وسواهم عديد . والشعوب المغلوبة دخل معظمها الاسلام . ومن ظل خارجه تفاعل معه فكان الاخذ والعطاء وبرزت « الفنون العربية » بشكلها الرائع وبدا التفوق في العلوم — والطب منها — وانفتح العرب على الاغريق ونهلوا من تراثهم ونقلوا الى العربية التراث الاغريقي . وثمة اثار لارسطو ولغيره من ائمة الاغريق فقدتها الاغريقية وحفظتها العربية . ولولا النصوص العربية لخسر العالم تراثاً لا يضاهيه تراث . وما يثير العجب ان العرب اطلوا ، امس ، على التقدم واخذوا به وانهم اليوم ، في حالات ، يكتفي بعضهم بقشور التقدم وكأنه يرتد عن المعرفة لدافع عرقي او مذهبي او فئوي او لغوي . والمعرفة لا دين لها . وهي لو كانت في القمر لوجب السعي اليها . والعربية ليست لا امها ولا حدها بل حدها البشرية والعرب منها . ولا بد للعرب من ان يخلعوا رداءهم القديم ويجيلوا الفكر ويجهدوه ويتركوا القشور ويعرضوا عن « متاع الغرور » ويدركوا ان دوام الحال محال ويعودوا الى القرآن في فناء الاشخاص وفناء الامور ويعرفوا ان المال لا يوافر ، في ذاته ، الطاقات الفكرية وان ما يوافرها هو العقل . فالعقل « امام » ولا « امام » سواه . والقول لابي العلاء .

العقل العربي ، ان شاء ، اهل لكل نشاط . ولا نرى ، مبدئياً ، ان عقلا يتفوق على عقل ، ان كانت المعطيات واحدة والانطلاقة واحدة . والنشاط رهن بالعطاء ، فلا حصر للفكر في مجال معين ولا تفاعل له في نطاق معلوم ، فالدين اطار رحب والخلقيات والفلسفة والعلوم واقع راهن . وما لا نفصل بين ابواب المعرفة ونولي كل باب الاهتمام

والعناية ونضع التطور امام الاعين وندرك ان الحياة حدوث دائم — نعجز عن ركب التطور ونبقى في الدنيا على هامش الدنيا . ولئن احجمنا واستسلمنا للعجز كان علينا ان نتحمل النتائج . والنتائج ليست في صالح العرب .

طمأنة الاقليات

مسألة الاقليات الدينية قائمة في العالم العربي ما لم تنفصل الدنيا عن الدين . وللمسلمين ان يحضنوا الاقليات ويوافروا لها المساواة فلا تبقى على خوفها وتعرض العرب للهزات . واذا كنا صارحنا الاقليات فلنصارح المسلمين . ونحن ندلي برأي ولا نجود بنصح ، فالمسلمون « بعضهم اولياء بعض » . ولكن الرأي رأي ولو صدر عن فرد . فالاقليات تخشى مد الاسلام ، وهي ، ان احترمت الاسلام ، تحترم نفسها وايمانها . وما يضير العرب ان شرحوا الصدر لها وصانوا حقوقها ومدوا لها اليد ؟ واذا كان صحيحاً ان الاسلام « لا يكره في الدين » وان الاكراه المباشر عارض ، فحسب ، في تاريخ الاسلام ، فمن الصحيح ، ايضاً ، ان التضييق على الاقليات هو اكراه على الاسلام . فاما ان تكون الاقليات من مجموعة المواطنين واما ان تكون في ديارها غريبة . ومن اثرت في وجهه العقبات وعلقت بقاءه على موقف معين اكرهته عليه. ولا سبيل الى النظرة الى المواطن من منظارين مختلفين ، فالمواطن الرئيسي والمواطن الثانوي ينتفيان من معجم المنطق. ولا ولاء على الاقليات ان أعدت لدور صغير وكانت هي في مقام والاكثرية في مقام .

تطمين الاقليات يحمل ، في ذاته ، بذور زوال الكيان العبري ،

فالحلم اطل به ، مثلاً ، على « حزام امني » درعه الاقليات الدينية والعنصرية . ولئن انتفى مبرر الحزام ضاق عليه الخناق . وان عمت رحابة الصدر نظر الغرب الى العرب نظرة جديدة . والغرب ، في قراراته ، يخال ان الاسلام ليس التساهل عينه . واذا كانت قيم الاسلام واصالة الاسلام واقعاً لا نزاع فيه فأصالة الاسلام وقيم الاسلام تأبى ان تفرض امرها على الآخرين . والاصالة والقيم روحية في الاساس. ولكل زمن قدره . وما ساغ البارحة قد يحرّم اليوم . وابن خلدون لحظ التطور . والامر ، في رأيه « اختلاف على الازمنة »، فالسنن تغالب وتغلب ، ولا خلاف في غلبة السنن .

البدهيات الثلاث

الواقع اثرنا منه جوانب ولحظناه من افق عام . والافق يشمل الصراع اللبناني والنوازع فيه . وما يقلق هو آثار الحرب . والتحليل ان اعتمدناه قاد الى بدهيات ثلاث تتناول الاستقرار في الازمة وتتناول ، ايضاً ، انعكاسات الازمة ونظرة العرب واللبنانيين بعد احداث لبنان .

١ ـ الحرب ، في المنطقة العربية ، طويل رغم الترجحات القائمة في الصف العربي بين الحرب والسلم . والاعتقاد ان عجلة السلام مندفعة الى غير رجعة يخالف ، في رأينا ، الواقع . فالعرب يدركون ، وان على تفاوت ، ابعاد الخطر الصهيوني . وما لم توافق سوريا على الصلح ويوافق العراق فالصلح وهم . ومن لا تفعل فيه قومية المعركة فعلها يتأثر بعامل الدين . والدول بعضها لا يرضى بالكيان العبري مساساً وبعضها يدافع عن « فتوحات الكيان العبري». والغباء ، في حالات ، لا يعرف الحد . ومن يلق النظرة على اتفاقية « معسكر داود » يرَ اثر

الغباء ، فلا المنطق يسلم بأن « الحل » حل و« السلام » سلام ، ولا العدالة والكرامة ترضيان بأن يظفر الكيان العبري بفلسطين ويجعل من الاتفاقية الحاصلة تنازلاً عن « حقه التاريخي » .

صحيح ان الصهيونية تؤازرها ، في الخارج ، اعداد اليهود الوافرة وتحظى بتأييد الولايات المتحدة الاميركية . الا ان الولايات المتحدة الاميركية لا تفعل الصلح منفردة وان فعلت الحرب منفردة . فثمة دول كبرى لها رأيها . والعالم ، اليوم ، يحدّث عن ظلامة الفلسطينيين كما حدّث ولا يزال عن غرف التعذيب . ومن يقرأ يلمس شدة العطف ، فالعالم ان بغى ، في الامس ، حلاً للمشكلة اليهودية ينشد ، اليوم ، حلاً للمشكلة الفلسطينية . والحلان يتناقضان . ولكن العالم يريد الحل ولا يعرف التفصيل .

وصحيح ، ايضاً ، ان صاحب الحق له في حقه الكلمة. والانظمة العربية لو قبلت بالصلح لواجهتها الصعوبات . ولو تغاضى المسؤولون وتسامح الجمهور فالفلسطينيون كفيلون بزوال التسامح والمغاضاة . فلئن تخوف العرب على القصور وطابوا للرغد ومدّوا الارائك فالفلسطينيون لا يملكون القصور « ولا خيل عندهم ولا مال . » ومن يخسر كل شيء ويهيم على وجهه لا يتخوف على شيء . فاذا هدم قصر او تصدع منزل فالنتيجة وبال . اما الخيمة فان ثقبها رصاص فاما ان يصلح خرقها واما ان تبدل . وكلا الامرين لا يحتاج الى وفرة المال .

*

المصائب والويلات يقابلها العرب بالاستسلام الى الله . والاستسلام الى الله يشحذ العزم ويعلم الصبر ويجابه الاحداث انى تكن الاحداث.

والصبر ، اساساً ، عند العرب امره راهن . وهو لا يعود فقط الى الاسلام بل له جذور تمتد الى الجاهلية والى طبيعة العرب . والصبر تساعد عليه وفرة الاعداد. والعرب كانوا يصبرون ما صبرت النسوة على آلام المخاض .

العرب ان خانتهم التقنية ، بعض الشيء ، فلا تخونهم الشجاعة . وهم يعتبرون الثأر من اصول الايمان ، فالجاهليون خالوه جزءاً من معتقدهم الديني فرددوا : « النار ولا تترك الثأر (١) . « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم » يقول القرآن (٢) . وابن حنبل يروي عن النبي حديثاً يحكم العداوة مع اليهود ويدفعهم عن فلسطين (٣) . ومن الضروري ان نلم بالواقع وبالذهنية والمعتقد قبل ان نبرم الاحكام .

*

المعطيات لا توحي بأن العرب يغفل جميعهم قدره وينهج نهج الرئيس المصري . والدقة تشير الى استقرار العرب في الازمة الى امد

---

(١) L'Arabie Occidentale, Op. Cit. pp. 231sq.

(٢) البقرة ١٩٤ .

(٣) « كتاب الفتن واشتراط الساعة » عن صحيح مسلم ، طبعة محمود توفيق ، الجزء الثامن عشر ص ٤٥ : «جاء عن أبي هريرة ان الرسول، صلى الله عليه وسلم ، قال لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبىء اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر او الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فاقتله الا الغرقد فانه من شجر اليهود . » « والغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس ، وهناك يكون قتل الدجال واليهود . ويقول ابو حنيفة الدينوري اذا عظمت العوسجة صارت غرقدة » .

— بالمعنى نفسه ، البخاري ، الجزء الرابع ، ص ٢٣٩ .

طويل . وهم ان عرفوا الراحة فراحة يشوبها الحذر ويعقبها النزاع ، والامر قدر في تاريخ العرب ، فما ان يقوم ، عندهم ، سيد حتى يطيح به سيد ويجلس خليفة حتى يحاجّ فيه . وكأنهم والاستقرار على طرفي نقيض . وكأن الموت على « فراش الموت » يخالف سنة الموت .

الاستقرار في الازمة هو من قدر العرب ، والعرب ان عاشوا فيه فلا بد للبنان من ان يعانيه . فالنزاعات تعصف بالمنطقة ، ومناورات الكيان العبري وتأليبه فريقاً على فريق لا نقاش فيها ، والحياة تختل وان على صعيد اقتصادي . وهي ، ان عاد الى لبنان « النشاط الاعلامي » في تياراته ومتناقضاته ، تتأثر به وتدور في فلك المأساة . والدوران في فلك المأساة هو ، في ذاته ، مأساة .

ب — الحرب وآثار الحرب يعرفها الناس ، وأمرها عرضناه من قبل . وما يستوقفنا ، الآن ، هو الانعكاسات من باب معين ، فالعرب تأثر بعضهم بالواقع وبعضهم لم يلتفت اليه . ومنهم من يخلص الى ان الاستقرار ان عبثت بـه الدولة العبرية فثمة اقليات لم تسعَ اليه وان الاقليات عبء ولا بد من حل ، والحل تهجير وترحيل . واني يكن نصيب الاحتمال من النجاح فالاحتمال وارد في تفكير معلوم . ونقيض الاحتمال ، ايضاً ، في حيز الممكن . فلا التذويب حلّ ولا الترحيل حلّ وبهما لا ترضى الاقليات ولا يرضى الغرب . والحل هو في طمأنة الاقليات ومعاملتها معاملة الند للند .

ج — النزاع اللبناني خلص بأكثرية اللبنانيين الى ان العيش المشترك لا بد منه . فمن آثر التقسيم ألمّ بمحاذيره . ولا بد من لقاء . واذا كان بعض اللبنانيين يتمسك بالأرجحيات فالعالم يرفض الارجحيات ويوصي

بالمساواة . وثمة لبنانيون يرون ان النزاع حولها هو شر النـــزاع . والاحداث اثبتت ان الحلول تنطلق من المساواة .

مناورات الدولة العبرية، من جهة اخرى، تنعكس على حياة الناس . والعرب لا يغفلـــون المواقف ويذكرون زلة الرئيس المصري. واللبنانيون ، انفسهم ، يتقاذفون الاتهام . والجرح ينزف والحكمة لم تود باثار الخصام . والاتهام ان قام فالتفسير قائم على صعيد نفسي . والميزان ان عدل لا يميل كفتـــه لصالح العرب ، « فأصل العرب » ودرعهم الاول خاطبا الغزاة . ومن « قدر» العرب ان يكونوا عـــلى « دين السادة والكبراء » .

ازمة ام وفاق ؟

الواقع ليس جمالاً بمعنى الجمال . وقد يكون جمالاً اذا انجرفنا بمتاع الغرور وخلنا الدنيا ثراء ومظاهر وسراباً . ولكن الغرور هـــو الغرور ، والعالم يواجه المتاعب ، والحروب تنتقل من مكان الى مكان، وفي نطاق البلد الواحد تكثر النوازع . « ومن سره زمن ساءته ازمان. » والنوازع تزول ان تبدلت طبيعة البشر . ولا بد من التسليم بالواقع ان شئنا مداواة الواقع .

الانسان ان لم تفرقه العصبيات العنصرية شقت لحمته نوازع الدين . وهو ان تخلى عن الايمان دار في فراغ . واني يفعل لا يدرك الطمأنينة الا اذا تخلى عن الرغبات ، فالرغبات ، في رأي الحكماء ، هي مصدر الشقاء ومنه شكا الانسان ولا يزال ، فتحسس الشقاء لا مفرّ منه ما لا تسود الحكمة على اطلاق . والحكمة ان عرفتها النخبة فلا تدركهـــا العامة . والنخبة اصابع اليد وان زادت عنها فبقدر قليل .

ما يهمنا ، فعلاً ، هو السبيل الى الحياة بعيداً عن الهزات . وكأننا عبثاً نسائل فيه . وبعضهم تخيله في تلاشي الحدود ووحـــدة المبادىء

وزوال القومية . وبعضهم امله في الالحاد ونسي ان الايمان بالقوة الفاعلة يعود ، في ما يعود ، الى الضعف البشري والى الشعور بضرورة الايمان بالله ، فلا تلاشي الحدود ولا زوال القومية ولا الالحاد ولا وحدة المبادىء او « الايديولوجيات » توافر الحل الشامل . ووحدة المبادىء، على سبيل المثال ، لم تحل دون النزاعات المستحكمة بين الصين والاتحاد السوفياتي . والحل الشامل لا وجود له ما دام الانسان انساناً يتحكم فيه الضعف وتفرقه المصالح . والدهر الذي حدث عنه النبي اشعيا (١) وعانق فيه الحمل والذئب ، الجدي والنمر ، هو من الرؤيا ، او من الرجاء . ولعله يطل في الآخرة . وبعضنا يبحث عن الآخرة ولا يرى للمطاف حداً . وما يراه انه يحيا شهيداً على عذابه وعلى شقاء الناس وشهيداً على نفاق العالم ، فالكلام في معجم الشعوب لا يعني ما يعنيه . والشعوب تحدث عن « المبادىء » وعن « حقوق الانسان » بهدي من مصالحها . فالحقوق والمبادىء تشمل فريقاً ولا ترعى فريقاً كأن الانسان انسانان وليس من جبلة واحدة . ان تشرد شعب وزالت مدن واندثرت قرى لا يثور الضمير ، والضمير يثور لأمر عابر ان امكن استغلال الامر لتحقيق الغايات وتأمين الاطماع .

التفسير تفسيران : اما ان تكون القحة (٢) بلغت في الانسان حداً اصبحت معه الحقوق والمبادىء واصبحت القيم ، بوجه عام ، تعابير فارغة يحدث عنها للنيل منها والضحك من وراء الستار ، واما ان تملك المبادىء والحقوق والقيم وعي الانسان ولا وعيه — اي شعوره الباطن —

(١) اشعيا ٢١ – ٦
(٢) Cynisme.

فيدرك اهميتها ويضفي او يحاول ان يضفي ، عن طريقها ، الجد على اقواله ويحتمي وراءها خشبة خلاص تجذب الناس وتوافر له ثقة الناس ويؤمن مصالحه انطلاقاً منها . وفي الحالين تسلم الحقوق والمبادىء ويرسب الانسان .

ما يطمئن ان الانسان ان استسلم للخيال وطاب للرياء وعرف الغرور فهو ، ايضاً ، يعرف حده ويلمّ ببواطن ضعفه . ولو جهل ضعفه لما سعى الى تقويم ضعفه . وهو اذ يقر بعجزه ويحلل عجزه يمضي على درب الصواب . ولو احجم لكثرت عليه المخاوف . ولكن السعي وارد ، وتبدل النظرة لا بد منه . واملنا ان تطغى الارادة على الضعف . واملنا ان نثوب فنتوب و« التائب عن الذنب — يقول الحديث — كمن لا ذنب له . »

*

ما اثرناه فصول وكل فصل ، في ذاته ، يستدعي دراسة خاصة. ونحن آثرنا الخيوط العامة على دقة التفصيل . وكثر قد ينعون القول العابر ويرغبون اسهاباً في التحليل . وما يرونه لا خطأ فيه . ولكن عذرنا وارد فالاسهاب يضني والهوى جامح والاشياء بعضها في كنف الاسرار ، والمعطيات ، احياناً ، تنأى عن متناول اليد .

الا ان رسالتنا محددة وقدرنا معروف والاسس لا تعرف التبديل ، فلا لبنان يذوب ولا التقسيم يحل المعضلة ، ولا الارجحيات ، بقيت ام انتقلت ، تطمئن اللبنانيين . والحل وفاق ومساواة . وعلام نحيا الدوّامة ونسمع الصراخ ونعاود الانين و« نقنص » ونقتل ، كأن الاستقرار في الازمة اللبنانية رديف لاستمرار الصراع بين العرب

والصهيونية وكأن خاتم النزاع في الشرق الاوسط ، ان تحقق ، يطل ، حكماً ، على وضع يرضي فئات وترفضه فئات ؟

لا نرى ، على كل ، — وفي القول تكرار — ان الحل في الشرق الاوسط هو في متناول اليد وان الرفض العربي الذي يجابه الصهيونية منته امره . فالعرب ان سالموا « فلن يصالحوا » . وبالصلح نعني مفهوماً ينشىء العلاقات الطبيعية مع الصهيونية الغازية على صعيد سياسي واقتصادي وتجاري وثقافي . وما نراه ان محاولات الوفاق تبقى محاولات وفاق وان محاولات الصلح ان تمت هي حبر على ورق . وكل حلٍّ حلٌّ مؤقت ما دام النقيضان متوافرين يقومان على النهم الصهيوني والرفض العربي .

*

رجاؤنا ان يستتب الامن ويعود الصفاء الى ربوع لبنان . والسلام فيه لم يرتبط تماماً قرابة ثلاثين عاماً بالازمة الفلسطينية او بالحروب العربية الصهيونية . واذا كان الاستقرار اللبناني الشامل ينأى عن متناول اليد ما دام الواقع الصهيوني يعبث بأمن الشرق العربي فالأمر لا يفيد ان الاضطراب الذي شهده لبنان قائم الى ما لا نهاية له اللّهم الاّ اذا شاءت الاقدار ان تجعل من جنوبي لبنان ومن لبنان نفسه ساحة لصراعٍ «تضيق» به رحاب اوسع . « فدول المواجهة » ، نفسها ، عرفت الحروب السريعة وعرفت الاستقرار الطويل وان شاب ، لديها ، الاستقرار الحذر الكبير . والاستقرار اللبناني ليس رهناً بالتفاهم بين العرب والكيان العبري . بل يقوم على الوفاق العربي العربي وعلى الموقف اللبناني الواحد

من الكيان العبري . « وللسلام اللبناني » شروط تقوم ، خاصة ، على ارادة اللبنانيين وعلى بقاء لبنان . واذا كانت الدولة العبرية تخطط لتدخل مباشر فالتدخل ان حدث يجر الويلات ولا يبدل شيئاً في كيان لبنان .

الاستقرار في الازمة اللبنانية يوسع رقعة القتال ولا يحصره في بيروت الشرقية وضواحيها . والقتال ينتقل ، لسبب او لآخر ، من مكان الى مكان ، فالفرقاء يتربص بعضهم ببعضهم ، ومنهم من يؤثر « الحل العسكري » . والصراع ، ان دام، شطر سكان الجبل ، فثمة من يبغي تصفية حسابات وثمة من سئم الواقع واضناه الصمت وافتقد السلام وخال ان شراً قد يثمر خيراً . وثمة من يتهم اللبنانيين بخلق « قضية » واشعال الفتنة . وكل لبناني يشكو ويتألم . وبعضهم يعجب ان يسود الهدوء من لبنان سواده الاعظم وان يستمر القتال في مكان معين فيسائل ويخلص الى ان لا راحة ولا قرار ما لا ينتقل الى « المناطق الآمنة » . والمناطق الآمنة توافر تمازج اللبنانيين ، والحرب من اهدافها اثبات استحالة التعايش بين الطوائف والفئات . وهكذا يفضي استمرار النزاع الى دفع احدى مبررات الحرب .

الحجة لا تعوز الناس . وكل رأي له ما يبرره من افق معين . ولكن التبرير شيء والحقيقة شيء . ومن بغى امراً يوافر عنه اسباب الدفاع . وبوسع الانسان ان يجادل ويناقش ولو أثقله الخطأ وقامت على الحقيقة الادلة وقام عليها الاثبات .

المنطق وان ساندته المواقف والارادات والرغبات يرسب ، احياناً، امام ارادة الافراد . والافراد ان لم يقبلوا الموازين ويحققوا الاهداف قادرون ، امام الفراغ وفي حالات الترجح ، على دوام الحال . والحال

تصلحها النيات الحسنة ولا تبدل فيها النظريات ، فلكل انسان نطاق ، وصاحب العلم والنظريات لو لزم حده لأراح وأفاد ، فالنظريات تغفل الواقع وتطرح من الحلول شر الحلول وترى الامور ، جميعها ، في متناول اليد . والحكمة ليست ، دوماً ، على ألسنة النخبة بل هي ، ايضاً ، على ألسنة الناس . والناس يبغون الوفاق ويبغون الحفاظ على وحدة لبنان وسيادة لبنان .

*

عزاؤنا اننا ، منذ اللحظة الاولى ، اثرنا الوئام ودعينا اليه ولم نقف ، تارة ، على حبل صادق ، وطوراً على حبل النفاق . ولم نكن في اسرار الآلهة بل خلدنا الى التحليل ورفضنا ، في محيطنا الضيق ، مواقف شحذت الهمم واذكت الفتن ، وطلعنا ، في حينه ، ببيانات اربعة أبينا فيها صراع الاخوة فاثنينا من أثنينا وردعنا من ردعنا . وبعضهم تعهد وغدر ، ولكل شيء اوان .

النظرة رائدها الاخلاص . والنظرة نسبية . والموقف ، عندنا ، نبع من ايمان صادق بوحدة لبنان . والمؤمن لا حرج عليه . وبالتقدير نشخص الى الرأي المخالف ونرجو التجرد فيه . اما نحن فايماننا قديم . ومن شب على شيء شاب عليه . وآمالنا ، دوماً ، تعبر نهاية الحد وتجيل الطرف في كل مكان .

اللبناني درعه الفكر ولا انثناء عنه . وللبناني مهام تقوم على العلم والمعرفة والمحبة والسلام .

المراجع

ابن خلدون: المقدمة، العمران البدوي، الامم الوحشية والقبائل، العرب.

ابن عساكر : التاريخ الكبير ، مطبعة روضة الشام ، ١٣٢٩ هـ .

ابراهيم ابو خاطر : الخواطر ، مطبعة زحلة الفتاة ، زحلة ، ١٩٣٣ .

هنري ابو خاطر : فلسطين والخطر المصيري بين النيل وشبه جزيرة العرب ، منشورات عويدات ١٩٦٩

هنري ابو خاطر : من وحي تاريخ الموارنة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٧٧ .

هنري ابو خاطر : جمهورية زحلة « اول جمهورية في الشرق » ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٨ .

البخاري : دار احياء التراث العربي ، بيروت .

المطران يوسف الدبس : الجامع المفصل في تاريخ الموارنة المؤصل ، المطبعة العمومية ، بيروت ١٩٠٥ .

امين الريحاني : ملوك العرب ، مطبعة صادر ، بيروت ١٩٢٩ ، طبعة ثانية .

الشهرستاني : تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل ، القاهرة .

العهد الجديد .

العهد القديم .

القانون الصادر في ٢٣ حزيران ١٩٥٩ لغــير المحمديين في الوصية والميراث .

القرآن .

الواقدي : فتوحات الشام ، طبعة مصر .

الانوار ، ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٨ .

دراسات الكسليك ، القضية اللبنانية ، ١٩٧٦ .

الخوري بولس قرألي : فخر الدين .

كتاب الفتن واشتراط الساعة ، طبعة محمود توفيق .

نبوءة وحيد العين ، الشيخ عبد الرحمن خ ، ١٣٨٨ هـ .

ولي الدين يكن : الصحائف السود ، مطبعة المقتطف ، مصر ، ١٩١٠.

وثمة احاديث واقوال وابيات شعر لم يعد فيها المؤلف الى المراجع .

BIBLIOGRAPHIE

CALVIN, *Institution Chrétienne.*

DOMINIQUE CHEVALIER, *La Société du Mont-Liban à l'Epoque de la Révolution Industrielle en Europe,* Guetner, Paris, 1971.

LUIGI CHRISTIANI, *L'Eglise à l'époque du Concile de Trente ,* Blond et Gay Editeurs.

JACQUES DEROGY et HESI CARMEL, *L'Histoire Secrète d'Israël,* Editions Olivier Oram, Paris, 1978.

Documents Diplomatiques et Consulaires relatifs à l'Histoire du Liban et du Proche-Orient du 17^{e} *siècle jusqu'à nos jours,* Publiés par ADEL ISMAIL, Editions des Oeuvres Politiques et Historiques, Beyrouth, 1975.

L'Espress, N° 1433, 30 Décembre 1978.

Informations Catholiques, Paris, Mars 1972.

HENRI LAMMENS, *L'Arabie Occidentale à la veille de l'Hégire,* Imprimerie Catholique, Beyrouth, 1926.

« « *La Syrie,* Imprimerie Catholique, Beyrouth 1921.

EMMANUEL LEVYNE, *Judaïsme contre Sionisme,* Editions Cujas, Paris, 1969.

« « Tsedek, *Dossiers Mensuels,* Nanterre, France, N° 110 — 111.

Ministère des Affaires Etrangères Français, Bulletin d'Information, 17 Octobre 1978.

MISSION IRFED, *Besoins et Possibilités de développement du Liban,* 1960-1961, République Libanaise, Ministère du plan, Beyrouth.

المــؤلف

فلسطين والخطر المصيري بين النيل وشبه جزيرة العرب ، منشورات عويدات ، بيروت ١٩٦٩ .

من وحي تاريخ الموارنة ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٩٧٧

جمهورية زحلة «اول جمهورية في الشرق» ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ١٩٧٨ .

*

جاهز للطباعة :

نظرات في الحتمية والجبرية والحرية .

LE MONDE, 7 et 16 Octobre, 1 Novembre, 15 et 16 Décembre 1978.

LE MONDE DIPLOMATIQUE, Novembre 1978.

MAXIME RODINSON, *Israël et le refus arabe,* Seuil, 1968.

S.O.S. *LE LIBAN,* «*Foyer Chrétien*» *du Proche-Orient.*

VOCABULAIRE DE THEOLOGIE CATHOLIQUE

J. YANOWSKI et J. DAVID, *Syric Ancienne et Moderne,* Didot Editeurs' Paris, 1961.

***

CORRIERE DELLA SERA, 11 Ottobre 1978.

L'OSSERVATORE DELLA DOMENICA, 5 Novembre 1978.

***

GEORGES ANTONIUS, *The Arab Awakening,* Capricorn Books Editions, 1965, Newyork, Sixth Edition.

ANTAL BARTAL, *The Magyar Society in the Eith and Ninth Centuries* Budapest, 1908.

ARTHUR KOESTLER, *The Thirteenth Tribe,* Hutchinson of London,1976.

KAMAL SALIBY, *Gross road to Civil War, Lebanon* 1958-1976, Edition Caravan, London.

مؤسسة خليفة للطباعة
بولفار الدورة، البوشرية
تلفون: ٢٦٥٦٣٨

٢٠ / ٧٩ / ١٦ / ٢٥١

LAU-Byblos Library

بين النكبة والمأساة